السيرة النبوية





عبد الحميد جوده السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب ﴾ .

(قرآن كريم)

١

تألم رسول الله ﷺ ألما شديدا فى عام الحزن ، فبعد عشر سنوات من دعوته مات عمه أبو طالب الذى كان يمنع أذى قريش عنه قبل أن يصبح له أنصار أقوياء يمنعونه ويقومون معه يقاومون طغيان الكافرين ، ويعملون جاهدين على نشر أنوار اليقين فى قلوب الناس الراغبين فى جوهر الحقيقة . عشر سنوات مضت فى جهاد كانت كفيلة بانتشار الإسلام لولا عناد وجوه قريش الذين ناصبوه العداء وآذوه وفضوا الناس عنه . خشية أن تتفتح أفئدتهم للحكمة التى تنزل عليهم من وراء السماوات من لدن عليم خبير .

حزن الرسول عليه السلام لموت شيخ الهاشميين الحبيب ، وزاد فى حزنه أن الله قد نهاه عن أن يستغفر للشيخ الذى شب فى كنفه وحماه بعد أن أرسل وقال له : « اذهب يابن أخى وقل ما أحببت » . ولم يكتف بتأييده ونصره وإن لم يؤمن بما جاء به .. بل رحب بإسلام بنيه وقال لهم إن الأمين لم يدعهم إلا إلى خير ، ولولا إيمانه الذى استبد به بأن الله أجل من أن يبعث بشرا رسولا لكان من السابقين .

كان ذهاب أبى طالب واختفاؤه من حياة الرسول خسارة فادحة حزت فى نفسه عليه السلام ، وقبل أن يصل إلى أغوار النكبة إذا خديجة أم المؤمنين التى صدقته عندما كذبه الناس . وآزرته وكانت له وزير صدق على الدوام ، تموت بعد موت أبى طالب بثلاثة أيام ، فكادت نفسه أن تذهب شعاعا . فالطاهرة كانت قبل البعثة خير معين له على أن ينقطع للعبادة والتحنث والنظر إلى وجه الله ، وما كانت تضيق بحبه العزلة ، بل

كانت تبارك فيه حب النزوع إلى ملكوت السماء ومحاولة الاتصال بالخير الأسمى وكمال الكمال . وكانت بعد الرسالة نبض الإسلام وحاضنة الدعوة والبلسم الشافى لكل الجراح ، فما عاد إليها باسر الوجه مثقلا بالهموم والأحزان إلا أقبلت عليه تشجعه وتواسيه ولا تقوم عنه حتى تمسح عن قلبه الكبير الأوصاب ، ويفتر ثغره الجميل بالابتسام ، ويتألق فى عينيه الدعجاوين الآسرتين العزم والتصميم على احتمال كل الآلام فى سبيل الله ، حتى يؤدى الأمانة ويبلغ ما أنزل إليه من ربه .

خمس وعشرون سنة مرت منذ تزوج سيدة نساء قريش شاركته فيها آماله وآلامه ، مسراته وأحزانه ، وقد وقفت إلى جواره فى أحسم لحظة فى تاريخ البشرية ، يوم أن جاءها من غار حراء يقص عليها وهو يرتجف من الخوف نبأ نزول الملك عليه من السماء ليقول له : اقرأ . لقد صدقته ، ولو أنها خالجها أدنى شك فى صدقه لزادته رهقا فى الوقت الذى كان فيه فى أشد الحاجة إلى من يثبت فؤاده ويُذهب عنه روعه ، ولزعزعت إيمانه بنفسه وتصديق ما أنزل إليه ، ولا جرم فقد كان يحسب أن به كهانة أو جنونا . ولكن الله اصطفاها وأعدها لتكون نعم العون لزوجها الذى سيكلف بأروع رسالة ولا يقدر على النهوض بها إلا أولو العزم من الرسل .

كانت رحمة وأمنا وسلاما وملاذا وقوة دافقة مفجرة لطاقات غنية غزيرة غرسها الله من فيض كرمه فى نفس رسوله ، وكان بيدها الحانية مفاتيح كنوز قلبه . ولما كانت غنية بأنبل العواطف ، خيرة زادها إيمانها بالله ورسوله خيرا على خير ، فقد كانت تثرى خزائن رحمته بما ملأ الله قلبها من كنوز بره ، فكانت الرحمة تتدفق من بيت النبوة تغمر المصدقين والمكذبين . فعلى الرغم من قوة محمد عليه السلام الخارقة فإنه لم يلجأ إليها أبدا ليدفع عن نفسه الأذى أو يرد كيد المعتدين . وكان غاية ما يفعله أن

يقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون .

كانت عين الجود ، جادت براحتها فى سبيل تهيئة كل سبل الراحة ليتدبر زوجها ويتفكر ويتأمل ويذوب فى روح الوجود ، وجادت بأموالها لوجه ربها الكريم ، وتحملت الألم والعذاب والاضطهاد والتشريد والجوع فى شعب أبى طالب فى سبيل الحق حتى جادت بروحها راضية مرضية . قد أذلت الدنيا بإدبارها عنها وأعزت الآخرة باقبالها عليها ، وبكتها أعز الدموع التى ذرفتها البشرية ، ولا غرو فقد بكاها رسول الله — ﷺ — وصحبه بالدمع الهتون .

لك الله يا خديجة ، يا طاهرة ، يا سيدة نساء قريش ، يا حاضنة الإسلام ، يا أم المؤمنين ، يا حبيبة الرسول ، يا من لم يستقر له مقام فى داره من بعدك ، فقد هجره من لوعة الأسى ليبيت فى دار أم هانئ بنت عمه أبى طالب ، أو فى الحجر فى الحرم فى حراسة المطعم بن عدى وآله ، أو فى أى دار من دور بنى هاشم فى شعب أبى طالب ، فغيابك عن الدار شيء موجع أليم لقلب مرهف رحيم .

ونال كفار مكة من رسول الله — ﷺ — ما لم يكونوا ينالونه أيام أن كان عمه أبو طالب يحميه ، وقد بلغ بهم الصلف أن خيروه بين إهدار دمه أو الطرد من مكة ، فخرج عليه السلام ومعه غلامه زيد بن حارثة إلى الطائف وهو يرجو أن يجد فى ثقيف رجالا يؤمنون به وبرسالته ويمنعونه حتى يبلغ رسالات ربه . ولكن ما ناله من أذى فى الطائف كان قمة مأساة عام الحزن . فسادات ثقيف لم يكتفوا بأن أعرضوا عنه بعد أن سخروا منه ، بل أجلسوا سفهاءهم على جانبى الطريق يضربون رجليه بالحجارة حتى تدمى ، فإذا ما أجهد من العذاب وانهار على الأرض ليلتقط أنفاسه هرعوا إليه ورفعوه من تحت إبطيه ودفعوه فى الطريق ليستأنفوا رضخ

رجليه بالحجارة . إنه يستشعر آلاما حادة تخز روحه كلما تذكر ذلك المشهد الرهيب ، ويزيد فى عذابه أنه لم يستطع أن يعود إلى مكة قبل أن يجيره المطعم بن عدى . ترى ماذا كان يفعل لو أن المطعم أبى أن يجيره كما أبى الأخنس وسهيل بن عمرو ؟

كان عام الحزن مفعما بالأسى . قاسى فيه رسول الله — ﷺ — والمسلمون الأحزان الثقيلة التى توالت وتعاقبت حتى لقد بدا أن الإسلام يواجه محنة . و لم يكن فى هذه السنة القاسية إلا تسرية واحدة خففت بعض الشيء من لوعة الشجن ، فإن الله سبحانه وتعالى أخبر عبده ورسوله أن نفرا من الجن قد ألقوا إلى القرآن سمعهم فأجابوا داعى الله : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ﴾[1] .

كانت بارقة أمل فى الظلمات التى رانت على حياة المسلمين الذين كانوا يمضغون الحزن وآلام العذاب صامتين ، وكانت تسرية للرسول عليه السلام الذى احتمل فى ذلك العام من الأحزان ما ينوء عن حمله بشر . ولكن الرسول الكريم الذى ذاق كل ألوان العذاب والاضطهاد والأسى كان فى حاجة إلى تسرية أعظم ، إلى آية كبرى من آيات ربه تمسح عن صدره ما رسب فيه من مرارة التكذيب واتهامه بأنه مفتر ، وسخرية الساخرين وهزء المستهزئين طوال عشر سنين تصرمت مذ أول مرة التقى فيها برسول ربه فى الغار .

---

(١) الأحقاف ٢٩ — ٣١ .

سنون طويلة انقضت فى كفاح وجدال بينه وبين قومه ، ولم يستجب إلى دعوته إلا نفر من المؤمنين الذين شرح الله صدورهم للإيمان ، وكانوا فئة قليلة أعجز من أن ينصروه أو أن يقفوا فى وجه الشر الذى جمع صفوفه ليكتم أنفاس ما جاءهم به ، قبل أن يستفحل الأمر ويصل إلى قبائل خارج مكة فيفلت الزمام من الخانقين . وقد انتهت تلك السنون بموت أبى طالب وخديجة وخذلان الطائف الأليم . ولم يبق إلا ربه نعم المولى ونعم النصير .

كان على ثقة من أن نصر الله قريب . فقد أوحى إليه : ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾(١) وأنه : ﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾(٢) .

وغابت الشمس خلف جبال مكة فانطلق رسول الله ﷺ إلى بيت أم هانئ بنت أبى طالب ليبيت عندها ، وسار مكلوم الفؤاد فهو لا يطيق أن يمضى الليل فى داره بعد أن أقفرت من الطاهرة ولو أنه بنى بسودة بنت زمعة ، ولو أن فاطمة الزهراء تبذل نفسها لتهيئ لأبيها الصابر الحزين كل أسباب الراحة . ولو أنه لا يصبر على فراق فاطمة إلا أن ما يعتلج فى نفسه من الحزن والشجن كان يطغى على لطفه بابنته التى انطوت على نفسها بعد أن فقدت أمها الحنون .

وبلغ شعب أبى طالب فإذا بذكريات أيام الحصار القاسية تطفو على سطح ذهنه ، ففى ذلك الشعب جمع أبو طالب بنى هاشم وبنى المطلب مؤمنهم وكافرهم ليحموه من فتك قريش ، وقد صبروا على الجوع

---

(١) الروم ٤٧ (٢) يوسف ١١٠

والمقاطعة والتشريد . ورأى بعين خياله خديجة وهى تتلوى من الألم ، وأم كلثوم وفاطمة وعليا وزيدا وهم يتضورون من الجوع ، وسعد بن أبى وقاص يلتقط من الأرض شيئا طريا لا يدرى ما هو ثم يلقى به فى جوفه ليسكت صراخ بطنه ، واحتلت رأسه أقسى المشاهد التى مرت بالمحصورين فى الشعب فغامت بالأسى صفحة وجه الإنسان العظيم .

وبلغ دار أم هانئ فإذا بزوجها هبيرة يستقبله ويرحب به وإن لم يؤمن برسالته ، وكان الحوار كثيرا ما يدور بين الرسول عليه السلام وبين أم هانئ ابنة عمه وزوجها هبيرة ، وكان الإعجاب بحديث أبى القاسم يبدو على وجه الزوجين ولكن قلبيهما لم ينشرحا للإيمان ، فثبات أبى طالب على دينه حتى الممات جعلهما يعتقدان أن دين الآباء خير مما جاءهم به ابن عبد الله ، فلو كان خيرا ما أعرض عنه أبو طالب !

ونام عليه السلام فى بيت أم هانئ ، فبينا هو نائم عشاء إذ آتاه آت فأيقظه فاستيقظ فلم ير شيئا ، فإذا هو بكهيئة خيال فأتبعه بصره فإذا هو جبريل ، فأخذ جبريل بيده فأخرجه إلى المسجد فأسرى به ، فأحس عليه السلام أنه يسمو ويرتفع حتى ساد الخافقين ، وراح جبريل يجوب به ملكوت الله والرسول عليه السلام مأخوذ بما يرى . ثم استوى جبريل بالأفق الأعلى على هيئته التى خلقه الله عليها ، فجعل محمد عليه السلام يرنو إليه فى دهش وقد هوى إليه فؤاده . إنه رآه أول مرة وهو يملأ الأفق عند غار حراء فخر مغشيا عليه ، أما الآن وهما فى السموات العلى فإن الرسول عليه السلام يرقبه وقد تهلل بفرح روحى فياض ، فكل ما حوله يملأ النفس دهشة والفؤاد بهجة ونشوة والعين نورا ينسكب فى أعماق الذات .

واستشعر النبى الكريم أنه دنا من رب العزة ، وما كان دنو مكان ولا قرب مدى ، فسبحانه وتعالى فى كل مكان . بل كان رفعة منزلته وتشريف رقبته

وإشراق نور معرفة الله ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته ، وملأت جوانحه بهجة الأنس بربه والتفرح بفيض كرمه ، فقد بلغ نهاية القرب ولطف المحل وإيضاح المعرفة والإشراف على الحقيقة .

فأوحى الله إلى عبده ما أوحى ، فرض عليه الصلاة وأنزل عليه : ﴿ ألم نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك وزرك * الذى أنقض ظهرك * ورفعنا لك ذكرك * فإن مع العسر يسرا * إن مع العسر يسرا * فإذا فرغت فانصب * وإلى ربك فارغب ﴾ .

كانت تسرية محقت كل أحزان السنين التى انقضت منذ كلف بالرسالة حتى أسرى به . إنه متفرح فى الله وبالله . لم يعد يحس آلام نفسه لكأنما خلق من جديد بلا آلام ولا أحزان ، بل أمل ورجاء وعزم من جديد .

ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة نور رب العالمين ، ما زاغ بصره وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى (١) .

وانتهت رحلة الفضاء عند بيت المسجد ، فدخل عليه السلام ليصلى ركعتين تحية المسجد وقد امتلأ علما وحكمة ويقينا ، فقد عاين عظمة خلق الله وهو مبهور بجلال ملك الله ، فما كان يخطر له على قلب ما فى الكون من أعاجيب .

وقامت أم هانئ بالليل فلم تجد رسول الله — ﷺ — فى فراشه ، فامتنع منها النوم مخافة أن يكون عرض له بعض قريش ، وربت مخاوفها فبعثت إلى بنى عبد المطلب أن أبا القاسم فقد ، فتفرق بنو عبد المطلب يلتمسونه ، وبلغ العباس إلى ذى طوى وجعل يصرخ :

---

(١) انظر التذييل .

— يا محمد ! يا محمد !

فأجابه عليه السلام :

— لبيك .. لبيك .

فلما دنا عليه السلام من عمه قال العباس :

— يابن أخى عنيت قومك . فأين كنت ؟

— ذهبت إلى بيت المقدس .

فقال العباس فى دهش :

— من ليلتك ؟!

— نعم .

— هل أصابك إلا خير ؟

— ما أصابنى إلا خير .

وصمت العباس وقد امتلأ دهشا وأسفا ، فما كان يظن أن يصل ابن أخيه فى دعواه إلى أن يقول إنه ذهب إلى بيت المقدس وعاد فى ليلة . وسارا صامتين فى الظلام حتى بلغا دار أم هانئ بشعب أبى طالب ، فدخل رسول الله — ﷺ — على أم هانئ بغلس بعيد الفجر وهى فى فراشها ، فلما رأته هرعت إليه تسأله أين ذهب ؟ فراح عليه السلام يقص عليها قصة الإسراء وما رأى من آيات ربه الكبرى ، وهى تتفرس فيه لا تكاد تصدق شيئا مما يقول . وكيف يستطيع عقلها أن يسيغ أن محمدا عليه السلام ذهب إلى بيت المقدس وعاد منه فى ليلة واحدة ، والقوافل غدوها شهر ورواحها شهر !

وتأهب — ﷺ — للخروج فقالت له أم هانئ وهى تحسب أنه محموم :

— إلى أين ؟

— أنا أريد أن أخرج إلى قريش فأخبرهم بما رأيت .

يقول لهم إنه ذهب إلى بيت المقدس وعاد فى نفس الليلة ؟! إن أم هانئ لتفزع من هذه الفكرة ، فتعلقت بردائه — ﷺ — وقالت :

— أنشدك بالله يا بن عم ألا تحدث بهذا قريشا فيكذبك من صدقك .

وحاول رسول الله — ﷺ — أن ينطلق فى رفق ، ولكن أم هانئ تشبثت به وهى تقول :

— إنك تأتى قوما يكذبونك وينكرون مقالتك ، فأخاف أن يسطوا بك .

كانت أم هانئ لا تزال على دين قومها وكانت لا تصدق كلمة من حديث الإسراء ، فكانت تخاف أن يجر ذلك المتاعب على محمد فهو يعيش فى مكة فى جوار المطعم بن عدى ، فمن يدرى ماذا يكون موقف المطعم من أبى القاسم إذا أعلن على الملأ أنه أسرى به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعاد قبيل أن تشرق شمس اليوم التالى . ليردن جواره بلا ريب ، ولن يستطيع بعدها أبو القاسم أن يمشى آمنا فى مكة .

كانت أم هانئ متعلقة بردائه فضرب بيده على ردائه فانتزعه من يدها ، ثم خرج إلى الحرم وصوت أم هانئ لا يزال يرن فى أعماقه . لقد قالت حقا فهو ذاهب إلى قوم يكذبونه وينكرون مقالته ، فقعد حزينا فى المسجد فمر به أبو جهل فقال كالمستهزئ :

— هل كان من شىء ؟

كان رسول الله — ﷺ — على يقين من أن أبا جهل سيكذب حديث الإسراء ، بل سيجد مادة للسخرية تشفى مرض قلبه ، ولكنه عليه السلام

لا يستطيع أن يكتم ما شرفه الله به ولو نال من الهزء والأذى ما ينال ، فقال :

— نعم أسرى بى الليلة .

— إلى أين ؟

— إلى بيت المقدس .

— ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟

— نعم .

فلم ير أن يكذبه مخافة أن يجحده الحديث إن دعا قومه إليه ، إنها فرصة سنحت له ليؤكد كذب ابن أبى كبشة ، قال :

— أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم ما حدثتنى ؟

— نعم .

فوقف أبو جهل فى الحرم ينادى :

— يا معشر بنى كعب بن لؤى .

فانفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما ، فالتفت أبو جهل إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال :

— حدث قومك بما حدثتنى به .

فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى ثبات :

— إنى أسرى بى الليلة .

فارتفعت الأصوات قائلة :

— إلى أين ؟

— إلى بيت المقدس .

وراح عليه السلام يقص عليهم ما رأى من آيات ربه فضجوا وأعظموا ذلك ، وصار بعضهم يصفق وبعضهم يضع يده على رأسه تعجبا ويقول :

ـــ انظروا إلى ابن أبى كبشة يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة !

وقال بعض المسلمين الذين كانوا يتأرجحون بين الإيمان والكفر :

ـــ نحن لا نصدق محمدا بما يقول .

وسعوا بذلك إلى أبى بكر فراحوا يهرولون إلى دور بنى جمح ، فقد كانت دار أبى بكر فى ذلك الحى ، فلما التقوا بابن أبى قحافة قالوا فى فزع :

ـــ هل لك فى صاحبك ؟ يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس .

ـــ أو قال ذلك ؟

ـــ نعم .

فقال أبو بكر فى هدوء :

ـــ لئن كان ذلك لقد صدق .

فرموه بنظرة منكرة فقالوا :

ـــ أفتصدقه أنه ذهب الليلة ، إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟

فقال أبو بكر فى صدق :

ـــ نعم ، إنى أصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه فى خبر السماء فى غدوة أو روحة .

وانطلق أبو بكر إلى البيت العتيق فإذا برسول الله عليه السلام وقد التف حوله أبو جهل والمطعم بن عدى والوليد بن المغيرة والملأ ، وإذا بالمطعم يقول لرسول الله عليه السلام :

ـــ إن أمرك قبل اليوم كان أمما (يسيرا) غير قولك اليوم ، وأنا أشهد أنك كاذب . نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصعد أشهرا ومنحدر أشهرا . أتزعم أنك أتيته فى ليلة واحدة ! واللات والعزى لا أصدقك وما كان هذا الذى تقول قط .

كان بين المطعم بن عدى وأبى بكر صداقة وثيقة من قبل الإسلام ومن

بعده ، وقد خطب المطعم لابنه جبير عائشة بنت أبى بكر ، وعلى الرغم من تلك الصلة المتينة فإن أبا بكر لم يستطع أن يسكت على تكذيب المطعم لرسول الله — ﷺ — فقال :

— يا مطعم بئس ما قلت لابن أخيك ، جبهته بالمكروه وكذبته . أنا أشهد أنه صادق .

واشتد الجدال بين رسول الله — ﷺ — وبين المكذبين ، وملأت أصوات الاستنكار أرجاء الحرم ورددتها جبال مكة ، واهتز إيمان بعض المسلمين فما كان يقصد محمد عليه السلام شيء يعجز العقل عن إدراكه ، فقد ارتبطت أذهانهم بمسافات يعرفونها وسرعة يضربون بها فى البيداء وما كانوا يدرون شيئا عن الأسرار الكونية ، وما عرفوا بعد أن سرعة الضوء هى الأمر الثابت الوحيد فى الكون ، وكيف أن الزمن والفضاء عاملان نسبيان يستمدان قياسهما من سرعة الضوء ، وأن النور هو الحقيقة الثابتة فى الكون[1] ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ .

ما أوتوا من العلم إلا قليلا ، لم يعرفوا ما فى الكون من أسرار عجيبة ، ولو عرفوا تلك الحقائق المذهلة لأيقنوا أن رب العالمين الذى خلق تلك الأعاجيب قادر على أن يطوف برسوله أرجاء الكون فى لمحة عين ، ليريه من آياته الكبرى .

وماجت مكة بالدهشة من حديث الإسراء وحق لها أن تموج ، وتدفق الناس إلى البيت العتيق حتى لا يفوتهم ذلك الحوار الدائر بين محمد بن عبد الله الذى يؤكد أنه أسرى به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعودته إلى مكة فى ليلة واحدة وبين سادات قريش الذين وجدوا فى ذلك

---

(١) إينشتين .

الحديث فرصة ذهبية ليعلنوا على الملأ كذب الرجل الذى اشتهر طوال عمره بين قومه بالصدق والأمانة والخلق العظيم .

وراح رسول الله — ﷺ — يقرأ ما أوحى إليه : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . . والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى * علمه شديد القوى * ذو مرة فاستوى * وهو بالأفق الأعلى * ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى * ما كذب الفؤاد ما رأى * أفتمارونه على ما يرى * ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة ما يغشى * ما زاغ البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى * أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى * ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذا قسمة ضيزى * إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ .

واربدت وجوه الكافرين ، أفلا يكفيه أن يزعم أنه أسرى به إلى بيت المقدس ثم عاد فى ليلة واحدة حتى يسخر من آلهتهم ويقول إن هى إلا أسماء سموها هم وآباؤهم ؟ وارتفعت أصواتهم بالاحتجاج على هذه السخرية اللاذعة ، وفاضت بالدمع أعين المسلمين الذين ملأ الله أفئدتهم بأنوار اليقين وزادهم حديث الإسراء إيمانا على إيمانهم . فهو آية على قدرة الله . وقد آمنوا بقدرة الله التى لا تحد وبأنه إذا أراد شيئا قال له : كن فيكون .

وشغلت مكة بالإسراء فى نهارها وليلها فى الأسواق وفى الدور ، فى الوديان وفى شعاب الجبال ، بين المسلمين والكافرين رجالا ونساء . وكان المسلمون يتلون فى اطمئنان : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو

السميع البصير ﴾[١] . بينما كان الكافرون يستهزئون بالمخدوعين الذين سحرهم ابن أبي كبشة .

ولم تضطرب مكة من قبل اضطرابها لحديث الإسراء ، صار تسلية السمار فى نواديهم والتجار فى حوانيتهم والنساء فى مخادعهن والغلمان فى مراتعهم . وما كان الرسول عليه السلام يمشي فى طريق حتى تصك أذنيه كلمات الهزء والسخرية والسباب ، وما كان المسلمون يظهرون فى مكان حتى يجابهون بما يكرهون ، ثم تدوى ضحكات مستهزئة وقعها فى نفوسهم أقسى من وقع السهام .

كان الإسراء تسرية للرسول عليه السلام وتمحيصا لقلوب المؤمنين . فالإسلام مقدم على أخطر مراحله وهو فى حاجة إلى أن ينفض عنه المنافقين والمزعزعين . وقد أفزع حديث الإسراء ضعاف الإيمان فارتدوا عن الإسلام . وكان ذلك الارتداد خيرا للدين الحديد قبل أن ينخروا فيه بضعفهم ويوهنوا أركانه ، وكان الإسراء فتنة للناس ، وقد أوحى الله إلى عبده : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا ﴾[٢] .

٢

انقلب رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى أهله راضي النفس بعد أن رأى من آيات ربه الكبرى، وبعد أن أعلن على الملأ أنه قد أسرى به ليلا من مكة إلى بيت المقدس ثم أصبح بين ظهرانيهم. إنهم كذبوه وسخروا منه، وارتد عن الإسلام بعض أنصاره لما لم يصدقوا أنباء رحلة السماء. ولكن كل ذلك لم

---

(١) الإسراء ١ . (٢) الإسراء ٦٠ .

يفت فى عضده أو ينال من يقينه بعد أن سما ثم دنا فتدلى حتى كان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله إليه ما أوحى ، ففاض فؤاده بالعلم والحكمة والنور .

شرحت الرحلة السماوية صدره وغسلت فؤاده ، فكشطت آلام نفسه وما أصابه من تعب طوال السنين التى مرت يدعو فيها الناس إلى ربه دون أن يستجيب له إلا فئة قليلة آمنت بما دعاها إليه ، ولكنها ظلت فئة مستضعفة أهون من أن تثور على كفار قريش وأن تفرض عليهم إرادتها .

كان يستشعر حزنا عميقا كلما دعا قومه إلى عبادة الله وحده فما زادهم إلا نفورا ، وكان أساه يربو كلما وجد أن دعاءه لا يزيدهم إلا فرارا حتى إن ربه عاتبه قائلا : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾[1] . أما بعد أن رأى سدرة المنتهى وقد أشرقت بنور ربها وجلال آيات الله وعظمة ملكوته ، فقد امتلأ بالفرح واستبشر وأيقن أن مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ويضل من يشاء ويهدى من يشاء ويصيب برحمته من يشاء ، بيده الخير إنه على كل شيء قدير .

كان منذ أول يوم أوحى فيه إليه على ثقة من نصر الله لم تخالجه ريبة طرفة عين ، حتى إذا خرج إلى الطائف طريدا من مكة ومعه غلامه زيد وهو يطمع فى أن يجد بين الثقفيين من ينصره ويحميه حتى يبلغ رسالات ربه ، وقوبل بالسخرية والتكذيب ، ونال منه سفهاؤهم ما نالوا ، خشى أن يكون الله قد غضب عليه فوقف يبتهل إلى الله والدماء تسيل من رجليه والدموع تنهمر من عينيه ويقول فى حرارة وصدق : (إن لم يكن بك

---

(١) الكهف ٦ .

غضب عليّ فلا أبالي) . فلما أسرى الله به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى استبشر بنعمة الله وفضله ، وأيقن أن نصر الله قريب .

وبلغ داره فهرعت إليه سودة بنت زمعة زوجه التي بنى بها بعد موت خديجة ، وهي تعرف أنها لن تستطيع أن تملأ الفراغ الذى خلفته الطاهرة فى قلب محمد عليه السلام ، وكانت كل سعادتها أن تكون بقرب الرسول الذى أخرجها من الظلمات إلى النور ، تهيئ له ما تستطيع أن تهيئ من سبل الراحة ، فهى تحترم صمته إذا صمت ، وتلبى رغباته راضية إن أشار ، ولا تضيق بفراره أحيانا من الدار ومبيته عند أم هانئ أو فى الحجر فى المسجد أو فى غار حراء ، فقد وطدت النفس منذ أول ليلة وطئت فيها قدماها الدار أن تحترم عواطفه وذكرياته ووفاءه لذكرى أم المؤمنين الراحلة ، فما كان يغيب عن الدار إلا فرارا من لوعة الأسى على حاضنة الإسلام .

ماتت خديجة رضى الله عنها فى رمضان فنزل برسول الله — ﷺ — حزن ثقيل ، فراح أبو بكر وعلى وعمر وسعد بن أبى وقاص وبلال وصهيب وخباب بن الأرت والمسلمون يحاولون أن يخففوا عنه وقع المصاب ، فكانوا لا يفارقونه بالنهار وطرفا من الليل ولكن من للعيال بعد خديجة ؟

وكان أصحاب رسول الله — ﷺ — يرون أن خير ما يفعله الرسول عليه السلام أن يتزوج ، ولكن من ذا الذى يجرؤ أن يفاتحه فى هذا الأمر وكلهم يعلم مكانة خديجة فى نفسه ؟ . كانت فاطمة الزهراء تنهض بأعباء البيت ، وكانت ترعى أباها الكريم وتفيض عليه من عطفها وحبها حتى دعاها أصحاب الرسول عليه السلام بأم النبى ، ولكن فاطمة كانت

أضعف من أن تنهض بعبء البيت الكبير وحدها ، وإن اهتمامها بأبيها قد يفوت عليها فرصة الزواج ، فما من واحدة من صواحبها إلا وقد تزوجت وحملتْ إلى دار زوجها . أوَ تضحي بنت النبي بنفسها وبمستقبلها فى سبيل رعاية أبيها وبيته ؟

كان الجميع مقتنعين بأن رسول الله — ﷺ — فى حاجة إلى زوجة ، ولكن أحدا منهم لم تكن عنده الشجاعة ليفاتح الرسول الواله الحزين فى أمر أن تحل امرأة أخرى محل سيدة نساء قريش ، حتى عمر أشفق على نفسه من حمل هذه الرسالة إلى رسول الله عليه السلام .

وذات ليلة بينا كان رسول الله — ﷺ — فى الدار يتذكر أيامه الخالية مع أم المؤمنين ، إذا بخولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون تدخل عليه ، فرحب بها فهى من المؤمنات الصادقات قد هاجرت الهجرة الأولى إلى الحبشة مع زوجها عثمان ، ثم ما لبثت أن عادت معه إلى مكة ليكونا إلى جوار إخوانهما المسلمين يتحملان معهم فى صبر ما ينزل بهم من عذاب حتى يأتى نصر الله .

وراحت خولة بنت حكيم تجمع أطراف شجاعتها قبل أن يتحرك لسانها بما جاءت من أجله ، فما كان انقضى على موت خديجة إلا أيام ، ثم قالت :

— يا رسول الله ألا تتزوج ؟

فنظر إليها من بين أهدابه الطويلة فقال :

— من ؟

وهدأت نفسها ، فما ثار رسول الله ولا نهاها عن ذلك الحديث فقالت :

— إن شئت بكرا وإن شئت ثيِّبا .

— فمن البكر ؟

— أحن خلق الله بك ، بنت أبي بكر .

— ومن الثيِّب ؟

— سودة بنت زمعة ، قد آمنت بك واتبعتك على ما تقول .

كانت سودة كبيرة السن ولم تكن ذات جمال ليس بها شيء يجذب الرجال ، ولكنها امرأة مؤمنة كانت متزوجة من ابن عمها السكران ، هاجر بها إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ثم رجع بها إلى مكة فمات عنها ، أتظل طوال عمرها أرملة ؟ إنه إن تزوجها وهى عاطلة من الجمال ومما يجذب إليها الرجال سينزل الفرحة بقلب امرأة مؤمنة وسيؤكد لأنصاره أن نساءهم لن يذقن من بعدهم الهوان حتى وإن كن عجائز بلا مال ولا جمال ، فقال :

— فاذهبى فاذكريهما على .

فانطلقت خولة بنت حكيم وهى تكاد تطير من الفرح إلى أرملة السكران ، فدخلت على سودة بنت زمعة فقالت لها وقد ترقرق فى وجهها الاستبشار :

— ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة ؟

فرمقتها سودة فى دهشة وقالت :

— وما ذاك ؟

— أرسلنى رسول الله — ﷺ — أخطبك عليه .

وغمر سودة سرور واستشعرت دموع الفرح تبلل روحها ، إنها رأت فى منامها أن قمرا انقض عليها من السماء وهى مضطجعة ، فما كانت تدرى تأويله وما كانت تطمع فى أن تكون زوجة رسول الله — ﷺ — بعد أن نالت منها السنون . وإنه لشرف لا يدانيه شرف أن تصبح أم المؤمنين وأن تتوج صبرها على اضطهاد الكافرين وهجرتها إلى الحبشة لله

ورسوله بذلك التكريم . فقالت سودة فى لهفة :

— وددت . ادخلى على أبى فاذكرى ذلك له .

فدخلت خولة بنت حكيم على أبى سودة وكان شيخا كبيرا ، فحيته بتحية الجاهلية فقال :

— من هذه ؟

— خولة بنت حكيم .

كان الشيخ على علم بأن خولة قد كفرت بآلهة قومها وأنها خرجت مهاجرة إلى الحبشة مع الخارجين ثم ما لبثت أن عادت مع زوجها عثمان بن مظعون ، فقال فى إنكار :

— فما شأنك ؟

فقالت فى هدوء وهى ترقب أسارير الشيخ :

— أرسلنى محمد بن عبد الله أخطب سودة .

فلم يزو الرجل ما بين حاجبيه ولم يقطب جبينه بل قال :

— كفء كريم . ما تقول صاحبتك ؟

— تحب ذلك .

— ادعيها إلى .

فذهبت خولة إليها تدعوها ، وما أسرع أن عادتا إلى الشيخ بوجهين مستبشرين ، قال :

— أى بنية إن هذه تزعم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب قد أرسل يخطبك وهو كفء كريم . أتحبين أن أزوجك منه ؟

فقالت سودة فى صوت يفضح غبطتها :

— نعم .

فالتفت الشيخ إلى خولة بنت حكيم وقال :

— ادعيه لى .

فجاء رسول الله — ﷺ — وأصدقها أربعمائة درهم ، فزوجه أبوها إياها ، وقدم أخوها عبد بن زمعة وبلغه أن محمد بن عبد الله عقد على أخته فأحس غيظا ، ودخل على أبيه يرغى ويزبد وصار يحثى على رأسه التراب ، فأى عار لحقه إذ تزوج ابن أبى كبشة أخته سودة ؟

وانطلقت خولة بنت حكيم إلى حى بنى جمح وذهبت إلى دار أبى بكر ، فلما دخلت على زوجه أم رومان قالت لها :

— ماذا أدخل الله عليكم من البركة والخير ؟ قد أرسلنى رسول الله — ﷺ — أخطب عليه عائشة .

— انتظرى أبا بكر حتى يأتى .

فجاء أبو بكر فقالت له :

— يا أبا بكر ، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة ؟

فرمقها أبو بكر فى عجب وقال :

— وما ذاك ؟

— قد أرسلنى رسول الله — ﷺ — أخطب عليه عائشة .

— وهل تصلح له ؟! إنما هى بنت أخيه .

فرجعت خولة إلى رسول الله فذكرت له ذلك ، فقال :

— ارجعى إليه فقولى له : أنا أخوك وأنت أخى فى الإسلام . وابنتك تصلح لى .

فرجعت فذكرت ذلك ، قالت أم رومان :

— إن مطعم بن عدى قد كان ذكرها على ابنه جبير ووعده ، والله ما وعد وعدا قط فأخلفه .

وقام أبو بكر وذهب إلى دار المطعم فلما دخل عليه قال له :

ـــ ما تقول فى أمر هذه الجارية ؟

فأقبل المطعم على امرأته وقال لها :

ـــ ما تقولين يا هذه ؟

فأقبلت على أبى بكر وقالت له :

ـــ لعلنا إن أنكحنا هذا الفتى إليكم تصبئه وتدخله فى دينك الذى أنت عليه .

فأقبل أبو بكر على المطعم وقال له :

ـــ ماذا تقول أنت ؟

فقال المطعم بن عدى وهو يتحاشى أن تلتقى عيناه بعينى أبى بكر :

ـــ إنها لتقول ما تسمع .

فذهب ما كان فى نفس أبى بكر من عدته للمطعم وقام وليس فى نفسه من الوعد شيء ، فرجع فقال لخولة :

ـــ ادعى لى رسول الله .

وانطلق رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى دار صديقه أبى بكر ، وعقد على عائشة وأصدقها خمسمائة درهم ، ولم يبن بها فقد كانت عائشة لا تزال صغيرة وإن كان المطعم قد خطبها لابنه جبير من قبل .

كان ذلك قبل أن يخرج رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى الطائف وقبل أن يلقى من ثقيف أبشع ألوان الاضطهاد ، وقد كان المطعم بن عدى كريما لما قبل أن يدخل رسول الله عليه السلام مكة فى جواره بعد أن قفل راجعا من الطائف عقب رحلة العذاب ، وكان نبيلا لما لم يرد جوار رسول الله ـــ ﷺ ـــ لما راح يحدث قومه حديث الإسراء ، وكان كل ما قاله : « إن أمرك قبل اليوم كان أمما (يسيرا) غير قولك اليوم ، وأنا أشهد أنك كاذب » . ولم يقف فى الحرم ينادى : يا بنى كعب بن لؤى إنى رددت

جوار ابن أبى كبشة .

عاد رسول الله إلى داره بعد أن أسرى به فأخذ يحدث سودة وفاطمة وأم كلثوم عن بعض ما كان فى إسرائه . وسودة مأخوذة بحديث رسول الله ، حتى إذا ما قاما إلى غرفتهما راحت سودة تروى بعض ذكريات الحبشة وتقص ما كان من أمر السكران بن عمرو وابنة أخيه أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو بن عبد شمس وكان يسعدها الحديث عن أبناء أعداء رسول الله وبناتهم الذين أسلموا وهاجروا فى سبيل الله . فكانت تروى ما كان من أم حبيبة بنت أبى سفيان وزوجها عبيد الله بن جحش . وابن النضر بن الحارث ، وأبى سلمة المخزومى وأم سلمة ، وأبناء عبد شمس . وبنى مخزوم وبنى جمح وبيوتات قريش الذين كفروا بدين الآباء ودخلوا فى دين الله .

وكانت إذا ما تحدثت عن عثمان بن عفان ورقية يبدو الاهتمام فى وجه رسول الله — ﷺ — فقلبه يهفو إلى رقية ويشتاق إلى عثمان . وكانت سودة تحس أن الحديث عنهما يسره فكانت تسهب كلما تحدثت عن الحبيبين لتدخل البهجة على قلبه .

وكان أبو سودة زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ود من بنى عامر بن لؤى ، وكانت أمها الشموس بنت قيس من بنى عدى بن النجار ، فكانت أحيانا تتحدث عن يثرب وعن بنى النجار والخزرج ، فكانت تثير فى نفس الرسول عليه السلام ذكريات تلك الأيام التى أمضاها مع أمه فى دار عدى ، وتذكره بقية مأساة طفولته لما ماتت أمه فى الطريق بين يديه ، ولما دفنها هو وجارية أبيه بركة الحبشة غريبة فى الأبواء .

كان رسول الله — ﷺ — يصغى إلى أحاديث سودة ليأنس بها ، وما كان يحدثها كثيرا عن آلامه وآماله كما كان يفعل مع خديجة . فأين سودة من الطاهرة سيدة نساء قريش ؟ وأين سذاجة سودة من لباقة حاضنة

الإسلام ، وأين المرأة العجوز من الذكريات الشابة التى يكنها لخديجة والتى لا تعرف الهرم مهما كرت الأيام ؟

كانت سودة ثقيلة الجسم وكانت عاطلة من كل جمال وكانت مسنة ، وكانت تعرف أن الرسول لم يتزوجها إلا ليمسح عنها ما قاست من أهوال فى سبيل الله . ولكنها كانت سعيدة غاية السعادة أن تكون بالقرب من رسول الله عليه السلام على الدوام ، وكان وجهها يشرق بالابتسام لما ترى الرسول — ﷺ — يضحك من مشيتها ، فأقصى آمالها فى الحياة أن ترى رسول الله عليه السلام راضيا ناعم البال ، وأن تخفف عنه بعض ما يلقى من اضطهاد .

٣

وافى موسم الحج فتدفقت قبائل العرب إلى الأسواق ، وحمل أشراف مكة بضائعهم وفتياتهم على ظهور الإبل يبتغون الأموال . وما وافوا سوق مجنة حتى راحوا يفتنون فى عرض سلعهم وإقامة الخيام لصاحبات الرايات الحمر ، فالبغاء كان أروج تجارة فى الموسم وراح وجوه قريش يتلفتون كأنما يبحثون عن شىء ، حتى إذا ما قدم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ومن حوله أبو بكر الصديق وعمر وحمزة وعلى وسعد بن أبى وقاص وبلال وصهيب والمسلمون ، اربدت وجوههم وانتقع لونهم ثم صوبت أعينهم إلى أبى لهب فانتزع ابتسامة هازئة كأنما يقول لهم : اطمئنوا فلن ينال فى هذا الموسم أكثر مما نال فى المواسم السابقة أو أقل .

وانطلق بلال وبعض المسلمين إلى مياه مجنة يملئون القرب . بينا راح شاعر بنى هاشم أبو سفيان بن الحارث ابن عم الرسول الذى ما كان يفارقه

أبدا قبل الإسلام وشعراء قريش يتأهبون لجذب الناس إلى الاستماع إلى قصائدهم إذا ما جلس النبى عليه السلام يتلو ما أنزل إليه من ربه .

كانوا يرتجفون فرقا من أن يلقي الناس أسماعهم إلى محمد بن عبد الله ، فكانوا يتبعونه أينما سار يحذرون الناس كذبه ، وإذا ما تأهب ليقرأ القرآن أخذوا فى التصفيق والصفير والصياح حتى تعلو أصواتهم على ترتيله . إنه أخفى رسالته ثلاث سنين ثم أعلن بها فى الرابعة ، ووافى الموسم كل عام يتبع الحجاج فى منازلهم ويأتى القبائل قبيلة قبيلة ، ولكن قريشا نجحت فى أن تفض الناس من حوله وفى أن تحول بينه وبين شرح دين الله فى حرية .

ومضت أيام مجنة وهو يطوف على القبائل فى منازلهم يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ، فكانوا يرمقونه فى سخرية ويضحكون ملء الأشداق من أقوال قومه المستهزئين به . وما كانوا يكتفون بالضحك بل كانوا يشتركون فى النيل منه وفى تجريحه .

وتدفقت الجموع إلى عكاظ وهرعت القبائل إلى العبلات تطوف بالإله وتنحر عنده ، بينا راح رسول الله — ﷺ — يصلى لله وقد اصطف خلفه أصحابه فقطعوا كل العلائق بالدنيا وصفت قلوبهم وزكت وأشرقت بنور ربها .

وأتم رسول الله عليه السلام عبادته فراح يجوس خلال عكاظ فيمتلئ فؤاده أسى . فالأموال التى كانت مكدسة فى السوق مثقلة بدموع العبيد وصاحبات الرايات الحمر يضحكن ضحكات تفتت الأكباد ، فسادات العرب يكرهن فتياتهم على البغاء طمعا فى الذهب والفضة ، وخمور الشام تلعب برءوس الشاربين فتفقدهم الوقار ، والأيسار غارقون فى لعب الميسر وقد فاضت أعينهم بالطمع وما تخفى صدورهم أبشع ، والشعراء ينشدون قصائد ماجنة خليعة وقد اشرأبت إليهم الأعناق ؛ كانت البشرية

تتمرغ فى الأوحال .

ونزلت كل قبيلة تحت رايتها ، فذهب رسول الله عليه السلام إلى قبيلة كندة فقال :

— يأيها الناس إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا .

وقبل أن يتم كلامه ظهر أبو لهب خلفه وقال :

— يأيها الناس إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم .

وهرع النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط وأبو جهل بن هشام وأمية وأبىّ ابنا خلف إلى حيث كان رسول الله عليه السلام وعمه يؤكدون للناس أن ابن أبى كبشة مجنون . وينصحونهم بألا يلقوا بالا إلى هذيانه .

وانصرف الرسول عليه السلام وهو مطرق حزين ولكنه لم يقنط من رحمة الله ، بل راح يعرض نفسه على الناس ويقول :

— ألا رجل يعرض علىَّ قومه ، فإن قريشا قد منعونى أن أبلغ كلام ربى .

فكان الناس يعرضون عنه ثم ينصرفون ويتركونه وحده يمضغ آلام نفسه ، فقد كان فرارهم منه يحرك أشجانه . ولولا ثقته بربه لانتابه يأس مرير . فقد تصرمت عشر سنين وهو يدعو الناس إلى الهدى ولا يزيدهم دعاؤه إلا فرارا .

وانطلق إلى بطن من بنى كلب يقال لهم عبد الله فقال لهم :

— إن الله قد أحسن اسم أبيكم . يأيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا .

وإذا برجل له غديرتان يرجمه بالحجارة حتى أدمى كعبه ويقول :

— يأيها الناس لا تسمعوا منه فإنه كذاب .

فراح رجل يسأل جاره :

— من هذا الذى يدعو إلى عبادة الله وحده ؟

— إنه غلام عبد المطلب .

— ومن الرجل الذى يرجمه ؟

— هو عمه عبد العزى .

وراحت الأيام تمر والناس فى عكاظ فى لعب ولهو ، ورسول الله — ﷺ — يعرض نفسه على القبائل فلا يقبلون منه ما يعرض عليهم . وانطلق فى غفلة من أعدائه إلى بنى حنيفة وبنى عامر بن صعصعة وراح يعرض عليهم الإسلام وقد أعاروه سمعهم ، حتى إذا ما انتهى من حديثه قال له رجل منهم :

— أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظفرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟

كان فى حاجه إلى أنصار يمنعونه حتى يبلغ رسالات ربه ، وها هم أناس يعرضون عليه أن يبايعوه على أمره حتى إذا ما ظهر على أعدائه يكون لهم الأمر من بعده . فرصة مواتية لا يرفضها سياسى ممن يعملون للدنيا . ولكنه كان صادقا مع نفسه ، صادقا مع ربه ، فقال دون أن يدير العرض المغرى رأسه :

— الأمر إلى الله يضعه حيث شاء .

فرمقه الرجل فى ضيق ثم قال :

— أنقاتل العرب دونك . فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ! لا حاجة لنا بأمرك .

وانصرف رسول الله عليه السلام وفى القلب أسى ، فما بال الناس قد أغلقوا أفئدتهم دونه وقالوا فى عناد :

— أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك .

لقد ردته القبائل ردا غير كريم ، ولم يكن أحد من العرب أقبح ردا عليه من بني حنيفة . كانت المرارة تستولى عليه أحيانا ولكنه لم يقنط أبدا من رحمة ربه ، فانطلق هو وأبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب إلى مجلس من مجالس العرب ، فتقدم أبو بكر وكان نسابة ، فسلم فردوا عليه السلام فقال :

— ممن القوم ؟

— من ربيعة .

— أمن هامتها أم من لهازمها ؟

— من هامتها العظمى .

— فأى هامتها العظمى أنتم ؟

— ذهل الأكبر .

— أفمنكم عوف الذى يقال له : لا حر بوادى عوف ؟

— لا .

— أفمنكم بسطام[1] ذو اللواء ومنتهى الأحياء ؟

— لا .

— أفمنكم جساس[2] بن مرة حامى الذمار ومانع الجار ؟

— لا .

— أفمنكم الحذفران[3] قاتل الملوك وسالبها أنفسها ؟

— لا .

— أفمنكم المزدلف صاحب العمامة القردة ؟

---

(١) قصة فى المفاخرة بمحضر كسرى فى الأغانى ١٧ — ١٠٦

(٢) قاتل كليب .

(٣) الحرث بن شريك .

— لا .

— أفمنكم أخوال الملوك من كندة ؟

— لا .

— أفمنكم أصهار الملوك من لخم ؟

— لا .

فقال أبو بكر :

— فلستم ذهلا الأكبر ، أنتم ذهل الأصغر [١] .

فقام إليه غلام قد خرج شعر وجهه يقال له دغفل ، وقد عزم على أن ينال من أبي بكر كما نال منهم فقال له :

— يا هذا : إنك قد سألتنا فلم نكتمك شيئا . فمن الرجل ؟

فقال أبو بكر :

— رجل من قريش .

فقال دغفل وهو يتفرس فى وجه الصديق :

— بخ بخ أهل الشرف والرياسة ! فمن أى قريش أنت ؟

— من تيم بن مرة .

— أمكنت والله الرأى من صفا الثُّغرة (نقرة النحر بين الترقوتين) . أفمنكم قصى بن كلاب الذى جمع القبائل من فهر وكان يدعى مجمعا ؟

— لا .

— أفمنكم هاشم الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستنون عجاف ؟

— لا .

---

(١) عمر بن أبى ربيعة بن ذهل بن شيبان .

— أفمنكم شيبة الحمد مطعم طير السماء الذى كان فى وجهه قمر يضيء فى ليل الظلام الداجى ؟

— لا .

— أفمن المفيضين بالناس أنت ؟

— لا .

— أفمن أهل الندوة أنت ؟

— لا .

— أفمن أهل الرفادة أنت ؟

— لا .

فاجتذب أبو بكر زمام ناقته فرجع إلى رسول الله — ﷺ — فقال دغفل :

صادف درء السيل درءا يدفعه يهيضه حينا وحينا يصدعه

أما والله يا أخا قريش لو تثبت لأخبرتك أنك من زمعات (رذّال) قريش ولست من الذوائب (الرؤساء) : أو ما أنا بدغفل !

فتبسم رسول الله — ﷺ — والتفت على إلى أبى بكر وقال :

— لقد وقعت من الأعرابى على يافعة (داهية) .

قال أبو بكر :

— أجل ! إن لكل طامة طامة ، وإن البلاء موكل بالمنطق .

وتقدم إليهم رسول الله — ﷺ — يقول :

— يا بنى ربيعة ، إنى رسول الله إليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بى وتصدقونى وتمنعونى حتى أبين عن الله عز وجل ما بعثنى به .

وإذا بصوت أبى لهب يرن كأنما قد انشقت الأرض عنه :

— يا بنى ربيعة ، إن هذا الرجل إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه ؟

والتفت الناس إلى مصدر الصوت فإذا برجل أحول وضيء له غديرتان عليه حلة يمانية ، وإذا بهمس يسرى بين بنى ربيعة :

— من هذا الرجل ؟

— هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب .

— أسرته وعشيرته أعلم به حيث لم يتبعوه .

وردوه ردا أليما فانسحب مطرقا على ظهر ناقته ، وأبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب يحسان لسع النار فى فؤاديهما وهما يعجبان من إصرار أبى لهب على فض الناس من حول ابن أخيه .

وراحت الأيام تمر وعكاظ يموج بالناس ، ورسول الله عليه السلام يدور على منازل القبائل يسألهم أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه فيردون دعوته مستهزئين ، وهو صابر حتى يحكم الله بينه وبينهم وهو أحكم الحاكمين .

وذهب عليه السلام ومعه أبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب إلى جماعة من العرب ، فسألهم أبو بكر :

— ممن القوم ؟

— من شيبان بن ثعلبة .

فالتفت أبو بكر إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— بأبى أنت وأمى هؤلاء غرر فى قومهم .

كان فيهم مفروق بن عمرو وهانئ بن قبيصة ومثنى بن حارثة والنعمان ابن شريك ، وكان مفروق بن عمرو قد غلبهم جمالا ولسانا له غديرتان من شعر ، وكان أدنى القوم من أبي بكر فقال له أبو بكر :

— كيف العدد فيكم ؟

فقال مفروق :

— إنا لنزيد على الألف ولن تغلب الألف من قلة .

— كيف المنعة فيكم ؟

— علينا الجهد ولكل قوم جد (حظ) .

— فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟

— إنا لأشد ما يكون غضبا حين نلقى ، وإنا لأشد ما يكون لقاء حين نغضب ، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسلاح على اللقاح . والنصر من عند الله يديلنا (ينصرنا) مرة ويديل علينا مرة . لعلك أخو قريش ؟

فقال أبو بكر :

— أوقد بلغكم أن رسول الله — ﷺ — فيها ؟ هو ذا !

— بلغنا أنه يذكر ذلك . فإلام تدعو يا أخا قريش ؟

فتقدم رسول الله — ﷺ — فقال :

— أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأني رسول الله ، وإلى أن تؤووني وتنصروني ، فإن قريشا قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغني الحميد .

— وإلام تدعو أيضا يا أخا قريش ؟

فراح رسول الله — ﷺ — يتلو :

﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا وبالوالدين

إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ذلك وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾[1] .

فقال مفروق فى دهش :

ـــ ما هذا من كلام أهل الأرض ولو كان من كلامهم عرفناه .

وتهلل وجه أبى بكر بالفرح وأثلج صدر على ، فهاهم أقوام أقوياء يكاد أن تشرق أفئدتهم بأنوار اليقين ، وراح مفروق يقول :

ـــ وإلام تدعو أيضا يا أخا العرب ؟

فتلا رسول الله ﷺ :

ـــ ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾[2] .

وامتلأ قلب مفروق بفرح فياض فقال :

ـــ دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك .

وأراد مفروق أن يشاركه فى الكلام هانئ بن قبيصة فقال :

ـــ هذا هانئ :

ـــ قد سمعنا مقالتك يا أخا قريش ، وإنى أرى إن تركنا ديننا واتبعنا إياك على دينك بمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر لزلة فى الرأى وقلة نظر فى العاقبة . وإنما تكون الزلة مع العجلة ، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقدا ، ولكن نرجع وترجع وننظر وتنظر .

وكأنه أراد أن يشركه فى الكلام المثنى بن حارثة ، فقال :

---

(١) الأنعام ١٥١ (٢) النحل ٩٠

ـــ هذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا .

فقال المثنى :

ـــ قد سمعنا مقالتك يا أخا قريش ، والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة فى تركنا ديننا واتباعنا دينك بمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر ، وإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلى مياه العرب دون ما يلى أنهار كسرى ، فعلنا ، فإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثا وأن لا نؤوى محدثا . وإنى أرى هذا الأمر الذى تدعونا إليه أنت ، هو مما تكرهه الملوك .

فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ :

ـــ ما أسأتم فى الرد إذ أفصحتم بالصدق ، وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من أحاط به من جميع جوانبه . أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلا حتى يورثكم الله أرضهم وأموالهم ويعرسكم نساءهم تسبحون الله وتقدسونه ؟

فقال النعمان بن شريك :

ـــ اللهم لك ذا .

وكان رجال شيبان فى دهشة من قوله ، فما خطر لهم على قلب يوما أن تكون أرض الفرس لهم ، وما طمعوا فى أن تكون لهم أموالهم ، كل ما كانوا يرجونه أن يجود عليهم كسرى بهدية أو ببعض أموالهم ، ولو اخترقت أعينهم حجب الغيب القريب لرأوا المثنى بن حارثة الشيبانى على رأس جيوش المسلمين يغزو الفرس ويستشهد عند الجسر استشهاد بطل يدافع عن دين الله ، ويبذل دمه فى سبيل إعلاء كلمته .

وراح رسول الله يتلو :

— ﴿ يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا * وداعيا إلى الله باذنه وسراجا منيرا * وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ﴾[١] .

ثم نهض رسول الله ﷺ وانصرف ومعه أبو بكر وعلى ، وكان راضى النفس فما أساءوا فى الرد وقد وجد فيهم خيرا ، وإن لم يؤمنوا به ولم يمنعوه . وسار وهو قابض على يد أبى بكر وهو يقول :

— يا أبا بكر ، أية أخلاق فى الجاهلية ما أشرفها ! بها يدفع الله عز وجل بأس بعضهم من بعض وبها يتحاجزون فيما بينهم .

وجاء العشرون من ذى القعدة فراح العبيد يحملون البضائع على ظهور الإبل ويضعون أصحاب الرايات الحمر فى الهوادج ، وماج الناس بعضهم فى بعض ، وأذن المؤذن بالرحيل فانطلقت العير إلى سوق ذى المجاز ، وأخذت الريح تصفر فى سوق عكاظ وقد أطبق عليها السكون .

ودبت الحياة فى ذى مجاز : الخيام تنصب ، والعبيد فى غدو ورواح ، والسلع تعرض ، وحلقات المصارعة تعمر بالمصارعين ، وطلاب اللهو يلتفون حول الشعراء ، ورسول الله — ﷺ — يعرض نفسه على القبائل ويقول :

— لا أكره أحدا على شىء . من رضى الذى أدعوه إليه فذلك ، ومن كره لم أكرهه . إنما أريد منعى من القتل حتى أبلغ رسالات ربى .

وأبو لهب خلفه يقول :

— لا ترفعوا بقوله رأسا . فإنه مجنون يهذى من أم رأسه .

ورجال القبائل يقولون :

— قوم الرجل أعلم به ، أترون أن رجلا يصلحنا وقد أفسد قومه ؟

---

(١) الأحزاب ٤٥ — ٤٧ .

وانقضت أيام ذى المجاز كما انقضت المواسم من قبل، لم يقبله أحد من القبائل و لم يجد من يمنعونه من القتل حتى يبلغ رسالات ربه ، وتدفق الناس كالسيل إلى الحرم مؤمنهم وكافرهم ، وراحوا يطوفون بالبيت العتيق الذى غص بتماثيل الآلهة . ودخل رسول الله — ﷺ — ليطوف فكان لا يقبل على الأصنام بوجهه ، وكان ذلك يوغر عليه صدور وجوه قريش ففى تحقيره لآلهتهم غاية تحقيرهم .

وخرج الناس من مكة للحج وقد ارتفعت أصواتهم بالتلبية :

— لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك ، فكان رسول الله عليه السلام يحزن لذلك الشرك ويتلهف على اليوم الذى يقضى فيه على ذلك الظلم ويزهق الباطل .

وخرج رسول الله عليه السلام إلى منى ، بينا بقى الحمس من أهل مكة بها فما كانوا يغادرونها وما كانوا يقفون مع الحجيج بعرفة ، فواتت النبى عليه السلام فرصة أن يعرض نفسه على الناس بعيدا عن مضايقات عمه أبى لهب .

وبينا هو عند جمرة العقبة عند يسار الطريق لقاصد منى من مكة، إذ لقى رهطا من الخزرج وكانوا من بنى النجار: أسعد بن زرارة بن عدس وعوف بن الحارث، ومن بنى زريق: رافع بن مالك، ومن بنى مسلمة ابن سعد: قطبة بن عامر بن حديدة، ومن بنى حرام بن كعب: عقبة بن عامر بن نابى، ومن بنى عبيد بن عدى بن ساعدة: جابر بن عبد الله، فقال لهم:

— من أنتم ؟

— نفر من الخزرج .

— أمن موالى يهود ؟

— نعم .

— أفلا تجلسون أكلمكم ؟

— بلى .

فجلسوا معه — ﷺ — ، وجلس أبو بكر وعلى يصغون إلى الحديث الشائق الذى دار بينهم وبين الرسول عليه السلام .

راح الرسول صلوات الله وسلامه عليه يدعوهم إلى الإسلام ويتلو عليهم القرآن وهم مأخوذون بسحر بيانه وإعجاز ما أنزل إليه من ربه .
وأراد الله لهم الهداية فإذا بأصوات اليهود المتوعدة كلما وقع بينهم وبينهم شيء من الشر ترن فى ضمائرهم :

« سيبعث نبى قد أظل زمانه نتبعه نقتلكم معه قتلة عاد وإرم » فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا :

— والله هذا صادق ، وإنه للنبى الذى يذكر أهل الكتاب ويستفتحون به عليكم .

— إنه للنبى الذى توعدكم به يهود . فلا تسبقنكم إليه .

والتفتوا إلى النبى عليه السلام وقالوا :

— أنت رسول الله قد عرفناك وآمنا بك وصدقناك ، فمرنا بأمرك فإنا لن نعصيك .

وغمر رسول الله عليه السلام فرح فياض ، وأحس كل وجدانه يخر ساجدا لله شكرا ، فقد لاح النور فى بحر الظلمات . واستبشر أبو بكر وتهلل على بالفرح فقد جاء نصر الله .

وأعلنوا إسلامهم وقالوا له :

— إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

وجعل رسول الله — ﷺ — يختلف إليهم يفقههم فى أمر دينهم ، ثم

أمرهم أن يدعوا قومهم إلى دينهم ، فسألوه أن يرتحل معهم فقال :

— حتى يأذن لى ربى .

فقالوا له :

— امكث على رسلك باسم الله حتى نرجع إلى قومنا فنذكر لهم شأنك وندعوهم إلى الله عز وجل ورسوله ، لعل الله يصلح ذات بينهم .

وودعوا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ثم قالوا :

— إلى الموسم من العام المقبل .

وقفلت القبائل عائدة إلى أوطانها ، وعاد بنو عامر إلى منازلهم فانطلقوا إلى شيخهم وكان قد أدركته السن حتى لا يقدر أن يوافى معهم الموسم ، فراح يسألهم عما كان فى موسمهم فقالوا :

— جاءنا فتى من قريش أحد بنى عبد المطلب يزعم أنه نبى ، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا .

فوضع الشيخ يده على رأسه ثم قال :

— يا بنى عامر هل لها من تدارك ؟ هل لها من مطلب ؟ إن رأيكم غاب عنكم .

كان الشيخ يرى فى نصرة رسول الله — ﷺ — عز الدنيا والآخرة . وأن قومه قد أعرضوا عن مجد عريض لاح لهم . ولكن لم يكن لها من تدارك فقد ذهب الأنصار بالخير كله .

٤

انسابت قافلة يثرب فى معبد الله عائدة إلى الديار بعد أن انقضى موسم الحج ، وقد شرد الفتية الذين آمنوا بربهم يفكرون فى تلك اللقاءات الرائعة التى تمت بينهم وبين رسول الله — ﷺ — فتتهلل أفئدتهم بالفرح ، فهم يستشعرون أن ذواتهم قد اكتسبت عمقا وخصبا وثراء . وراحوا يسترجعون أقوال الرسول الكريم فإذا بالحكمة قد أشرقت فى صميم وجودهم ، وإذا بثروة جديدة من العلم قد ادخرت فى خزائن صدورهم ، وإذا بخصوبة روحية تنتشر فى حياتهم الباطنية فإذا بهم يحسون فى أعماق نفوسهم عظمة وقوة .

ومس آذانهم صدى صوت رسول الله — ﷺ — وهو يقرأ القرآن فرقت قلوبهم وفاضت أعينهم بالدمع وغمرتهم سعادة روحية ، بعد أن كشط الجهل الذى ران على ذواتهم وأصبحوا ينظرون إلى ملكوت السماء بنور الله .

خرجوا من يثرب يفور فى وجدانهم روح التعصب ، كانوا من الخزرج قد جرحت هزيمتهم يوم بعاث كبرياءهم ، وكانت غايتهم من الحياة أن يثخنوا فى الأرض ، وأن يريقوا دماء أعدائهم الأوس ليشفوا مرض نفسهم ، ولكنهم بعد أن أفعموا بروح الله انجلت لهم الحقيقة فعرفوا أن الحقد باطل ، وأن كراهية الأهل خطيئة ، وأن يقتل بعضهم بعضا بغير حق سفه ، وأن أسمى ما فى الحياة إدراك غاية روحية تسبل على الجميع العزة والكرامة والسلام .

وسرت القافلة فى الصحراء فى جوف الليل وقد زينت السماء

بمصابيح ، فرأوا ببصيرتهم جمالا لم يشهدوا مثله من قبل على طول ما سروا فى الليل ، فقد صفت قلوبهم وتيسر لهم الفكر ، فانكشف لهم من أسرار الله فى ملكوت السموات والأرض فى لحظة ما عجزوا عن إدراكه طوال السنين التى تصرمت من أعمارهم .

انكشفت لهم حقيقة طالما غابت عن أذهانهم . إن عالمهم أوسع من العالم الأرضى ، وملكهم أعظم من ملك أعظم ملك . فالملك لا يملك إلا رقعة من الأرض ضاقت أو اتسعت ، أما هم فلهم الأرض وما فوق الأرض ، الطبيعة وما وراء الطبيعة ، فقد فاضت عليهم الرحمة وتلألأت فى القلوب حقائق الأمور .

وبلغت القافلة المشلل بقديد فارتفعت أصوات الحجاج الخزرجيين والأوسيين بالتلبية ، فقد أشرفوا على مناة إلهتهم التى يقدسونها أعظم تقديس ، ثم راحوا يطوفون بها ويذبحون عندها ويحلقون رءوسهم ، فما كان يتم حجهم إلا بتأدية الشعائر لمناة وحمدها .

ونظر الفتية الذين آمنوا بربهم إلى الصخرة التى تطل على البحر فتقاصرت نفوسهم وملئوا عجبا ، أكانوا حقا يطوفون بها خاشعين ؟! أكانوا يلتمسون منها الحماية ويطلبون الرزق ؟! أكانوا يعبدون حجرا لا يملك لهم نفعا ولا ضرا ؟ كيف لم يفطنوا إلى سفاهة أحلامهم قبل أن يرفع الرسول عليه السلام الحجب عن أعين قلوبهم ؟ وأحسوا رغبة فى أن يخروا ساجدين لله شكرا على أن هداهم إلى الإيمان وأخرجهم من الظلمات إلى النور ، فانسلوا ليصلوا لربهم بعيدا عن العيون .

وانطلقت القافلة تجد فى السير إلى يثرب فيها أول مسلمين يحملون مشعل الإسلام إلى الأرض التى أراد الله أن يشرفها بأن تكون منارة النور ، وما كانوا أول يثربيين استمعوا إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ،

بل كانوا أول من أشرق منهم قلوبهم بالنور وانشرحت لـه الصدور وانكشف لهم سر الملكوت .

قدم قبلهم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة ، ومعه فتية من بني الأشهل فيهم إياس بن معاذ ، وكانوا جميعا من الأوس يلتمسون الحلف من قريش على قبيلة الخزرج . وسمع بهم رسول الله — ﷺ — فأتاهم ودعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن ، فقال إياس وكان غلاما حدثا :

— أى قومى ! هذا والله خير مما جئتم له .

فرمى أبو الحيسر أنس بن رافع وجه إياس بحفنة من تراب وقال :

— دعنا منك فلعمرى لقد جئنا لغير هذا .

وقد خرجت من يد أبى الحيسر مع حفنة التراب أمجاد تنطال على الزمن وتمتد من الأرض إلى السماء ، فلو طاوع الغلام الحدث الأريب لكان أول من حمل النور إلى مدينة الرسول ، ولكن الله لم يشأ له هذه الكرامة فقد كان فى علم الله أن حربا تثور بين الخزرجيين والأوسيين فى وقعة بعاث ليقتل فيها أشراف الحيين الذين قد يدفعهم الحسد والغرور إلى مناوأة دين الله .

وقدم سويد بن الصامت مكة معتمرا ، وكان ابن خالة عبد المطلب لأن أمه أخت سلمى أم عبد المطلب ، فتصدى له رسول الله — ﷺ — حين سمع ، فقد كان رسول الله — ﷺ — لا يسمع بقادم قدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له ودعاه إلى الله تعالى ، فدعا سويدا إلى الله عز وجل وإلى الإسلام فقال سويد :

— لعل الذى معك مثل الذى معى .

— وما الذى معك ؟

— حكمة لقمان .

— اعرضها عليّ .

فراح سويد يقرأ حكم لقمان فقال رسول الله :

— إن هذا الكلام حسن والذى معى أفضل من هذا : قرآن أنزله الله عليّ هو هدى ونور .

فتلا عليه رسول الله — ﷺ — القرآن ودعاه إلى الإسلام فلم يبعد منه وقال :

— إن هذا القول حسن .

ثم انصرف إلى المدينة فلم يلبث أن قتله الخزرج .

كانت يثرب تموج بالعداوات فالصراع يشتجر فيها على الدوام بين اليهود والعرب أو بين الأوس والخزرج ، وقد حاولت كل من القبيلتين أن تستعين بأنصار من الخارج مرة وباليهود مرة أخرى فلم يعرف المجتمع اليثربى الاستقرار . وقد أثر ذلك على حياة المدينة الاقتصادية فأخذ مركز المدينة الثانية بعد مكة فى أرض الحجاز يتدهور وحاق بأهلها الضيق والبوار .

لم يكن يثربى يأمن على نفسه أو أسرته أو ماله إذا خرج من حصنه ، وكان إذا ما سار فى الأسواق يترقب خشية أن يصوب سهم إلى قلبه أو يصبح هدفا لأسلحة الغدر والثأر والانتقام ، فكسدت التجارة وشل النشاط الاقتصادى . ولولا قوافل العرب التى تنزل بالمدينة للهو والتى يهرع شبابها إلى سقيفة البغايا لتحصيل اللذة لجفت الموارد وحاق بالمدينة الانهيار .

وكان الأوسيون والخزرجيون على السواء يرجون معجزة من السماء تقضى على الفوضى التى رانت على يثرب أو أن يقوم من بينهم رجل رشيد قادر على أن يؤلف بين القلوب ويقضى على العصبية القبلية التى نخرت فى

الحيين اللذين يرتبطان برباط الدم . وكان أشراف الحيين يرون أن عبد الله بن أبىّ بن سلول ولو أنه خزرجى إلا أنه أصلح من يستطيع أن يجمع الشمل فهو لم يشترك فى حرب بعاث بل دمغ قومه الخزرجيين بالعدوان ، فالتف الناس حوله وتعلقت به الآمال .

كان عبد الله بن أبىّ بن سلول من بنى عوف بن الخزرج لا يختلف فى شرفه فى قومه اثنان . فلو اجتمع الأوس والخزرج عليه لوجدوا الرئيس الذى يسوس أمورهم ويقضى على الفوضى التى ضربت أطنابها فى جنبات المدينة ولساد العرف بين الناس . ولكن الفتية الذين آمنوا بربهم كان لهم رأى آخر فى تأليف القلوب ، كانوا يرون أن العقيدة التى جاء بها رسول الله — عليه صلوات الله وسلامه — هى السبيل الوحيد لصهر المجتمع اليثربى فى وحدة لا تقدر على فصمها العصبية القبلية ، فهى تسمو بالبشرية فوق الأهواء والأحقاد وتسوى بين الناس أمام الله ، فراحوا يعملون على نشر الإسلام ليسود مجتمعهم الذى يجلس على الدوام فوق بركان الأمن والسلام .

وانتشر الرجال فى أحياء الخزرج يقصون على أهليهم ما كان بينهم وبين رسول الله — ﷺ — ويقولون :

— يا قوم والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه .

— إنكم أخوال جده عبد المطلب .

— كانت سلمى بنت عمرو زوج هاشم بن عبد مناف من بنى النجار .

وراحوا يتلون على الناس ما حفظوا من القرآن فإذا الأفئدة تتفتح لآيات الله ، وإذا بنسائم الألطاف تهب عليهم ، وإذا بفرح فياض يشيع فى صدورهم ، وإذا بالألسن تتحرك لتعبر عن استبشار النفوس ، وسرعان ما

انتشر الإسلام فى دور الخزرج .

وفى دار عدى بن النجار راح الشيوخ والعجائز يقصون كيف جاء أبوه عبد الله ذات يوم فى قافلة من قريش وقد دهمه المرض ، وكيف حمل إلى دار عدى ومكث فيها حتى مات ، ويروون ذكريات قدوم امرأته آمنة بنت وهب ومعها محمد يتألق فى وجهه النور . إنها ذكريات بعيدة بعث فيها نبض الحياة ما كان الفتية الذين آمنوا بربهم يروونه فى إعجاب وإجلال عن محمد بن عبد الله عليه السلام .

وتغلغل الإيمان فى قلوب الذين أسلموا من الخزرج فإذا بنفوسهم التى طهرها الإسلام من الغل تفطن أن ليس من الدين أن يستأثروا بالخير وحدهم ، وأن عليهم أن يدعوا إخوانهم الأوس إلى الهدى والرشاد ، فمشوا إلى أعداء الأمس يقولون لهم :

— ظهر النبى الذى يذكر أهل الكتاب ويستفتحون به عليكم .

وتذكروا تهديدات يهود كلما كان بينهم شىء : « إن نبيا مبعوثا قد أظل زمانه نتبعه نقتلكم معه قتل عاد وإرم » . فأقبلوا على الخزرجيين يصغون فانشرح قلب بعضهم للإيمان ، فكان أول ما طرأ على المجتمع اليثربى من تغيير من الأعماق أن المسلمين من الأوس والخزرج كانوا ينسلون بعيدا عن العيون ليتشاوروا فى دينهم وليقوموا بفرائض الله ، بعد أن ألف بين قلوبهم وأصبحوا بنعمته إخوانا .

وفكروا فى أن يمشوا إلى أبى عامر بن صيفى وهو فى الأوس شريف مطاع ليحدثوه عن النبى عليه السلام ، فليس فى الأوس والخزرج رجل كان يصف النبى المنتظر مثل أبى عامر ، فهو يألف اليهود ويسائلهم فيخبرونه بصفة رسول الله ﷺ . وقد خرج إلى يهود تيماء وإلى الشام فسأل النصارى فأخبروه بما يعرفون عن الذى بشر به عيسى عليه السلام ،

فرجع يقول : « أنا على دين الحنيفية » ، وترهب ولبس المسوح وقال إنه ينتظر خروج النبى — ﷺ — إن كل المقدمات تشير إلى أن أبا عامر الراهب سيكون أول المصدقين برسول الله عليه السلام ، ولكن الذين أسلموا من الأوس والخزرج أحجموا عن عرض الإسلام على أبى عامر الراهب ، فقد سمع عن ظهور النبى عليه السلام بمكة ، فلماذا لم يهرع إليه ليؤمن به وينصره ؟ فخشوا أن يكون حسده ، فلو كان حدسهم حقا لكشفوا أمرهم وجعلوا من أنفسهم أهدافا لأشراف قومهم الطامعين فى سلطان الأرض ، فما جاء به الدين القيم يكرهه الذين يريدون أن يعيشوا على ظلم العباد .

وهل يعرضون الإسلام على عبد الله بن أبى بن سلول ؟ إن عبد الله بن أبىّ يطمع فى أن يضع التاج على رأسه ، أن يكون حاكم يثرب ، فهو يظهر الود لليهود ويسمع الأوس ما يحبون . وهو ضامن أن أهله من الخزرج قلوبهم معه وإنه لشىء فى مصلحته أن يسود الوئام بين الأوس والخزرج ، ولن يضره شىء لو وحدت عقيدة جديدة بين الحيين المتعاديين ، بل إنه يبارك هذه العقيدة لو قادته إلى عرش يثرب . ولكن من ذا يدرى فى أى اتجاه سيقود الإسلام السفينة التى تتجاذبها الأهواء وتلعب بها المطامع وتكاد تخرقها الخلافات ؟ أينصب الإسلام عبد الله بن أبىّ بن سلول قائدا لسفينة الإيمان أم ينحيه عن الصدارة ؟ إن المستقبل لا يزال فى غيب الله وإن من الخير لمن أسلموا من الأوس والخزرج أن يكتموا دينهم وأن يعملوا على نشره سرا حتى يوافوا رسول الله — ﷺ — فى الموسم .

وأسلم من أسلم ولم تبق دار من دور الأوس والخزرج إلا فيها ذكر رسول الله — ﷺ — وجاءت الأشهر الحرم وتجهزت القوافل للسير إلى بيت الله ، واتفق اثنا عشر رجلا من المسلمين على الخروج لملاقاة الحبيب

رسول الله عليه السلام . كانوا عشرة من الخزرج واثنين من الأوس قد ملئوا شوقا إلى النبى صلوات الله وسلامه عليه ، وحنينا إلى الإصغاء إلى القرآن وهو يتدفق من بين شفتى الرجل العظيم الذى ملأ حبه قلوب من كان لهم حظ الجلوس إليه ، وقلوب الذين لم يروه وإن عشقوه لما سمعوا ما يتحلى به من مكارم الأخلاق .

وبلغ اليثربيون البيت العتيق فطافوا به ، وراح المسلمون منهم يتلفتون يبحثون بعيونهم عمن صار أملهم ، فلما رأوه أشرقت قلوبهم استبشارا قبل أن ترف بسمات الرضا على الشفاه ، وراح من عرفه يهمس إلى من لا يعرفه بعد ، أن على بعد خطوات منهم نبيهم الذى اصطفاه ربه ليبلغ رسالاته ، فخفقت القلوب فى الصدور وتصافحت العيون ، وإن لم تمتد الأيدى حتى لا يلحظ أعداء رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أن أنصارا من يثرب قد جاءوا ليلقوه فيفسدوا ما يطمعون فيه من خلوة طويلة بينهم وبين نبيهم عليه السلام .

وفى سوق مجنة راح محمد عليه السلام يعرض نفسه على القبائل وعمه من خلفه يحذر الناس أن يصدقوا جنونه فهو يهذى من أم رأسه ، واليثربيون يرصدون ما يجرى بين الصادق الأمين وبين أهله فى أسى عميق ويعجبون كيف عميت أبصارهم عن النور. وكان إذا جلس ليتلو القرآن يخفون إليه ليطفئوا نار الشوق إلى ما أنزل الله على عبده ، ولكنهم كانوا ما يكادون ينتشون ببضع آيات من الذكر الحكيم حتى يأتى كفار قريش يصفقون ويصفرون ويرفعون أصواتهم على صوت الرسول بقصائد ماجنة هازلة ، فكانت أفئدتهم تنقبض غضبا ، وكان يزيد فى حنقهم أن المستهزئين لم يكونوا من أراذل القوم بل كانوا أبا جهل بن هشام والنضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط وأمية وأبىّ ابنى خلف ووجوه قريش وأصحاب الرأى

فيها !

وانسابت قبائل العرب فى الوديان إلى سوق عكاظ ، وسار المسلمون اليثربيون مع قومهم بأجسادهم أما أرواحهم فقد كانت تهيم حول الرسول عليه السلام بعد أن أصبح تيار فكرهم والنور الذى أنار كهوف صدورهم ونبع الحكمة الذى منه يغترفون .

ونزلت القبائل على مراعيهم كل قبيلة تحت رايتها ، ولأول مرة لم يشعر المسلمون اليثربيون أنهم من الأوس أو الخزرج ، بل إخوة للناس جميعا يرجون الخير للبشرية بعد أن استودع الله فى قلوبهم الإخلاص وأشعل سراج عقولهم بالبصيرة الباطنة النافذة فى عالم الملكوت .

كانوا فرحين بمراقبة رسول الله عليه السلام على البعد ، وكانت صدورهم تضيق لما يرون إيذاء الناس له ، وسرعان ما يعجبون بصبره على اضطهاد قومه وسفهاء الناس ، وباتوا يتلهفون على مرور الزمن ليجتمعوا به ويلقوا إليه أسماعهم ويمسحوا عن صدره بطاعتهم إياه وامتثالهم لأوامره بعض ما حاق به ظلما من اضطهاد .

وتدفقت الجموع إلى سوق ذى المجاز ورسول الله ــ ﷺ ــ يعرض نفسه على القبائل ويقول : « أنا رسول الله بعثنى إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا ، وأنزل على الكتاب » . ويذكر الإسلام ويتلو القرآن فيأتى أبو لهب ويقول :

ــ لا تطيعوه فإنه صابئ كاذب .

فيقولون :

ــ أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك .

فيقول فى إيمان :

ــ اللهم لو شئت لم يكونوا هكذا .

وولت أيام الأسواق ووافى أوان الحج فانساب الناس إلى البيت العتيق مشاة وركبانا . وقد أشرقت قلوب المسلمين اليثربيين بالفرح فقد دنت الفرصة التى تجشموا من أجلها المتاعب وصبروا صبر الخيل على اللجم حتى لا يفضح أعداء رسولهم الكريم أمرهم،إن هو إلا يوم أو بعض يوم ثم يلقون أحب أهل الأرض إلى أفئدتهم .

وطاف الناس بالبيت وخرجوا إلى عرفات بينا بقى أهل مكة بها لا يخرجون إعظاما للحرم وتكريما ، وخرج رسول الله عليه السلام ومعه المسلمون مع الخارجين ، وإنها لفرصته الذهبية للاجتماع بمن شاء دون رقيب ، فأبو لهب وأبو جهل وعقبة بن أبى معيط وسادات قريش كانوا من الحمس الذين يبيعون الناس الثياب الطاهرة التى لا يقبل منهم حج إلا فيها !

وعند العقبة جلس رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى الأنصار يتدفق منه السحر المبين ، وهم يصغون إليه مستبشرين يحسون أنه ارتفع بهم إلى السماء . وأنهم يستمعون بأسرار القلوب إلى ما يرتل من القرآن المجيد ، وأن علوما نافعة تملأ الصدور ، إنه سما بهم حتى قرعوا أبواب الملكوت .

كانت ساعات مفعمة بالنشوة الروحية ، ولا جرم فالأفكار مشغولة بجلال الله وعظمته وقد تحطمت كل الحواجز النفسية بينهم وبين الله ، ونفوسهم المشرقة كانت تسعد بنبضات قلوبهم المؤمنة التى أشرقت بنور الله . لقد أيقنوا أن الحياة دون الله لا معنى لها . وأنه قد أصبحت لهم رسالة بعد أن كانوا يهيمون فى أودية الدموع بلا هدف ولا أمل ، وقد استولى عليهم الخوف من الغدر والاغتيال .

كانوا بين يدى الرسول الذى كان اليهود ينصرون به قبل أن يبعث ، كانوا إذا قاتلوا قوما قالوا : « نسألك بالنبى الذى وعدتنا أن ترسله وبالكتاب الذى تنزله إلا ما نصرتنا » ، فكانوا ينصرون .

كانوا يشاركونه لذة الأنس بربه ، إنها لذة لا كدر فيها . لقد ذاقوا فاشتاقوا فطلبوا فأدركوا فتحرروا من عبودية الأهواء والغرائز والجهل ، وسموا إلى ما وراء الحواس واستوت أبصارهم وأرشدوا إلى الطريق .

وراح رسول الله يعاهدهم وقد تعلقت به القلوب قبل العيون :

— أبايعكم على أن تمنعونى ما تمنعون منه نساءكم ، ولا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، والسمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره . وأن لا تنازعوا الأمر أهله ، وأن تقولوا الحق حيث كنتم لا تخافون فى الله لومة لائم ، ومن ثبت ووفى فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله عليه فأمره إلى الله عز وجل ، إن شاء غفر له وإن شاء عذبه :

ولم تكن الحرب قد فرضت بعد على المسلمين فلم يطلب منهم أن يحاربوا معه أعداءهم ، ولما كانوا جميعا تجارا فقد أطلقوا على المعاهدة بيعة تشبها بالمعاوضة المالية . وقام الأنصار بعد بيعة العقبة وقد فاضت نفوسهم بالعزة ، فقد خرجوا من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام ، وصارت لهم عقيدة سامية بعد الوثنية وكتاب منير مبارك ، فانقلبوا إلى أهلهم فرحين مستبشرين بما آتاهم الله من فضله ، والله ذو الفضل العظيم .

٥

كانوا أربعين رجلا من الأنصار يصلون خلف أسعد بن زرارة ، وكانوا حديثى عهد بالإسلام ، وخافوا أن تعود نعرة الجاهلية فيكره الأوسى أن يؤمه خزرجى أو يكره الخزرجى أن يؤمه أوسى ، وقد كان من نعمة الله عليهم أن رسول الله ــ ﷺ ــ لم يكن من أحد الحيين المتنازعين فرأوا من الخير أن يكون إمامهم من أصحاب رسول الله عليه السلام حتى يكتموا أنفاس الوسواس الخناس ويأمنوا همزات شيـاطين الإنس والجن على السواء .

وكتبوا إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « إن الإسلام قد فشا فينا فابعث إلينا رجلا من أصحابك يقرئنا القرآن ويفقهنا فى الإسلام ويعلمنا بسننه وشرائعه ويؤمنا فى صلاتنا » . فبعث إليهم رسول الله ــ ﷺ ــ مصعب بن عمير أخا بنى عبد الدار ، فنزل فى بنى غنم على أسعد ابن زرارة .

كان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير على قومهما بنى عبد الأشهل وكان أسعد بن زرارة يخشى أن يصل إليهما نبأ دعوته الناس إلى الإسلام ، فجعل أسعد ومصعب والمسلمون يدعون الناس سرا ، ويفشو الإسلام فى غفلة من السادة الذين يكرهون التغيير خشية أن تزلزل الأرض تحت أقدامهم .

وأقبل أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير حتى أتيا مرقا أو قريبا منها وكانت قرية بعيدة ، فجلسا هنالك وبعثا إلى رهط من أهل الأرض فأتوهم مستخفين . فراح مصعب بن عمير يحدثهم ويقص عليهم القرآن وهم يصغون منتشين . وإذا برجل ينسل من بينهم وينطلق إلى حيث كان سعد

ابن معاذ وابن عمه أسيد بن حضير ويفشى لهما سر الرجال الذين اجتمعوا عند مصعب بن عمير .

والتفت سعد بن معاذ إلى أسيد بن حضير وقال له :

ــ لا أبا لك ، ائت أسعد بن زرارة فازجره عنا فليكف عنا ما نكره ، فإنه بلغنى أنه قد جاء بهذا الرجل الغريب يسفه سفهاءنا وضعفاءنا . فإنه لولا أسعد بن زرارة من حيث علمت لكفيتك ذلك ، هو ابن خالتى ولا أجد عليه مقدما :

فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما ، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب :

ــ هذا سيد قومه قد جاءك ، فأصدق الله فيه .

فنظر مصعب إلى أسيد بن حضير وهو قادم يحمل حربته :

ــ إن يجلس هذا كلمته .

فوقف أسيد عليهما متشمتا ، قال :

ــ ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة .

فقال أسعد بن زرارة :

ــ أو تجلس ؟

فقال أسيد بن حضير :

ــ يا أسعد ، ما لنا ولك تأتينا بهذا الرجل الوحيد الغريب الطريد يسفه ضعفاءنا بالباطل ؟

فقال له مصعب :

ــ أو تجلس فتسمع ؟ فإن رضيت أمرا قبلته وإن كرهته كف عنك ما تكره .

كان منطق مصعب حسنا وكان صوته هادئا آسرا ، فقال أسيد بن حضير :

— أنصفت .

ثم ركز حربته وجلس إليهما فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن فأحس رقة تغشاه وكأن الدموع تخونه لتفر من عينيه ، إنه سمع فطاحل الشعراء وألقى سمعه إلى الحكماء بيد أن ما يسمعه شيء آخر لا يمت لأهل الأرض ، شيء يجعل روحه ترفرف فى السموات ، فما أتم مصعب ما كان يتلو حتى قال أسيد بن حضير فى انفعال :

— ما أحسن هذا وأجمله ! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين ؟

— تغتسل وتتطهر وتغسل ثوبك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلى .

فقام واغتسل وطهر ثوبه وشهد شهادة الحق ، ثم قام فركع ركعتين ثم قال لهما :

— إن ورائى رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، سأرسله إليكما الآن .

ثم أخذ حربته فانصرف ، فالتفت مصعب بن عمير إلى أسعد بن زرارة يسأله عن الرجل الذى سيبعثه أسيد ، فقال له :

— سعد بن معاذ .

وانصرف أسيد إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم ، فلما نظر إليه سعد مقبلا قال :

— أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم .

فلما وقف على النادى قال له سعد :

— ما فعلت ؟

— كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسا ، وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت . وقد حدثت أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه ، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك .

وثارت فى سعد نخوة الجاهلية وغضب أن ينقض أحد عهده فقام مغضبا مبادرا ، فأخذ الحربة من يده وقال :

— والله ما أراك أغنيت شيئا .

ثم خرج إليهما وقد رفت على شفتى أسيد بن حضير ابتسامة رضا ، فقد نجح فى أن يطلق سعد بن معاذ إلى أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير ليسمع منهما السحر الحلال الذى تخضع له النفوس منتشية راضية .

وأقبل سعد عليهما فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب :

— لقد جاءك والله سيد من وراءه من قومه ، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان .

فلما رآهما مطمئنين عرف سعد أن أسيد بن حضير إنما أراد منه أن يسمع منهما ، فوقف عليهما متشمتا ثم قال لأسعد بن زرارة :

— يا أبا إمامة ، والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت منى هذا . هذا يغشانا فى دارنا بما نكره .

فقال له أسعد بن زرارة :

— يابن خالة ، اسمع من قوله فإن سمعت منكرا فاردده بأهدى منه ، وإن سمعت خيرا فأجب إليه .

ورأى مصعب بن عمير منه اللين فقال له :

— أو تقعد تسمع ؟ فإن رضيت أمرا قبلته وإن كرهت عزلنا عنك ما تكره .

— أنصفت .

ثم ركز الحربة والتفت إلى أسعد وقال :

— ماذا تقول ؟

فراح مصعب يقرأ : ﴿ حم * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلىّ حكيم * أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين * وكم أرسلنا من نبى فى الأولين * وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون * فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين * ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم * الذى جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون * والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون * والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا : سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾[1] .

واستمر مصعب يتلو سورة الزخرف وسعد بن معاذ يصغى وهو مأخوذ ، وأسعد بن زرارة يقرأ الانفعالات فى وجهه فيستشعر رضا فقد فعل القرآن فى ابن الخالة الأفاعيل . ثم قام سعد بن معاذ وهو شارد فأخذ حربته فأقبل عامدا إلى نادى قومه ، فلما رآه قومه مقبلا قالوا :

— نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم ، فلما وقف عليهم قال :

— يا بنى عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟

---

(١) الزخرف ١٠ — ١٤ .

— سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا وأبركنا نقية وأمرا .

— فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله .

وسرت همهمة بين الناس فقال :

— من شك فيه من صغير أو كبير فليأتنا بأهدى منه ، فوالله لقد جاء أمر لتحزَّن فيه الرقاب .

وراح سعد بن معاذ وأسيد بن حضير يشرحان الإسلام ويتلوان على الناس ما حفظا من القرآن. وكثر الجذب والشد واشتد الجدل ، وقد أراد الله لبنى الأشهل الهداية فألقى فى قلوبهم أنوار اليقين ، فوالله ما أمسى فى قبيلة بنى الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما ومسلمة .

وقاموا إلى أصنامهم يحطمونها وجعلوا تماثيل الآلهة جذاذا ، فضايق ذلك الكافرين من بنى النجار فاشتدوا على أسعد بن زرارة ، وما زالوا به حتى أخرجوا مصعب بن عمير من عنده فانتقل إلى سعد بن معاذ ، إلى حيث القوة والمنعة ، فلم يزل يدعو ويهدى على يديه حتى قل دار من دور الأنصار إلا أسلم فيها ناس ، وأسلم أشرافهم وأسلم عمرو بن الجموح .

كان عمرو بن الجموح سيدا من سادات بنى سلمة وشريفا من أشرافهم ، وكان قد اتخذ فى داره صنما من خشب يمثل مناة إلهة الأوس والخزرج ، فلما أسلم فتيان بنى سلمة معاذ بن جبل وابنه معاذ بن عمرو بن الجموح فى فتيان منهم ممن أسلم وشهد العقبة ، كانوا يُدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك فيحملونه فيطرحونه فى بعض حفر بنى سَلَمَة . وفيها فضلات الناس منكسا على رأسه ، فإذا أصبح عمرو وذهب ليتمسح بالصنم فلا يجده فيقول :

— ويلكم ! من عدا على آلهتنا هذه الليلة ؟

ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه ثم قال :

— أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينّه .

فإذا أمسى وقام عمرو عدوا عليه ففعل به مثل ذلك . فيغدو فيجده فى مثل ما كان فيه من الأذى . فيغسله ويطهره ويطيبه . ثم يعدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك . فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوما فغسله وطهره وطيبه . ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال :

— إنى والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى . فإن كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك .

فلما أمسى ونام عمرو عدوا فأخذوا السيف من عنقه ، ثم أخذوا كلبا ميتا فقرنوه به بحبل ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سلمة ، فيها عِذر من عِذَر الناس ، ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يجده فى مكانه الذى كان به .

فخرج يتبعه وابنه معاذ يحاول أن يهون له من شأن إلهه وأن يحببه إلى الإسلام فكان يعرض عن ابنه مغضبا ، وغدا ينقلب عن إلهه والمسلمون يزينون فى قلبه دين الله فيثور فى وجوههم وإن كان كلامهم ينزل بسويداء فؤاده ، واستمر فى بحثه حتى وجده فى تلك البئر منكسا مقرونا بكلب ميت ، فلما رآه وأبصر شأنه قال :

والله لو كنت إلها لم تكن ... أنت وكلب وسط بئر فى قرن
أف لملقاك إلها مُستدن ... الآن فتشناك عن سوء الغَبَن
الحمد لله العلى ذى المنن ... الواهب الرزاق ديان الدِّين
هو الذى أنقذنى من قبل أن ... أكون فى ظلمة قبر مرتهن
بأحمد المهدى النبى المُرتهن

وبقى جماعة من الأوس بن حارثة على كفرهم ، فقد كان فيهم أبو عامر ابن الصيفى الراهب وكان شاعرا لهم يسمعون منه ويطيعونه . ولا غرو فقد كان قوالا بالحق معظما قد ترهب ولبس المسوح واغتسل من الجنابة ،

ودخل بيتا فاتخذه مسجدا وقال :

ـ أعبد إله إبراهيم .

لا يدخل فيه حائض ولا جنب ، ورغم أنه على دين الحنيفية . ترى هل يسلم لما يأتى إلى يثرب من بعثه الله بشيرا ونذيرا ليعيد إلى الحنيفية نقاءها وسماحتها ؟

٦

خرج الأنصار فى حجاج قومهم من المشركين ومعهم البراء بن معرور سيدهم وكبيرهم.وكان البراء فى شوق للقاء رسول الله ـ ﷺ ـ فقد آمن به قبل أن يراه . ورجع مصعب بن عمير إلى مكة مع من خرج من المسلمين من الأنصار إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك ، فكانت كل فئة من المسلمين تنطلق مع أهلها . وما خرجوا جميعا تحت راية واحدة حتى لا يوغروا صدور ساداتهم وحتى لا يكونوا هدفا لعداوات لا طائل تحتها .

خرجوا من يثرب ، وبينا هم فى الطريق التفت البراء إلى كعب بن مالك وقال له :

ـ إنى قد رأيت رأيا ما أدرى أتوافقوننى عليه أم لا .

ـ وما ذاك ؟

ـ رأيت أن لا أدع هذه البنية (الكعبة) منى بظهر ، وأن أصلى إليها .

ـ والله ما بلغنا أن نبينا ـ ﷺ ـ يصلى إلا إلى الشام ، وما نريد أن نخالفه ؟

كانت قبلتهم بيت المقدس ، ولكن البراء بن معرور رأى أن الحرم أولى

بأن يكون لهم قبلة فقال :

— إنى أصلى إليها .

— ولكنا لا نفعل .

وحضرت الصلاة فصلى المسلمون إلى بيت المقدس واستدبروا الكعبة ، وصلى البراء وحده إلى الكعبة مستدبرا الشام ، وظلوا على هذا الأمر حتى قدموا مكة وكانوا قد عابوا عليه ذلك وأبى إلا الإقامة على ذلك . فلما قدموا مكة قال البراء بن معرور لكعب بن مالك :

— يا بن أخى انطلق بنا إلى رسول الله — ﷺ — حتى أسأله عما صنعت فى سفرى هذا . فإنه والله لقد وقع فى نفسى منه شىء لما رأيت من من خلافكم إياى فيه .

فخرجا يسألان عن رسول الله — ﷺ — وكانا لا يعرفانه لأنهما لم يرياه قبل ذلك . فلقيا رجلا من أهل مكة فسألاه عن رسول عليه السلام فقال :

— تعرفانه ؟

— لا .

— فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه ؟

— نعم .

كانا يعرفان العباس فقد كان لا يزال يقدم عليهم تاجرا ، قال الرجل :

— فإذا دخلتما المسجد فإذا هو الرجل الجالس مع العباس .

ودخلا المسجد وقد ازدحم بالرجال الذين جاءوا من أنحاء جزيرة العرب للتجارة وتأدية مراسم الحج . فراحا ينقبان عن العباس بأعينهما وهما يحسان قلقا لذيذا منتشيا . فعما قليل يجلسان إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه الذى يكلم من السماء .

ورأيا العباس فراحا يتقدمان إليه ، وغدوا يتفرسان فى وجه الرسول الكريم عليه السلام وقد خفقت قلوبهم رهبة وحبا وأملا واندلاح فى صدريهما انشراح . وفطن النبى عليه صلوات الله وسلامه إلى أنهما قادمان إليه فقال للعباس :

— هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟

— نعم ، هذا البراء بن معرور سيد قومه . وهذا كعب بن مالك .

— الشاعر ؟

وأثلج صدر كعب فرسول الله صلوات الله وسلامه عليه قد سمع به وبشعره . وحيا البراء وكعب رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — بتحية الإسلام فرد بأحسن منها ، وما إن مس صوته آذانهما حتى أحسا الرأفة تنتشر فى وجدانهما . فجلسا إليه مأخوذين بعظمته . وظلا يصغيان إلى سحر بيانه ، ثم قال البراء :

— يا رسول الله إنى قد خرجت فى سفرى هذا وقد هدانى الله إلى الإسلام ، فرأيت ألا أجعل هذه البنية منى بظهر فصليت إليها وخالفنى أصحابى فى ذلك حتى وقع فى نفسى من ذلك شىء ، فماذا ترى يا رسول الله ؟

— قد كنت على قبلة لو صبرت عليها .

فرجع البراء إلى قبلة رسول الله — ﷺ — وجعل يصلى مع إخوانه فى الدين إلى بيت المقدس ، وجاء مصعب بن عمير إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام متهلل الوجه . ثم راح يخبره بمن أسلم من الأنصار والرسول عليه السلام يصغى إليه وقد غمره السرور ، قد لاحت تباشير النصر بعد طول الترقب والانتظار .

وواعد الأنصار رسول الله — ﷺ — العقبة ، وكانوا يكتمون من

معهم من قومهم من المشركين أمرهم ، وكان فيهم أبو جابر عبد الله بن عمرو بن حرام سيد من ساداتهم فكلموه وقالوا له :

ـ يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غدا .

وغدوا يدعونه إلى الإسلام حتى شهد شهادة الحق وصلى معهم ، وأخبروه بميعاد رسول الله ـ ﷺ .

وانقضى يوم النضرة الأول وجاءت الليلة التي واعدوا رسول الله ـ ﷺ ، فمكثوا تلك الليلة مع قومهم في رحالهم حتى إذا مضى ثلث الليل خرجوا من رحالهم لميعاد رسول الله ـ ﷺ ـ يتسلل الرجل والرجلان تسلل القطامستخفين لا ينبهون نائما ولا ينتظرون غائبا كما أمرهم الرسول عليه السلام .

واجتمعوا في الشعب عند العقبة وكانوا ثلاثا وسبعين رجلا وامرأتين : نسيبة أم عمارة من بني النجار وأم منيع أسماء بنت عمر بن عدى . فما زالوا ينتظرون رسول الله صلوات الله وسلامه عليه حتى جاءهم ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، وهو على دين قومه ، ليس معه غيره ، وقد أوقف العباس عليا على فم الشعب عينا له وأوقف أبا بكر على فم الطريق الآخر عينا .

أكان العباس على دين قومه حقا وأنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له ، أم أن العباس قد أسلم سرا . وأنه كتم إسلامه نزولا على رغبة ابن أخيه ليكون قلم مخابراته في مكة إذا ما اضطر رسول الله عليه السلام يوما إلى أن يهاجر من مكة ؟ إن زوجه أم الفضل أسلمت بعد أن حدثتها خديجة مباشرة حديث الملك الذى نزل على زوجها الأمين بغار حراء ، وقد ظلت العلاقة طيبة بين أم الفضل والعباس بعد ذلك ، ترى أكانت أم

الفضل ترضى أن يبقى العباس على كفره وأن تظل على حبها إياه وإجلاله ؟ وإذا ما حرّم الإسلام أن تظل الزوجة المسلمة مرتبطة بزوجها الكافر ، أتهجر أم الفضل العباس أم تظل فى بيته ؟

وجلسوا فكان العباس أول المتكلمين فقال :

ـــ إن محمدا منا حيث قد علمتم . وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا . فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده . وقد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك . وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه ، فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده .

فقال البراء بن معرور :

ـــ أنا والله لو كان فى أنفسنا غير ما تنطق به لقلناه ، ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله ـــ صلوات الله عليه وسلامه .

فقال العباس :

ـــ قد أبى محمد الناس كلهم غيركم ، فإن كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة ترميكم عن قوس واحدة فأروا رأيكم وائتمروا بينكم ولا تفرقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع ، فإن أحسن الحديث أصدقه .

ـــ قد سمعنا مقالتك ، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

ـــ خذ لنفسك ما شئت واشترط لربك ما شئت .

ـــ أشترط لربى عز وجل أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا . ولنفسى أن

تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأبناءكم ونساءكم .

فقال ابن رواحة :

— فإذا فعلنا فما لنا ؟

— لكم الجنة .

— ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل . نبايعك :

فأخذ البراء بن معرور بيده — صلى الله عليه وسلم — ثم قال :

— نعم والذى بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا (نساءنا وأنفسنا) . فنحن والله أهل الحرب وأهل الحلقة (السلاح) ورثناها كابرا عن كابر .

وبينا البراء يكلم رسول الله — صلى الله عليه وسلم . قال أبو الهيثم بن التيهان .

— نقبلك على مصيبة المال وقتل الأشراف .

كان الحماس قد أخذ بالرجال فارتفعت أصواتهم . فقال العباس :

— أخفوا جرسكم فإن علينا عيونا .

ثم قال أبوا الهيثم :

— يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال (يعنى اليهود) حبالا (عهودا) وإنا قاطعوها ، فهل عست إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

فتبسم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثم قال :

— بل الدم الدم والهدم الهدم[1] .

وتحركت عواطف العباس فقال :

— عليكم بما ذكرتم ذمة الله مع ذمتكم وعهد الله مع عهدكم ، فى هذا

---

(١) إن طلب دمكم فقد طلب دمى ومنزلكم منزلى .

الشهر الحرم والبلد الحرام ، يد الله فوق أيديكم و لتجدن فى نصرته ولتشدن من أزره .

قالوا جميعا :

— نعم .

— قال العباس :

— اللهم إنك سامع شاهد ، وإن ابن أخى قد استرعاهم ذمته واستحفظهم نفسه ، اللهم كن لابن أخى عليهم شهيدا .

ثم قال ﷺ :

— أخرجوا إلى منكم أثنى عشر نقيبا يكونون على قومهم بما فيهم .

فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، فمن الخزرج أسعد بن زرارة نقيب بنى النجار ، وسعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة نقيبا بنى الحارث بن الخزرج. ورافع بن مالك بن العجلان نقيب بنى زُريق والبراء ابن معرور وعبد الله بن عمرو بن حرام نقيبا بنى سلمة ، وعبادة بن الصامت نقيب بنى عدى من الخزرج ، وسعد بن عبادة والمنذر بن عمرو نقيبا بنى ساعدة . ومن الأوس أسيد بن حضير نقيب بنى عبد الأشهل ، وسعد بن خيثمة ورفاعة بن عبد المنذر نقيبا بنى عمرو بن عوف .

وقال — ﷺ — لهؤلاء النقباء :

— أنتم كفلاء على غيرهم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى .

وأخذ أسعد بن زرارة وكان أصغرهم بيد النبى — صلى الله عليه وسلم — وقال :

— رويدا يا أهل يثرب ، إنا لن نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله — ﷺ ، وإن إخراجه اليوم مفارقة لجميع وقتل خياركم وأن

تعطبكم السيوف ، فإما أنتم قوم تصبرون عليها إذا مستكم بقتل خيار كم ، ومفارقة العرب كافة ، فخذوه وأجر كم على الله تعالى ، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو عذر لكم عند الله عز وجل .

وقال العباس بن عبادة بن نضلة :

— يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإذا كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعو تموة إليه على ما ذكرت لكم ، فهو والله خير الدنيا والآخرة .

— رضينا . ابسط يدك .

فبسط يده — ﷺ — وتقدم الرجال للمبايعة ، قال أبو الهيثم :

— أبايعك يا رسول الله على ما بايع عليه الاثنا عشر نقيبا من بنى إسرائيل موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام .

وقال عبد الله بن رواحة :

— أبايعك يا رسول الله على ما بايع عليه الاثنا عشر من الحواريين عيسى ابن مريم ﷺ .

وقال أسعد بن زرارة :

— أبايع الله عز وجل يا رسول الله ، فأبايعك على أن أتم عهدى بوفائى وأصدق قولى بفعلى فى نصرك .

وقال النعمان بن حارثة :

— أبايع الله عز وجل يا رسول الله ، وأبايعك على الإقدام فى أمر الله عز وجل لا أرأف فيه القريب ولا البعيد .

وقال عبادة بن الصامت :

— أبايعك يا رسول الله على أن لا تأخذنى فى الله لومة لائم .

وقال سعد بن الربيع :

— أبايع الله وأبايعك يا رسول الله على ألا أعصى لكما أمرا ولا أكذبكما حديثا .

كان القمر يبعث أشعته الفضية فيكسو منى وجبالها بأثواب من لجين ، وكانت العقبة غارقة فى الضوء ، ولكن النور الذى أشرق من صدر الأنصار كان يبهر كل ضياء . ولا جرم فقد كانوا على نور من ربهم قد دنوا من السماء وإن كانت أقدامهم ثابتة فى الأرض .

كانوا على علم بأن اللحظة هى أروع لحظات حياتهم وأخطرها . ولكن لم يخطر لأحد منهم على قلب أن تلك اللحظة كانت أخطر لحظة فى تاريخ البشرية ؛ إنها طلائع النور الذى سيبدد ظلمات الصدور ؛ إنها ينبوع الاستناره الدينية الذى سيتدفق بالخير ليغسل أدران الأرض ؛ إنها كنوز الرحمة والصلاح ؛ خزائن الملكوت قد فتحت للناس ؛ إنها الحرية المتعالية ؛ إنها إشراقة الوجود بالاندماج فى الوجود ؛ إنها بداية طريق كرامة الإنسان والصرط المستقيم للعالمين .

وكان العباس بن عبد المطلب يصغى إلى ما يدور بين ابن أخيه عليه السلام والأنصار وهو فى دهش من أمر الناس الذين يبايعون على محاربة الأسود والأحمر وعداوة العرب قاطبة وهم متهللون بالفرح . كأنما كانوا يدعون إلى متعة من متع الحياة .

وإذا بصوت يصيح من رأس الجبل يقطع على الجميع تفكيرهم :

— يا معشر قريش ، هذه بنو الأوس والخزوج تحالف على قتالكم .

ففزع الأنصار فقال رسول الله — ﷺ — :

— لا يروعكم هذا الصوت .

وقال العباس بن فضلة للرسول عليه السلام :

— والذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا .

فقال عليه السلام :

— لم أومر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم .

فرجعوا إلى مضاجعهم فناموا .

وبلغ الصوت عمرو بن العاص وأبا جهل فهبا من نومهما ، وانطلقا إلى عتبة بن ربيعة وهما مرعوبان وقالا :

— سمعنا صوت منبة بن الحجاج يصيح : هذه بنو الأوس والخزرج تحالف على قتالكم .

فلم يرع عتبة ما راع أبا جهل وعمرو بن العاص فقال فى هدوء ، لكأنما كان يخشى أن يفر النوم من عينيه :

— هل أتاكم فأخبركم بهذا منبه ؟

— لا .

ولم يهدأ بال أبى جهل فجمع مشيخة قريش ثم انطلق حتى دخلوا شعب الأوس والخزرج فقالوا :

— يا معشر الأوس والخزرج . بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا لتخرجوه من بين أظهرنا وتبايعوه على حربنا . والله ما من حى أبغض إلينا أن تشب الحرب بيننا وبينه منكم .

فراح مشركو الأوس والخزرج يحلفون لهم ما كان من هذا شىء وما علمنا . وجعل عبد الله بن أبى بن سلول يقول فى انفعال :

— هذا باطل . هذا باطل . وما كان هذا وما كان قومى ليفتاتوا على بمثل هذا لو كنت بيثرب . ما صنع هذا قومى حتى يؤامرونى .

ونفر الناس من منى . والتقى منبه بن الحجاج بوجوه قريش وأخبرهم

خبر بيعة العقبة فأيقنوا أن خبر الأنصار حق . فاقتفوا آثارهم فلم يدركوا إلا سعد بن عبادة والمنذر بن عمر وكانا قد تخلفا لبعض شأنهما فى مكة ، فأمسكوا سعدا وربطوا يديه فى عنقه وراحوا يلطمونه على وجهه ويجذبونه من شعره الكثيف حتى أدخلوه مكة وبينا هو مع القوم يضرب إذ طلع عليه رجل أبيض وضيء طويل زائد الحسن ، فقال فى نفسه : « إن يكن عند أحد من القوم خير فعند هذا » . فلما دنا منه رفع يديه ولكمه لكمة شديدة فقال سعد فى نفسه : « والله ما عندهم بعد هذا خير » وكان الرجل سهيل بن عمرو .

ورآه أبو البخترى بن هشام وهو يعذب ، فقال له همسا :

— ويحك ! ما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد ؟

فقال فى جهد :

— بلى، كنت أجير لجبير بن مطعم تجارته وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى ، وللحرث بن حرب بن أمية .

— ويحك فاهتف باسم الرجلين .

فهتف سعد بن عبادة :

— يالجبير بن مطعم ! ياللحرث بن حرب !

وهرع أبو البخترى إلى حيث كان جبير والحرث فى الحرم، فقال لهما:

— إن رجلا من الخزرج يضرب بالأبطح يهتف باسمكما .

— من هو ؟

— يقول إنه سعد بن عبادة .

وانطلق جبير بن مطعم والحرث بن حرب بن أمية أخو أبى سفيان إلى الأبطح ، وأجارا سعد بن عبادة وخلصاه من أيديهم . وكان المنذر بن عمر قد أحس أنهم يطلبونه فأفلت منهم ، وخرج سعد بن عبادة من مكة يغذ

السير ليلحق بإخوانه من الأنصار :

﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوارة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ (١) .

٧

راح الإسلام ينتشر فى القبائل بفضل مبادئه القويمة السمحة ، ولم تكن هناك قوة فى الأرض تفرضه أو تسانده . بل كان الرسول صلوات الله عليه وسلامه الذى اصطفاه ربه لتبليغ رسالته فى مكة يحتمل فى صبر السخرية والتعذيب والتكذيب ، لم يكن فى يده سيف وكان أتباعه أضعف من أن يثوروا على أشراف مكة وأن ينتزعوا السلطة من أيديهم .

كان الإسلام نورا يتسلل إلى أفئدة الذين أراد الله بهم خيرا . وكان الكافرون الأقوياء يحاولون جاهدين أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . لم يكن هناك إمبراطور قد دخل فى الدين الجديد ففرضه على هواه على الناس بالحديد والنار . ولم تكن هناك إمبراطورية يعمل النبى عليه السلام لبعثها ، وما عرف العرب من قبل ما الإيمان وما الكتاب ، بل كانت رسالة من السماء تمد الناس بغذاء روحى يقضى على العقم الروحى الذى جعلهم يضربون فى بيداء الحياة كالأنعام .

---

(١) الأعراف ١٥٧ .

كان رسول الله عليه السلام يحاول دائما أن يلقى أضواء الاستنارة الروحية على كل عمل من أعمال أتباعه . وأن يسبر غور لججهم النفسية . وأن يحطم الحواجز بينهم وبين الله . وأن يكشف نفوسهم فى نور الله . وأن يحررهم من العبودية والذلة والمسكنة . وأن يغرس فى وجدانهم النزوع إلى الحرية والكرامة والعزة والنزاهة المطلقة .

وانقسمت مكة إلى معسكرين : معسكر يعتمد على قوته ونفوذه وأمواله قد أطلق رجاله ونساؤه لأنفسهم العنان بعد أن أقنعوا ذواتهم بأنهم يعيشون وفقا للطبيعة ففتحوا الأبواب لشهواتهم وأحقادهم ، ومعسكر يعتمد على الله لا يطمع من الدنيا إلا فى رضى الله فبذل رجاله ونساؤه أقصى الجهود لضبط أنفسهم والسيطرة على ذواتهم ونشدان تنظيم شهواتهم بعد أن تعلموا أن أفضل الجهاد جهاد النفس . وقد بعثت فيهم ملكة الإبداع بمحاكاة رسول الله ﷺ فقد كان لهم فيه أسوة حسنة . فهو أفضل شخصية مبدعة جاد بها الزمان .

كان يتلقى الوحى من ربه فيأخذ عنه الناس علم الدنيا والآخرة والحكمة النازلة من السماء . وكان فى ذات الوقت على خلق عظيم تهوى إليه الأفئدة وتتأثر بذاته الخصبة العميقة وتغترف من كنوز مكارم أخلاقه . فكل من احتك به من أتباعه كان يثرى وتكتسب ذاته عمقا وخصبا . ومن كان يلقى سمعه إلى ما جاء به من تعاليم السماء يستشعر كأن المعارف قد أريقت فى عين ذاته . وأن بذور الطهارة قد بذرت فى أعماقه . وأن نموه الروحى يشتد ويقوى حتى يتحكم فى إرادته فيصبح أكثر بكثير مما يبديه جسمه أو يراه منه الآخرون .

وكان أتباعه مبعثرين فى الأرض قد فروا إلى الله من الاضطهاد والتعذيب . فكان الأحبة وفلذات القلب هناك فى الحبشة . وكان فى

دوس فى اليمن الطفيل بن عمرو وأبوه وأمه وزوجه وأبو هريرة وبعض من شرح الله قلوبهم للإسلام. إن الطفيل وقومه ما كانوا قادرين على نصرة نبيهم عليه السلام، كل ما كان يفعله الطفيل أن يأتى رسول الله يشكو إليه إبطاء قومه عليه، أو يقول له:

— يا نبى الله إنه قد غلبنى على دوس الزنا [1] ، فادع الله عليهم .

فيقول النبى عليه السلام فى رقة :

— ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم .

وكان الإسلام قد انتشر فى غفار وأسلم ، وكانتا قبيلتين لا تستطيعان أن تقفا فى وجه العرب ترميهما عن قوس واحدة . وكان الأنصار يترقبون فى يثرب خشية أن يبطش بهم ساداتهم قبل أن يؤمن بعض أكابرهم ، وقبل بيعة العقبة التى أعز الله بها المؤمنين والإسلام .

كان أتباعه مبعثرين فى الحبشة غرباء ، وفى المدن والقبائل ضعفاء ، وقد أشتغل المسلمون فى الحبشة بالتجارة فعرفوا الاستقرار ؛ ولكن كانت قلوبهم معلقة بمكة .. بأم القرى .. بالبيت العتيق .. بالأهل والخلان والصحاب ، فما كان يأتى من مكة خبر بأن الله أعز رسوله عليه السلام بأنصار حتى يهرع من برحهم الشوق إلى الأحبة بالعودة إلى أحب أرض الله إليهم ، وقد عاد عثمان بن عفان ورقية بنت الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومى أخوه من الرضاع وابن عمته ، وأم سلمة وابنهما سلمة وبعض المسلمين ممن حنوا إلى العودة .

وقدم أبو سلمة وأهله من الحبشة لمكة وهو يحسب أن سيعيش بين قومه ناعم البال ، فاذا بأعداء الإسلام يبطشون به ولا يكفون عن إيذائه ، فأراد

---

(١) الزنا : هو مع شغل قلب وبصر .

الرجوع إلى الحبشة ، وقبل أن يتجهز للرحيل بلغه إسلام من أسلم من الأنصار الذين بايعوا البيعة الأولى فعزم على أن يهاجر إلى إخوان له فى الإسلام فى يثرب، فأعد بعيره وحمل عليه أم سلمة وابنها سلمة فى حجرها وخرج يقود البعير، ورآه رجال من قوم أم سلمة فقاموا إليه وقالوا:

ــ يا أبا سلمة قد غلبتنا على نفسك ، فصاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟

ثم نزعوا خطام البعير منه فجاء رجال من قوم أبى سلمة وقالوا :

ــ إن ابننا معها ، فإذا نزعتموها من صاحبنا ننزع ولدنا منها .ثم تجاذبوه وأبو سلمة ينظر وقلبه يقطر دما ، وظلوا يشدون الغلام حتى خلعوا يده ، وأخذه قوم أبيه . وسار أبو سلمة وحده كسيف البال كسير الفؤاد قاصدا يثرب بعد أن فرق قساة الأكباد بينه وبين زوجه وولده .

وراحت أم سلمة تخرج كل غداة بالأبطح فتبكى حتى المساء ، وقد رق قلب المسلمين لها ولكن ماذا يستطيعون أن يفعلوا أمام طغيان شياطين قريش الأقوياء ؟ ومرت الأيام والأشهر وتصرمت سنة فمر بها رجل من بنى عمها فرأى ما بها فرحمها وقال لقومها :

ــ أما ترحمون هذه المسكينة ؟ فرقتم بينها وبين ولدها وزوجها .

فقالوا لها :

ــ الحقى بزوجك .

فلما بلغ ذلك قوم أبى سلمة ردوا عليها ولدها ، وفى غمرة الفرح أخذت بعيرا وجعلت ولدها فى حجرها وخرجت تريد المدنية وحدها وما معها أحد . فقد عزمت على أن تفر إلى الله فى رعاية الله . حتى إذا كانت بالتنعيم عثمان بن طلحة صاحب مفتاح الكعبة . فلما رآها قال لها :

ــ إلى أين ؟

— إلى زوجي .

— أومامعك أحد ؟

— لا . ما معي إلا الله وابني هذا .

— والله لا أتركك .

ثم أخذ بخطام البعير وسار معها . فكانا إذا وصلا لمنزل أناخ بها ثم استأخر . فإذا نزلت جاء وأخذ بعيرها فحط عنه ثم قيده في الشجرة . ثم أتى إلى الشجرة فاضطجع تحتها . فإذا دنا الرواح قام إلى بعيرها فرحله وقدمه . ثم استأخر عنها وقال :

— اركبي .

فركبت فأخذ بخطامه فقادها إلى المدينة . حتى إذا وافى على قباء قال لها :

— هذا زوجك هنا .

ثم انصرف وذهبت أم سلمة تنقب عن زوجها ملهوفة ، حتى إذا ما وجدته انهمرت العبرات من مآقيها . وكان لقاء بين أول من هاجر إلى يثرب وأول مهاجرة في سبيل الله ورسوله .

ودخل عثمان بن عفان ورقية بنت الرسول عليه السلام مكة وقد ترقرقت الدموع كاللؤلؤ في عيني رقية ، واشتد قلبيهما ، وطافت بهما لهفة على لقاء الأحباب . ولكن رقية سرعان ما نزل بها حزن ولاح في وجهها الأسى ، فهي مقبلة على الدار وقد خلت من الطاهرة الحبيبة وعهدها بها تملأ الكون حياة . إنها لتذكر يوم أن نعى الناعي إليها أم المؤمنين . لقد بكت حتى كادت كبدها أن تتصدع من البكاء ، وقد جاء إليها عثمان يواسيها فعز العزاء. حزنت لموت أمها وأشفقت على ابيها عليه السلام من مرارة الفراق، فقد كانت على يقين عن أن حاضنة الإسلام كانت كل شيء للرسول

صلوات الله عليه بعد الله ، وإنها الآن وهى فى طريقها إلى الحرم تتمزق من لوعة الأسى ، فهى تحس أن عودتها ستجدد الأحزان ، وإن لمسوا فى وجودها بينهم بعض العزاء .

وانسابا إلى الحرم يلتفتان فى ذهول إلى الكعبة وبئر زمزم وجبال مكة ، وقد غدت أعينهما تلثم كل ما تقع عليه فى حنان، حتى حمام الحمى وهو يدرج فى صحن المسجد حرك فيهما الأشواق .

الأخشبان .. الصفا والمرورة .. باب إبراهيم .. باب بنى مخزوم .. أبواب بيوتات قريش .. سوق مكة .. الحجون .. كل شيء جميل إلا هذه الأصنام القائمة فى أطهر بقعة من الأرض . وأحس عثمان رغبة طاغية فى أن يسجد ويلثم تراب البيت . ولكنه قاومها وجعل يطوف بالبيت . وقد غسلت وجهه الدموع .

وطافت رقية وما أتمت طوافها حتى خفت إلى بئر زمزم تطفىء ظمأها . ثم سارت مع زوجها لتخرج من الحرم إلى سوق العطارين حيث دكان أبى طالب ، ومخازن أسماء بنت مخرمة أم أبى جهل وعبد الله بن أبى ربيعة ، ومنازل عقبة بن أبى معيط ، والنضر بن الحارث ، والحكم بن أبى العاص عم عثمان الذى آذاه هو وعقبة زوج أمه حتى اضطراه إلى الخروج إلى الحبشة فرارا بدينه ، والعاص بن وائل ، ومنبه بن الحجاج ، وأبو لهب ابن عبد المطلب ، وابنى خلف .

وكانت تمد عينيها إلى تلك الدور فتحس انقباضا وراحة ، انقباضا لعداوة هؤلاء لأبيها عليه السلام عداوة لا يحركها إلا الحسد والحقد والغيرة ، وراحة لأن ما من بيت من هذه البيوتات إلا وقد آمن منه بالله ورسوله ابن من أعز أبنائه فرد سخرية الساخرين إلى نحورهم . فلو لم يكن ما جاء به أبوها عليه السلام الحق من ربه لما كفر أبناء الرءوس بدين

آبائهم .

ووقعت عيناها على الدار الغالية ، الدار التى شهدت فيها أحلى أيام عمرها ، دار خديجة ، دار الوحى والإيمان ، فخفق قلبها بين ضلوعها كجناح حمامة ، وانتشرت فى جوفها مشاعر متباينة كانت مزيجا من الرهبة واللهفة والحزن والفرح والقلق ، حتى اختلطت إحساساتها و لم تعد تدرى حقيقة عواطفها . وفطن عثمان إلى اضطرابها فنزل فى الدرج ثم دق الباب ، وما لبث أن فتحه غلام من الدار ، وفى مثل البرق انتشر فى البيت خبر قدوم رقية وعثمان ، فراحت أم كلثوم وفاطمة ومن كان هناك يستبقون إليهما ، وتعانقت الأخوات وسالت العبرات ، وفى مثل لمح البصر استيقظت الذكريات ، وأحس الجميع غياب الأم الحنون فانفجرن باكيات .

وجاءت سودة بنت زمعة ثقيلة فى خطواتها ، وراحت ترحب بمقدميهما وتسألهما عمن تركا خلفهما فى الحبشة ، فقد كانت سودة هناك قبل أن تعود مع زوجها السكران أخى سهيل بن عمرو ، وكانت تمضى أغلب أوقاتها مع رقية يتذاكران أمر الدين :

لم تحلم سودة فى يوم ما بأن تكون زوجة رسول الله — ﷺ — وأن تصبح أم المؤمنين ، وما كان ذلك يخطر لرقية على بال ، ولولا عطف رسول الله عليه السلام على ما أصابها من الترمل بعد موت زوجها وتقديره لما احتملت فى سبيل الله ورسوله من آلام ، ما دخلت بيته عليه السلام لتملأ الفراغ الذى خلفته سيدة نساء قريش . تملأ الفراغ الذى خلفته خديجة ؟ هيهات ! إن رقية واثقة من أن نساء الأرض ليعجزن عن أن يجعلن رسول الله عليه اسلام ينسى أيام خديجة التى صدقته لما كذبه الناس ، وآمنت به لما كفر به الناس ، وواسته لما عزت المواساة ، وكانت له وزير صدق على الدوام .

وساروا فى الممر الطويل ثم صعدوا فى الدرج فاذا بقلب رقية ينقبض ، فعما قليل ستقع عيناها على غرفة الأم الرءوم . وجعلت تقاوم حتى لا تنهار ، وسارت معهم وهى غائبة عنهم بما يعتمل فى نفسها من انفعالات ، إن الدموع تبلل روحها ، وإن وقدة نار قد استقرت فى حنجرتها حتى لم تعد تقوى على الكلام ، وفجأة ندت منها صرخة أعقبها نداء حنون لكأنما كان خنجرا مزق الأكباد :

— أماه ! أماه !

وبكت أم كلثوم ورقية ، ومسحت سودة الدموع فى صمت ، واستولت على عثمان رقة فانتحب ، فقد كانت خديجة رمزا للوفاء والجهاد والصبر والكفاح والإيمان الصادق المتبصر . وما كانت ترجو إلا رضى الله والله عنده حسن الثواب .

وبلغ رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أن عثمان ورقية قد رجعا من الحبشة فإذا بوجهه مسفر ضاحك مستبشر ، وإذا بالحنان يتدفق من قلبه ، وإذا به يوسع الخطو ليسعد بلقاء الحبيبين رقية وعثمان ويطفىء نار الشوق إلى من أحس وطأة قسوة فراقهما بعد ذهاب خديجة الذى خلف الأشجان .

وهرع حليف الأحزان إلى الدار ليفرح لحظات بحلاوة اللقاء . ويلقى سمعه منتشيا إلى رقية وعثمان وهما يحدثانه حديث الإسلام فى الحبشة وما كان من أمر النجاشي لما تليت عليه : ﴿ ألم . غلبت الروم . فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون [١] ﴾ فإن الذين

---

(١) الروم ١ — ٦ .

راهنهم أبو بكر الصديق من كفار قريش على نصر الروم قد بدءوا يسخرون منه ومن القرآن ، فالفرس لا يزالون هم الظاهرون .

وضم الرسول عليه السلام رقية إليه وغمرها بقبلاته . ثم أخذ عثمان بين ذراعيه وقد لاح على الجميع التأثر العميق . ثم جلسوا يصغون إلى رقية وعثمان وهما يرويان حديث الحبشة والنجاشي والمسلمين .

وغدا عثمان يختلف إلى نوادى المسلمين حينا ويعمل فى التجارة أحيانا ويرعى حدائقه فى الطائف . وقد رأى النبى عليه السلام أن بعض المسلمين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة فآخى بينهم على الحق والمساواة ، فآخى بين أبى بكر وعمر، وآخى بين حمزة وزيد بن حارثة، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف ، وبين الزبير وابن مسعود ، وبين عبادة بن الحارثة وبلال . وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبى وقاص ، وبين أبى عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبى حذيفة ، وبين سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وطلحة بن عبيد الله ، وبين على ونفسه — ﷺ — وقال :

— أما ترضى أن أكون أخاك ؟

فقال على فى ابتهاج :

— بلى يا رسول الله رضيت .

— فأنت أخى فى الدنيا والآخرة .

٨

استمر كفار قريش فى إيذاء المسلمين ، واشتدت عداوتهم ضراوة لما أيقنوا أن محمدا عليه السلام قد بايع الأوس والخزرج على أن يمنعوه فيما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأنهم قد قبلوه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فجاء المسلمون إلى نبيهم عليه صلوات الله وسلامه يشكون ما يلقون من اضطهاد فقال لهم :

ـــ إن الله قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها .

وكان ذلك أمرا لمن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى يثرب والهجرة إليها ، فحمل عامر بن ربيعة حليف عدى بن كعب امرأته ليلى بنت أبى حثمة بن غانم ، وفى هجعة الليل انسل بها فى غفلة من قريش إلى يثرب ، فلما أصبح القوم لم يحسوا غيابه ، فما كان إلا رجلا واحدا وامرأته ، وما كان غياب اثنين ليلفت الأنظار إلى الهجرة .

وخرج عبد الله بن جحش حليف بنى أمية بن عبد شمس بأهله وبأخيه عبد بن جحش ، كان رجلا ضرير البصر وكان يطوف مكة بغير قائد ، وكانت عنده الفرعة بنت أبى سفيان بن حرب : فلما أشرقت الشمس ودبت الحياة فى طرقات مكة ولم يظهر بها عبد بن جحش ارتاب الناس وانطلق أبو سفيان إلى دار ابنته فعلم أنها هاجرت إلى يثرب ، ففطن إلى أن أتباع محمد عليه السلام إنما يلحقون بإخوانهم فى الدين ، ووضحت له خطورة الأمر فذهب إلى نادى قريش يقص عليهم مخاوفه ، فاتفق القوم على أن يرقبوا أتباع محمد عليه السلام وأن يمنعوهم من الخروج إلى يثرب حتى لا يشتد ساعد الإسلام هناك ويصبح خطرا على تجارتهم .

كان المسلمون يخرجون جماعات ، فلما راحت قريش ترصد طريق يثرب أخذوا ينسلون آحادا ، فخرج عمار بن ياسر وبلال بن رباح وسعد ابن أبى وقاص مستخفين حتى نزلوا على الأنصار فى دورهم فآووهم وواسوهم . وكانت قرية بنى عمرو بن عوف بقباء تستقبل الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، وكان الأنصار يلقون أسماعهم إليهم مستبشرين فهم أصحاب نبيهم الذين تلقوا عنه العلم والحكمة وحفظوا عنه القرآن المجيد :

وراح عمر بن الخطاب يتأهب للخروج فجاء هشام بن العاص وعياش ابن أبى ربيعة وواعداه أن يهاجرا معه وقالا :

ـــ الميعاد بيننا المناصف ميقات بنى غفار ، فمن حبس منا لراياتها فقد حبس فليمض صاحبه .

كان هشام يخشى قومه فواعده مكانا بعيدا عن أنظار قريش ، وكذلك فعل عياش بن أبى ربيعة فقد خاف أن يعثر به أخوه أبو جهل فيمنعه من الخروج .

وتقلد عمر بسيفه وتنكب قوسه وانتضى فى يديه أسهما وعلق حربته الصغيرة عند خاصرته ، ومضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها فطاف بالبيت سبعا ، ثم أتى المقام فصلى ركعتين ورسول الله صلوات الله عليه السلام جالس فى الحرم ومعه أبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب يرقبون عمر فى قلق ، فقد أبى ابن الخطاب أن يهاجر مختفيا . إنه أعلن إسلامه فى شجاعة وإنه ليعلن هجرته متحديا الجميع .

وغدا عمر على الحلق واحدة واحدة ، فقال :

ـــ شاهت الوجوه ! لا يرغم الله إلا هذه المعاطس (الأنوف) . من أراد أن تثكله أمه أو يوتم ولده أو ترمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى .

وسار عمر فما تبعه أحد ، فأشرق وجه رسول الله عليه السلام وانشرح صدر أبى بكر وغمرت عليا نشوة انتصار . وذهب عمر إلى حيث واعده هشام بن العاش فلم يجده . فطن لهشام قومه فحبسوه عن الهجرة ، فانطلق عمر إلى حيث واعد الخارجين معه فلما تم عقدهم خرج عمر وعياش بن أبى ربيعة فى عشرين من المسلمين ، منهم زيد بن الخطاب أخو عمر . وسعيد بن زيد زوج أخته فاطمة ، وخنيس بن حذافة السهمى زوج ابنته حفصة ، وواقد بن عبد الله التميمى حليف بنى عدى . وعبد الله وعمرو ابنا سراقة بن المعتمر ، وخولىّ بن أبى خولىّ حليف الخطاب ، وأخوه مالك وبنو البكير الأربعة إياس وعاقل وخالد وعامر . وكان مع عمر ابنه عبد الله .

وعرفت أسماء بنت مخربة أن ابنها عياش بن أبى ربيعة قد هاجر مع المهاجرين ، فجمعت بنى مخزوم وقالت :

ـــ لن آكل ولن أشرب ولن أدخل مسكنا حتى يرجع إلى عياش .

كان عياش أصغر أبنائها وكان أحبهم إليها ، وكان بنو مخزوم يعرفون تعلقها به وبره إياها على الرغم من أنه كفر بدين آبائه . وكان أبو جهل يرى فى هجرة عياش خزيا لبنى مخزوم . فانطلق هو والحارث بن هشام إلى يثرب ليعيدوا عياشا إلى أمه ويعيدوا لبنى مخزوم كرامتها .

وجاء أبو جهل والحارث إلى عياش وكان فى بنى عمرو بن عوف بقباء ، ففطن عمر إلى ما جاءا له فقام إلى عياش ليقف إلى جواره .

كان عياش ابن عم أبى جهل والحارث وأخاهما لأمهما ، فأخذا يكلمانه فى الرجوع وقالا :

ـــ إن أمك قد نذرت أن لا يمشط رأسها مشط ولا تستظل من شمس حتى تراك . وأنت أحب ولد أمك إليها . وأنت فى دين منه بر الوالدين .

فارجع إلى مكة فاعبد ربك كما تعبده بالمدينة .

فرقت نفسه وصدقهما وأخذ عليهما المواثيق أن لا يغشياه بسوء ، وقال له عمر :

— إن يريدا إلا فتنتك عن دينك فاحذرهما . والله لو آذى أمك القمل امتشطت . ولو أشتد عليها حر مكة لاستظلت .

فقال عياش :

— أبر أمي ولى مال هناك آخذه .

فقال عمر :

— خذ نصف مالى ولا تذهب معهما .

فأبى إلا أن يخرج معهما . فقال له عمر :

— أما إذا فعلت فخذ ناقتى هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول فالزم ظهرها ، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها .

فخرج عليها معهما ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل :

— يا أخى والله لقد استغلظت بعيرى هذا ، أفلا تعقبنى على ناقتك ؟

— بلى .

فأناخ وأناخا ليتحول عليها ، فلما استووا بالأرض أوثقاه رباطا ، ثم دخلا به مكة نهارا موثقا وقالا :

— يأهل مكة ، هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا .

وراح أبو جهل يعذبه ، يجلده مرة ويلقى به فى الشمس مرة ، وقد حلفت أمه أنه لا يحل عنه حتى يرجع عن دينه . وكان يعذبه مع أبى جهل رجل من كنانة فحلف عياش ليقتلن ذلك الرجل إن قدر عليه .

وكان رسول الله — ﷺ — يرى ما ينزل بعياش وهشام بن العاص والمستضعفين من المسلمين من صنوف العذاب فيستشعر أعمق الأسى ،

وما كان يملك لهم إلا الدعاء فأهلهم قد انقلبوا إلى وحوش ضارية .

وجلس عياش وهشام مكبلين فى بيت لا سقف له ، وبقيا فيه ينتظران الفرج من الله . وتتابع المهاجرون فنزل طلحة بن عبيد الله على أسعد بن زرارة ، ونزل حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة وأبو مرثد وابنه مرثد حليفا حمزة ، وأنسة وأبو كبشة موليا رسول الله — ﷺ — على كلثوم ابن هدم أخى بنى عمرو بن عوف بقباء ، ونزل عبيدة بن الحارث بن المطلب وأخواه الطفيل والحصين ومسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب وخباب مولى عتبة بن غزوان على عبد الله بن سلمة ، ونزل عبد الرحمن بن عوف فى رجال من المهاجرين على سعد بن الربيع ، ونزل الزبير بن العوام وأبو سبرة بن أبى رهم بن عبد العزى على منذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة ابن الجُلاح بحصن العصبة دار بنى جحجبى ، ونزل مصعب بن عمير على سعد بن معاذ ، ونزل أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وسالم مولى أبى حذيفة وعتبة بن غزوان على عياد بن بشر ، ونزل عثمان بن عفان على أوس بن ثابت أخى حسان بن ثابت فى دار بنى النجار ، ونزل العزاب من المهاجرين على سعد بن خيثمة وذلك أنه كان عزبا .

كانت زوجة أبى حذيفة قد أعتقت سالم مولى أبى حذيفة وكان أكثر المهاجرين أخذا للقرآن ، فكان عمر بن الخطاب يثنى عليه كثيرا وكان يقدمه ليؤم المهاجرين جميعا . فلا فرق بين حر وعبد ولا أسود ولا أبيض فى الإسلام إلا بالتقوى .

ومكث — ﷺ — بعد أصحابه ينتظر أن يؤذن له فى الهجرة ، ولم يتخلف معه إلا على بن أبى طالب وأبو بكر الصديق وصهيب الذى تواعد معه — ﷺ — أن يكون معه فى الهجرة ، ومن كان محبوسا أو مريضا أو عاجزا عن الخروج .

وجاء أبو بكر يستأذن رسول الله — ﷺ — فى الهجرة ، فقال له :

— لا تعجل ، لعل الله أن يجعل لك صاحبا .

وطمع أبو بكر بأن رسول الله — ﷺ — إنما يعنى نفسه ، فابتاع راحلتين فحبسهما فى داره يعلفهما إعدادا لذلك . وغدا المهاجرون والأنصار فى المدينة ينتظرون قدوم النبى عليه صلوات الله وسلامه فى لهفة وشوق .

ورأت قريش أن رسول الله — ﷺ — صار له شيعة وأصحاب من غيرهم . ورأوا خروج أصحابه إليهم وأنهم أصابوا منعه . خافوا أن يخرج رسول الله صلوات الله عليه وأن يجمع على حربهم . فاجتمعوا فى دار الندوة يتشاورون فيما يصنعون فى أمر رسول الله — ﷺ .

كان فى الدار أشراف بنى عبد شمس وبنى نوفل وبنى عبد الدار وبنى أسد وبنى مخزوم وبنى سهم وبنى جمح وغيرهم مما لا يعد من قريش . ولم يتخلف من أهل الرأى والحجى أحد . وقالت قريش :

— لا يدخلن معكم فى المشاورة أحد من أهل تهامة .

لأن هواهم كان مع محمد — ﷺ .

ورحوا يفكرون فيما يفعلون برسول الله عليه السلام . قال بعضهم لبعض :

— إن هذا الرجل قد كان من أمرة ما قد رأيتم . وإنا والله لا نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا . أجمعوا فيه رأيا .

— احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه بابا . ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء حتى يصيبه ما أصابهم من هذا الموت .

— لا والله ما هذا لكم برأى ، والله لو حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فلا تشكوا أن يثبوا

عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم حتى يغلبوكم على أمركم ، ما هذا برأى فانظروا رأيا غيره .

ــ نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا ، فإذا خرج عنا فوالله ما نبالى أين ذهب .

ــ والله ما هذا برأى ، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال ، والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حى من العرب فيغلب بذلك عليهم من قوله وحديثه حتى يبايعوه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فيأخذوا أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد . دبروا فيه رأيا غير هذا .

فقال أبو جهل :

ــ والله إن لى فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد .

ــ وما هو يا أبا الحكم ؟

ــ الرأى أن تأخذوا من كل قبيلة شابا جلدا ، حسيبا فى قومه نسيبا وسطا ، ثم يعطى كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يفدون إليه فيضربونه ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا فلم تقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فيرضوا منا بالعقل (الدية) فعقلنا لهم :

ــ القول ما قال هذا الرجل . هذا هو الرأى ولا أرى غيره .

فتفرق القوم على ذلك ، فأتى جبريل رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بخبر السماء ، فتلا :

﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾[1] .

---

(١) الأنفال ٣٠ .

ثم قال :

— لا تبت هذه الليلة فى فراشك الذى كنت تبيت عليه .

وكان الثلث الأول من الليل فاجتمع الحكم بن أبى العاص وعقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث وأمية بن خلف وزمعة بن الأسود وأبو لهب وأبو جهل ، وأحدقوا ببابه — ﷺ — وعليهم السلاح يرصدون طلوع الفجر ليقتلوه ظاهرا فيذهب دمه ، لمشاهدة بنى هاشم قاتله من جميع القبائل فلا يتم لهم أخذ ثأره .

ورأى رسول الله — ﷺ — مكانهم فقال لعلى :

— نم على فراشى واتشح بردائى الحضرمى ، فإنه لن يخلص إليك شىء تكرهه منهم .

فبات علىّ على فراشه هادئ النفس ، فهو لو خير لاختار أن يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة ، فلك الله يابن أبى طالب ! يا من بعت نفسك لله ورسوله حتى يتم الله نوره ولو كره الكافرون .

وكان أبو جهل بن هشام يقول فى استهزاء :

— إن محمدا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن . وإن لم تفعلوا كان فيكم ذبح ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم نار تحترقون فيها .

وسمعه رسول الله — ﷺ — فخرج عليهم وهو يقول :

— نعم أنا أقول ذلك .

وأخذ حفنة من تراب وتلا قوله تعالى : ﴿ يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم * لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون * لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون *

إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾[١] .

فأخذ الله على أبصارهم عنه فلم يروه ، وراح عليه السلام ينثر التراب على رءوسهم فلم يبق رجل إلا وضع على رأسه ترابا ، ثم انصرف إلى حيث أراد ، فأتاهم آت فقال :

— ما تنتظرون ههنا ؟

— محمدا .

— قد خيبكم الله ! والله خرج عليكم محمد ثم ما ترك منكم رجلا إلا وضع على رأسه ترابا وانطلق لحاجته ، أفما ترون ما بكم ؟

فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ، فجعلوا يطلعون فيرون عليا نائما على الفراش مسجى ببرد رسول الله — ﷺ ؛ فيقولون :

— والله إن هذا محمدا نائما عليه برده .

وساروا إليه يحسبونه النبى — ﷺ — ، فلما رأوا عليا رد الله مكرهم فقالوا :

— أين صاحبك ؟

— لا أدرى .

وراحوا يتميزون غيظا ، كانوا قد هموا باقتحام الجدار على الرسول عليه السلام فى الدار ، فصاحت امرأة من الدار فقال بعضهم لبعض : إنها لسبة فى العرب أن يتحدث عنا أنا تسورنا الحيطان على بنات العم وهتكنا حرمنا ، وقد أطاعوا النصيحة فأفلت منهم هاربا بسحره .

وخذلهم الله وحماه عليه الصلاة والسلام ويسر له أن يخرج دون أن

---

(١) يس ١ — ٩ .

يبصروه ، وظل عليه صلوات الله وسلامه مستخفيا حتى إذا ما وافى الظهر وارتفعت الشمس فى السماء انطلق إلى دار أبى بكر ، فرأته أسماء فقالت :

— يا أبت ، هذا رسول الله — ﷺ — متقنعا .

— فدا له أبى وأمى ! والله ما جاء به فى هذه الساعة إلا أمر .

فخرج إليه أبو بكر مهرولا فقد أتى عليه السلام فى ساعة لم يكن يأتيهم فيها ، فقال صلوات الله وسلامه عليه :

— أخرج من عندك .

وكانت أسماء وعائشة عنده فقال :

— إنما هما ابنتاى

— أذن لى فى الهجرة .

— الصحبة يا رسول الله .

— الصحبة .

وبكى أبو بكر من فرط السرور ثم راح يتأهب للخروج فأخذ ما كان فى داره من أموال ، حتى إذا ما أرخى الليل سدوله بعث إلى صهيب فقد كان تواعد معه — ﷺ — أن يكون معه فى الهجرة فوجده يصلى ، ثم أرسل إليه أبو بكر مرتين فوجده يصلى ، فكره أن يقطع عنه صلاته فخرج رسول الله عليه صلوات الله وسلامه وأبو بكر الصديق مستخفيين ، حتى إذا خلفا الكعبة وراءهما نظر عليه السلام إلى مكة وقال :

— والله إنك لأحب أرض الله إلى ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك قهرا ما خرجت .

وانطلقا ، وجعل أبو بكر يمشى مرة أمام النبى — ﷺ — ومرة خلفه ومرة عن يمينه ومرة عن شماله ، فسأله رسول الله عليه السلام عن ذلك فقال :

— يا رسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون خلفك ، ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك لا آمن عليك .

وكان رسول الله عليه السلام يمشي على أطراف أصابعه لئلا يظهر أثر رجليه على الأرض ، وكان الجبل خشنا فلم يصب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه الغار حتى قطرت قدماه دما . ولما انتهيا إلى فم الغار قال أبو بكر للنبى — ﷺ :

— والذى بعثك بالحق لا تدخل حتى أدخله قبلك ، فإن كان فيه شىء نزل بى قبلك . فدخل الصديق فجعل يلتمس بيده كلما رأى جحرا ألقمه الحجر ، ثم دخل رسول الله — ﷺ — وقد نال منهما الجهد ، فجلسا مستخفيين فى غار ثور .

ونظر أبو بكر إلى قدمى رسول الله — ﷺ — وقد تقطرتا دما فأحس رقة تكتنفه وأسى على ما نال من جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور من عذاب على أيدى الجاهلين الذين أعمى الله قلوبهم عن النور .

وكانت أمام الغار شجرة مثل قامة الإنسان وبعث الله العنكبوت فنسجت ما بين فروعها نسجا متراكبا بعضه على بعض ، وأمر الله حمامتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار وما يعلم جنود ربك إلا هو . وإن جندنا لهم الغالبون .

٩

فقد المشركون رسول الله — ﷺ ؛ فشق عليهم ذلك وكاد يجن جنونهم ، وغدوا يطلبونه فى دور بنى هاشم ودور تابعيه بأعلى مكة وأسفلها ، فأتى نفر من قريش فيهم أبو جهل فوقفوا على باب أبى بكر ، فخرجت إليهم أسماء بنت أبى بكر فقالوا :

— أين أبوك يا بنت أبى بكر ؟

— لا أدرى والله أين أبى ؟

فرفع أبو جهل يده فلطم خدها لطمة طرح منها قرطها ، ثم راحوا ينقبون عنه وقد كادت عقولهم تطير من رءوسهم ، فلو لحق بأنصاره فى يثرب فلن يكون لهم عليه سلطان بل قد يصبح مناوئا خطرا لسلطانهم ، فتجارتهم وقوافلهم إلى الشام ليس لها سبيل إلا عن طريق يثرب ، إنه سيصبح فى قبضته شريان حياتهم .

وبعثوا القافة فى كل مكان يقفون أثره، فإذا بهم يتجهون إلى جبل ثور وسادات قريش معهم ، وأقبل فتيان قريش من كل بطن بعصيهم وسيوفهم ، وأحس صلوات الله وسلامه عليه مقدمهم فخاف على صهيب وأشفق عليه وقال :

— واصهيباه ولا صهيب لى .

تواعد معهما على أن يكون ثالثهما ، وأرسل إليه أبو بكر فوجده يصلى فقال :

— يا رسول الله وجدت صهيبا يصلى فكرهت أن أقطع عليه صلاته .

— أصبت .

وانتهوا إلى فم الغار ، ورأى أبو بكر قريشا أقبلت نحو الغار ومعهم القافة ، وسمع القائف يقول :

— والله ما جاز مطلوبكم من هذا الغار .

حزن وبكى وقال همسا :

— والله ما على نفسي أبكى ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره .

فقال له رسول الله ﷺ :

— لا تحزن ، إن الله معنا .

وأنزل الله سكينته على أبى بكر فراح ينظر إلى أقدام المشركين وهم على رءوسهما ، فقال :

— يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه .

— يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟

وقال قائل من المشركين :

— ادخلوا الغار .

فقال أمية بن خلف :

— وما أربكم إلى الغار ؟! ، إن عليه لعنكبوتا كان قبل ميلاد محمد .

ثم جاء قبالة فم الغار فبال .

وقال أبو جهل وهو يحس مرارة الهزيمة :

— أما والله إنى لأحسبه قريبا يرانا ، ولكن بعض سحره قد أخذ على أبصارنا .

فانصرفوا وقد نكسوا رءوسهم وقد اكفهرت وجوههم ، فلو أن محمدا صلوات الله وسلامه عليه نجح فى الهجرة إلى يثرب ، فذلك إيذان ببدء المتاعب لسادات قريش الذين يستمدون سلطانهم من أموالهم التى تتدفق عليهم مع القوافل الغادية الرائحة بين مكة والشام .

وكان عبد الله بن أبي بكر غلاما ، فغدا إلى مجالس سادات مكة وقد أعارهم سمعه ، لا يسمع أمرا يكاد به رسول الله عليه السلام والصديق إلا وعاه ، واختلط الظلام فانسل عبد الله فى خفة وانطلق يسترق الخطى إلى الغار .

وراح عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يرعى قطعة من غنم لأبي بكر ، حتى إذا ذهبت ساعة من العشاء غدا بها عليهما فيحلبان ويشربان . وبات عبد الله بن أبي بكر عندهما يقص عليهما ما كان من قريش فى يومهم ذاك ، حتى إذا ما كان الفجر دلج من عندهما وتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يقفو أثر قدميه .

وعاد عبد الله يستمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر . وأقام رسول الله — ﷺ — ثلاثة أيام بلياليها فى الغار وقريش تبحث وتنقب وتدور على داره ودور بنى هاشم ودور أصحابه ، وأسماء بنت أبي بكر تأتيهما ليلا بطعامهما وشرابهما ، فلما كان بعد الثلاث أمرها ﷺ أن تأتى عليا وتخبره بموضعهما وتقول له يستأجر لهما دليلا ويأتى معه بثلاث من الإبل بعد مضى هزيع من الليلة الآتية :

وجاءت الساعة الموعودة ، فسمع رسول الله — ﷺ — رغاء الإبل ، فنزل من الغار هو وأبو بكر حتى إذا ما كانا أسفل الجبل عرفا الدليل ؛ إنه الأريقط بن عبد الله الليثى ، وسرعان ما جاءت أسماء بنت أبي بكر وعامر ابن فهيرة بسفرة فيها شاة مطبوخة ، ولم تجد أسماء لسفرة رسول الله عليه السلام ولا لسقائه ما تربطهما به فقالت لأبيها :

— لا والله ما أجد شيئا أربط به إلا نطاق .

— فشقيه اثنين واربطي بواحد السقاء وبواحد السفرة .

ففعلت ، فقال لها ﷺ :

— أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين فى الجنة .

وراح النبى — ﷺ — وأبو بكر يودعان ذات النطاقين ، ثم ركب عليه السلام ناقته القصواء ، وركب أبو بكر وقد أردف مولاه عامر بن فهيرة ليخدمهما فى الطريق ، وركب الدليل ناقته . وتذكر رسول الله عليه صلوات الله وسلامه أم كلثوم وفاطمة الزهراء وسودة ومن تركهم فى داره من مواليه ، فراح يدعو الله فى حرارة :

— اللهم اصحبنى فى سفرى واخلفنى فى أهلى .

ثم انطلق أفضل ركب فى رعاية الله .

وذهب أبو قحافة إلى دار ابنه لما علم بخروجه ، فاستقبلته أسماء وعائشة . وكأنما أراد الشيخ أن يطمئن إلى أن ابنه قد ترك لأهله من المال ما يغنيهم عن الناس فقال :

— والله إنى لأراه قد فجعكم بماله فى نفسه .

قالت أسماء :

— كلا يا أبت ، إنه قد ترك لنا خيرا كثيرا .

كان مال أبي بكر أربعين ألف دينار قد أنفق منها كثيرا فى تحرير رقاب من أسلم من الأرقاء وفى سبيل الله ورسوله ، ولم يبق من ذلك المال سوى خمسة آلاف أخذها معه فى هجرته . ولم تشأ أسماء أن تفجع جدها بذلك فأخذت أحجارا فوضعتها فى كوة فى البيت الذى كان أبوها يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوبا ، ثم أخذت بيده فقالت :

— يا أبت ضع يدك على هذا المال .

— لا بأس ، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفى هذا بلاغ لكم .

وأراد صهيب الهجرة إلى المدينة لما رأى كفار قريش يتميزون غيظا لعجزهم عن القبض على محمد صلوات الله وسلامه عليه وصاحبه ، فقد

فطن إلى أن الرسول عليه السلام وأبا بكر الصديق قد خرجا إلى يثرب وأفلتا من أيدى الكفار ، فراح يتجهز للخروج وقد أخذ سيفه وكنانته وقوسه . وما كاد ينطلق براحلته حتى اتبعه نفر من قريش ، فنزل عن راحلته وانتشل ما فى كنانته ثم قال :

— يا معشر قريش ، قد علمتم أنى من أرماكم رجلا . وايم الله لا تصلون إلى حتى أرمى بكل سهم فى كنانتى ثم أضرب بسيفى ما بقى فى يدى منه شىء .

— أتيتنا صعلوكا فقيرا فكثر مالك عندنا ، ثم تريد أن تخرج بمالك ، لا والله لا يكون ذلك .

— أرأيتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى ؟

— نعم .

— فإنى جعلته لكم . احفروا تحت أسكفة الباب فإن تحتها أواقى الذهب .

وأطل الجشع من أعينهم وتحرك الحقد فى نفوسهم ، وود كل منهم لو يسابق الريح ليحفر وحده تحت أسكفة الباب ليستخرج كنز مولى عبد الله ابن جدعان أو يكون له من القدرة أن يكتم أنفاس كل من تسول له نفسه التفكير فى الاستيلاء على ذلك المال ، فهو يريده خالصا له وحده ليتمتع بلذات الحياة .

وانطلقوا يتزاحمون إلى حيث أشار عليهم صهيب انطلاق الوحوش الكواسر إلى فريسة بعد جوع طويل ، وقد حرك الطمع فيهم كل جوانب الشر وأسوأ ما فى البشرية من عواطف هابطة ترد الإنسان إلى أيام الغاب قد غابت عنهم عقولهم ، ففكرة أواقى الذهب المخبوءة فى دار صهيب قد ذهبت بألبابهم ، وأن ليس بينهم وبين الثراء إلا أن ينبشوا الأرض بأظفارهم

قد أسالت لعاب الجشع وأسدلت على بصائرهم أحجبة فلم يعودوا يخضعون لمنطق أو ضمير أو حق .

ووقف صهيب ينظر إلى فتيان قريش وهم يولون الأدبار يتدافعون فى جنون إلى كنز الأرض ، وقد رآهم بعين خياله يتقاتلون على متاع الغرور ، ولو هداهم الله لعرفوا أن خزائن السماء لا تنفد وأنها خير وأبقى .

كان صهيب قد اهتدى إلى لب الحقيقة فلم يعد يطمع فى مال ولا سلطان ولا جاه ، إنه ذاق حلاوة الأنس بالله والفكر فى جلال الله وعظمته وملكوت أرضه وسمائه ، فصار ذلك ألذ عنده من كل نعيم . إنه من المشتاقين ، لم يكن له قرار ، كان لا ينام بالليل ولا بالنهار ، إذا ذكر النار طار نومه ، وإذا ذكر الجنة هدأ قلبه ، وإذا ذكر الله طال شوقه .

ولما كان رسول الله — ﷺ — هو باعث كل اللذات الروحية فى نفوس من أشرقت قلوبهم بالإيمان ، فإن صهيبا قد لوى عنق راحلته ليلحق بحبيبه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ليكون بالقرب من منهل الخير والسعادة الأبدية ومكارم الأخلاق .

وبلغ ضمرة بن جندب خروجه — ﷺ — وكان مريضا ، فقال :

— لا عذر لى فى مقامى بمكة .

فأمر أهله فخرجوا به وهو يلتقط نفسه فى جهد وراح ينوء من الإعياء ، وغدا أهله يلتمسون منه أن يعود حتى يبرأ ولكنه أبى إلا أن يلحق بمنبع النور . فلما وصل إلى التنعيم كان يلفظ آخر أنفاسه ، إنه يموت راضيا مطمئنا وإن كان يتمنى أن يتم هجرته قبل أن يجود بروحه ، لتنطلق إلى عليين حيث أرواح الأبرار .

ومات ضمرة بن جندب فى التنعيم ، مات بمكة وإن كانت روحه تهفو إلى مهاجر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ومن

يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما ﴾(١) .

١٠

انطلق رسول الله — ﷺ — على ناقته القصواء ومعه الدليل وأبو بكر الصديق وقد أردف عامر بن فهيرة ، حتى إذا ما بلغوا الجحفة اشتاق رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إلى مكة ، فأنزل الله عليه : ﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾(٢) فانشرح صدره عليه السلام ، وغدا يشتد مع رفقائه وقد نزلت السكينة عليـه ، فإن كان الكافرون قد أخرجوه من أحب الأرض إليه فربه قد وعده بأن يرده إلى مكة مهوى الفؤاد .

وأرسلت قريش لأهل السواحل : إن من قتل أو أسر أبا بكر أو محمدا كان له مائة ناقة ، وأقبل رجل من قريش على مجالس بنى مدلج بقديد وراح يدور عليهم يخبرهم بما جعلت فيه قريش مائة ناقة لمن يردهم عليهم .

فبينا سراقة بن مالك جالس فى نادى قومه ، أقبل رجل منهم حتى وقف عليهم فقال :

— والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا على آنفا ، إنى لأراهم محمدا

---

(١) النساء ١٠٠ .

(٢) القصص ٨٥ ، وأهل الرجعة يقولون إن الله سبحانه وتعالى سيرده عليه السلام إلى الدنيا وهذا من زعم عبد الله بن سبأ ، كان يهوديا أظهر الإسلام ، وكان قصده بوار الإسلام .

وأصحابه .

فأومأ إليه سراقة بعينه أن اسكت ، ثم قال :

— إنما هم بنو فلان انطلقوا بأعيننا يطلبون ضالة لهم .

ثم لبث فى المجلس ساعة ، ثم قام إلى منزله فأمر جاريته أن تخرج فرسه خفية إلى بطن الوادى وتحبسها عليه ، وأخذ رمحه وخرج به من ظهر البيت قد خفض عاليه وجعل أسفله فى الأرض لئلا يراه أحد ، ليفوز وحده بالجعل كله لا يشركه فيه أحد من قومه إذا ما عاونه على أسرهما أو قتلهما .

وأراد أن يرى رأى إلهه فيما هو مقدم عليه ، فأخرج قداحه التى يستقسم بها فاستقسم بها فخرج السهم الذى يكرهه « لا يضره » فلم يأبه لذلك وانطلق يسابق الريح فهو يرجو أن يرده على قريش فيأخذ المائة ، فبينا فرسه يشتد به عثر فسقط عنه ، فقال فى نفسه :

— من هذا ؟

ثم أخرج قداحه فاستقسم بها فخرج السهم الذى يكرهه « لا يضره » فأبى إلا أن يتبعه فركب فى إثره ، فلما بدا له القوم ورآهم عثر به فرسه ، فذهبت يداه فى الأرض وسقط عنه ، ثم انتزع يده من الأرض وتبعهما دخان كالإعصار ، فعرف حين رأى ذلك أنه قد منع فناداهم بالأمان :

— أنظرونى ، لا أوذيكم ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه .

فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام لأبى بكر :

— قل له ماذا تبغى ؟

— أنا سراقة بن مالك ، أنظرونى أكلمكم ، أنا لكم نافع غير ضار .

وتقدم إلى حيث وقف القوم ، فالتفت إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وقال :

— إن قومك جعلوا فيك الدية لمن قتلك أو أسرك .

وعرض عليهما الزاد والمتاع فلم يقبلا ، وقال عليه السلام :
— أخف عنا .

وراح سراقة يتفرس فى وجه رسول الله عليه السلام فيحس كأنما آفاق المستقبل قد تفتحت أمام عين بصيرته ، ووقع فى نفسه أن سيظهر أمر رسول الله — صلوات الله عليه وسلامه — فقال :

— يا محمد إنى لأعلم أنه سيظهر أمرك فى العالم وتملك رقاب الناس ، فعاهدنى أنى إذا أتيتك يوم ملكك فأكرمنى .

فأمر عليه السلام أبا بكر أن يكتب له فكتب له فى قطعة من عظم كتابا ثم ألقاه إليه ، ولما أراد الانصراف قال له عليه السلام :

— كيف بك يا سراقة إذا تسورت بسوارى كسرى ؟

فقال سراقة فى دهش :

— كسرى بن هرمز ؟

— نعم .

كان هاربا من قومه ليس معه إلا الصديق ومولاه والدليل ، وقد جعل أعداؤه جائزة مائة من الإبل لمن يأسره أو يعود إليهم برأسه ، ومع ذلك يتحدث عن المستقبل فى ثقة ، ويعد سراقة بأن يلبس سوارى كسرى شاهنشاه الفرس الذى أذل هرقل إمبراطور الروم ، وقد صدق وعد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فإن عمر بن الخطاب لما جىء له زمن خلافته بسوارى كسرى وتاجه ومنطقته ، دعا سراقة وقال :

— ارفع يديك .

وألبسه السوارين وقال له :

— قل الحمد لله الذى سلبهما كسرى بن هرمز .

وأرسلت قريش سرية فى طلبه يقول قائلهم :

ـــ اطلبوه قبل أن يستعين عليكم بكلبان العرب .

فاشتدت على الطريق حتى لقيت سراقة ، فسألته عن الرسول عليه السلام فقال :

ـــ قد عرفتم بصرى بالطريق ، وقد سرت فلم أر شيئا فارجعوا .

وأبوا أن يطيعوه فاندفعوا فى إثر ركب الذى ألقت هجرته الفزع فى قلوب الكافرين ، فلو لحق بأتباعه وأنصاره فى يثرب فذلك بداية رجحان كفته على كفة أعدائه وشانئيه وبزوغ فجر جديد .

وسار رسول الله وأبو بكر الصديق ومن معهما على طريق السواحل ، وكان الناس يعرفون أبا بكر فهو تاجر يمر عليهم فى غدوه ورواحه فكانوا يسألونه وهم ينظرون إليه عليه السلام :

ـــ من هذا الذى معك ؟

ـــ هذا الرجل يهدينى الطريق .

كان النبى صلوات الله وسلامه عليه قد قال لأبى بكر : « أله الناس عنى » . فهو يريد أن يتكفل عنه بالجواب ويشغل الناس عنه فإنه لا ينبغى لنبى أن يكذب ، وما كان الصديق يحب أن يكذب فكان يقصد بقوله إن الرسول الأمين يهديه طريق الخير والرشاد ، وقد أصاب بحق كبد الحقيقة والصواب .

وساروا ليلتهم كلها حتى قام قائم الظهيرة وخلا الطريق فلا يرى فيه أحد ، ولمحوا صخرة طويلة لها ظل فنزلوا عندها فأتى أبو بكر الصخرة وسوى بيده مكانا ينام فيه رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ فى ظلها ، ثم بسط له فروة معه وقال :

ـــ يا رسول الله نم وأنا أتجسس وأتعرف من تخافه .

ونام ـــ ﷺ ، وإذا براع يقبل بغنمه إلى الصخرة يريد منها الظل ،

فلقيه أبو بكر فقال له :

ـــ هل فى غنمك من لبن ؟

ـــ نعم .

ـــ أفتحلب لى ؟

ـــ نعم .

فأخذ شاة فحلب لأبى بكر فى قعب معه ، فأتى النبى ـــ ﷺ ـــ وكره أن يوقظه من نومه ، فوقف حتى استيقظ ، فصب أبو بكر على اللبن من الماء حتى برد أسفله فقال :

ـــ يا رسول الله اشرب من هذا اللبن .

فشرب ثم قال :

ـــ ألم يأن للرحيل ؟

ـــ قد كان الرحيل يا رسول الله .

فارتحلوا بعد ما زالت الشمس ، وأغذوا السير حتى رأوا بيتا فى فنائه امرأة برزة جلدة نزل أحدهم يسألها أن ينزلوا عندها فرحبت بهم ، فسألها عن اسمها فقالت :

ـــ أم معبد .

ونزلوا عندها وسألوها لحما وتمرا يشترونه ؛ فقالت فى بساطة :

ـــ والله لو كان عندنا شىء ما أعوزناكم القرى .

فقال رسول الله ﷺ :

ـــ يا أم معبد هل عندك من لبن ؟

فأمرت ابنها معبد أن يأتيه بشاة ، فمسح عليه السلام ضرعها بيده ودعا الله وحلب فى العس حتى أرغى وقال :

ـــ اشربى يا أم معبد .

— اشرب . اشرب ، فأنت أحق به .

فرده عليها فشربت ، ثم دعا بحائل أخرى فمسح ضرعها بيده وحلب في العس فشربه ، ثم سقا أصحابه ، وبقي عند أم معبد فترة أحست فيها جلال الرسول عليه الصلاة والسلام وعظمته . ووقع في قلبها حب صاحب تلك الشخصية الفذة التي تأخذ بمجامع القلوب .

وانصرف — عليه صلوات الله وسلامه — وركب ناقته القصواء ، وركب أبو بكر وعامر بن فهيرة والدليل رواحلهم وانطلقوا إلى يثرب ، وترجيع نبوءة أشعيا يدوى في الكون مخاطبا مدينة الرسول المتلهفة على مقدمه : « قومي استنيرى لأنه قد جاء نورك ومجد الرب أشرق عليك . لأنه ها هي الظلمة تغطى الأرض والظلام الدامس الأمم . أما عليك فيشرق الرب ومجده عليك يرى ، فتسير الأمم في نورك والملوك في ضياء إشراقك :

ارفعي عينيك حواليك وانظرى قد اجتمعوا كلهم . جاءوا إليك . يأتي بنوك من بعيد وتحمل بناتك على الأيدى . حينئذ تنظرين وتنيرين ويخفق قلبك ويتسع لأنه تتحول إليك ثروة البحر ويأتي إليك غنى الأمم . تغطيك كثرة الجمال بُكْران مديان وعيفة كلها تأتى من شبا.. تحمل ذهبا ولبانا وتسبح بكل تسابيح الرب . كل غنم قيدار تجتمع إليك. كباش نبايوت تخدمك . تصعد مقبولة على مذبحى وأزين بيت جمالى » .

وكانت السرية التي أرسلتها قريش تطوى الأرض تحت أقدام الخيل بعد أن أبت أن تصغى إلى سراقة الذى حاول أن يردها ، فاستمرت تسابق الريح حتى بلغت دار أم معبد ، فنزل الرجال عن مطاياهم فانطلقوا إلى أم معبد ، والشر يقدح من أعينهم وسألوها عن الرسول عليه السلام ، فخافت عليه منهم فقالت :

— تسألونى عن أمر ما سمعت به قبل عامي هذا .

— إنك تعلمين أين ذهب .

— ما أدرى ما تقولون .

وأثقلوا عليها فى السؤال فقالت :

— لئن لم تنصرفوا عنى لأصرخن فى قومى عليكم .

كانوا يعلمون أنها فى عز من قومها وكانت دارها على طرف الحى لكأنما كانت حارسة الطريق ، فلو أنها أطلقت نداء لخفوا إليها فى أسلحتهم ولآذوهم قبل أن يسألوا ما الخبر . فآثروا أن ينقلبوا إلى أهلهم وقد أطرقوا الرءوس من أن يخوضوا قتالا قد تطاح فيه رءوسهم .

وجاء أبو معبد عند المساء من السوق فراحت تقص عليه ما كان فى نهارها ، فقالت :

— مر بنا رجل مبارك .

— صفيه لى .

— رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، متبلج (مشرق) الوجه ، فى أشفاره وطف ، وفى عينيه دعج ، وفى صوته صحل (بحة) ، لا تشنؤه من طول ولا تقتحمه من قصر ، لم تعبه ثجلة (عظم البطن) ، ولم تزر به صعلة (صغر الرأس) ، كأن عنقه إبريق فضة ، إذا نطق فعليه البهاء ، وإذا صمت فعليه الوقار ، له كلام كخرزات النظم ، زين أصحابه منظرا وأحسنهم وجها ، أصحاب يحفون به ، إذا أمر ابتدروا أمره ، وإذا نهى انتهوا عند نهيه .

— هذه والله صفة صاحب قريش ، ولو رأيته لا تبعته ولأجتهدن أن أفعل .

وبلغ بريدة بن الخصيب ما جعلت قريش لمن يأخذ النبى ﷺ . فطمع فى ذلك فخرج فى سبعين من أهل بيته حتى لحق بركب النبى صلوات الله عليه ، فبكى أبو بكر حزنا على رسول الله عليه السلام ، ودب اليأس فى

قلب عامر بن فهيرة ، وارتجف الدليل خوفا ، بينا بقى عليه السلام ثابت الجنان لم ترتجف بوادره ، وقال للرجل الذى تقدم إليه :

— من أنت ؟

— بريدة بن الخصيب .

فالتفت النبى عليه السلام وقال :

— يا أبا بكر برد أمرنا وصلح .

والتفت إلى الرجل وقال :

— ممن أنت ؟

— من أسلم من بنى سهم .

— سلمنا وخرج سهمك يا أبا بكر .

ثم قال بريدة للنبى عليه السلام :

— من أنت ؟

— أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

ونظر الرجال إليه فإذا هو أنضر الثلاثة منظرا وأحسنهم قدرا ، وراح رسول الله عليه السلام يتحدث فإذا به يسمو ويرتفع على جلسائه وقد علاه البهاء ، حلو المنطق ، فصل لا نزر ولا هذر ، كأن منطقه خرزات نظمن يتحدرن . وألقوا إليه السمع وهم مأخوذون بسحر بيانه وبالقرآن المجيد الذى يتلوه عليهم فتتفتح له أفئدتهم وتشرق صدورهم باليقين . وما انتهى من عرض الإسلام عليهم حتى نطقوا بشهادة الحق ، وصلوا خلفه العشاء الآخرة .

وتأهب عليه السلام وصحبه لاستئناف الرحلة إلى يثرب ، فقال بريدة :

— يا رسول الله لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء .

فحل بريدة عمامته ثم شدها فى رمح ثم مشى بين يديه وصدى نبوءة أشعيا يتردد فى جوف الزمن :

« وحى من جهة بلاد العرب . فى الوعر فى بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين . هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء . وافوا الهارب بخبزه ، فإنهم من أمام السيوف قد هربوا . من أمام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب » .

﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾[١] .

١١

سمع المسلمون بالمدينة بخروج رسول الله — ﷺ — من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة ينتظرونه ، حتى إذا ما اشتدت حرارة الشمس عادوا إلى دورهم وهم يعجبون فى قلق لتأخره عليه السلام فى الإقبال عليهم ، فقد غاب عنهم أنه مكث فى الغار ثلاثة أيام حتى يهدأ الطلب .

وكان رسول الله عليه صلوات الله وسلامه وأبو بكر الصديق وعامر بن فهيرة والدليل يتقدمون وقد حف بهم بريدة وقومه مستبشرين بأن هداهم الله إلى النور ، وعلى مدى البصر لاحت قافلة قادمة ، لم تكن قافلة من قوافل قريش بل ركبا من المسلمين كانوا تجارا قافلين من الشام ، وراحت المسافة بين الركبين تطوى وإذا بالزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله يريان رسول الله عليه الصلاة والسلام وأبا بكر الصديق ، فيخفق قلباهما سرورا

---

(١) النحل ٤١ .

ويتهللان بالفرح ويسرعان على جناح الشوق إلى الحبيبين الغاليين والدموع تترقرق فى العيون ، والصدور تفيض بمشاعر اللهفة والرضا والسعادة والشكر لله رب العالمين .

ونزلوا فى ظل نخلة يتحادثون وقد طاف بهم انفعال شديد ، وبعثوا إلى أبى إمامة وأصحابه من الأنصار أن رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — بظهر الحرة ، فإذا بأصوات الفرح تدوى فى جنبات يثرب وإذا بأكثر من خمسمائة من الرجال يثورون إلى سلاحهم وينطلقون ليكون لهم شرف استقبال الهدى والنور .

وكسا الزبير بن العوام الرسول عليه السلام وأبا بكر ثيابا بيضا ، وطفق طلحة بن عبيد الله يرنو إلى الرسول عليه السلام ويعيره سمعه فيستشعر كأن تيار الحياة المتدفق فيه يترقرق بالعلم والحكمة ، ويعرج فى إشراق إلى ملكوت السماء .

كان الليل قد ألقى ظلاله على الكون ، وكان القمر يطل على الأرض وقد أوشك أن يكون بدرا ، فقد كانت الليلة الثانية عشرة من شهر ربيع الأول ، وبعث أشعته الفضية الهادئة اللطيفة تغمر الصحراء كأنما كان ذلك إيذانا بانحسار الظلمات أمام فيض أنوار الله ورحمته .

ومن ناحية يثرب جاء الأنصار على مطاياهم تدق قلوبهم دقات حماس وأمل واستبشار ، ثم اندفعوا إلى رسول الله عليه السلام يرحبون بـه ويسعدون بما ينطق به وما يتحدر من فمه من در وما يتلو عليهم من آى الذكر الحكيم . وانقضى الليل والقلوب مطمئنة والنفوس مشرقة ، حتى إذا ما وافى الفجر قام عليه السلام يصلى فى معبد الله الواسع الفسيح وقد اصطف خلفه لأول مرة المهاجرون والأنصار ، وقد ألف الله بين قلوبهم وأرشدهم إلى الطريق .

وأشرقت الشمس وتأهب محمد رسول الله والذين معه لدخول يثرب فى رائعة النهار ، ثم انطلقوا فى رعاية الله وقد مشى بريدة بين يديه عليه السلام يحمل اللواء . إنه دخول كريم لرسول كريم . واستشعر أبو بكر رقة فبللت الدموع روحه وإن لم تطفر من مقلتيه ، وخر بكل وجوده ساجدا لله شكرا وإن لم يفعل أكثر من الإطراق برأسه ، فقد وصلت الحقيقة إلى فؤاده وانكشف باب الفوز الأكبر .

وصعد رجل من اليهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه ، فبصر برسول الله — ﷺ — وأصحابه مبيضين يرفعهم السراب فى الحر فيبدون لعينيه فى وضوح ، فلم يملك أن قال بأعلى صوته :

— يا معشر العرب هذا جدكم (حظكم) الذى تنتظرون .

فماج الناس فى فرح واشتد وجيب القلوب وانتشرت البشرى فى الدور وفى الأسواق وفى الحقول ، فإذا بالرجال يعدون إلى ثنية الوداع لاستقبال نبيهم صلوات الله وسلامه عليه ، وإذا بالنساء يصعدن إلى الأسطح ليرين الهادى العظيم الذى يوحى الله إليه ما فيه عز الدنيا والآخرة والسعادة فى الدارين .

وكان الأنصار فى غمرة الفرح أن هداهم الله إلى الإيمان بالنبى الأمى الذى كان اليهود يتوعدونهم به وإن كانوا أسرع منهم إليه ، فبه سيعز جانبهم ويشتد ساعدهم ويصبحون بنعمة الله إخوانا بعد السنين التى انقضت هباء فى عداوات لا طائل تحتها قد أثارتها عصبية الجاهلية .

وبلغ ركب الرسول مشارف المدينة فإذا بالرجال قد ارتفعوا على النخيل ينظرون ، وإذا بطلائع القوم يهرولون مهللين مرحبين بالنبى عليه الصلاة والسلام وقد نسوا فى غمرة السرور حرارة الشمس التى كانت تلسع الأقدام وتشوى الوجوه ، وإذا بالعبرات تلطف حرارة المشاعر

المتأججة بين الضلوع . وراح الركب الكريم يتهادى بين الأنصار فى أمن والكون يردد ما قاله الأنصار للنبى عليه السلام والصديق قبل أن يركبا إلى مدينة الرسول : « اركبا آمنين مطاعين » . وبلغ الركب ثنية الوداع فإذا بهتافات الترحيب تتعالى من كل مكان . وتقدم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه على ناقته القصواء متواضعا لله يحمل أعظم رسالة حملها إنسان .

البشر فى الوجوه والعبرات فى العيون والفرح فى القلوب . قد أضاء من المدينة كل شيء فقد أشرق عليها النور ، وصعدت ذوات الخدور على الأسطحة يشتركن مع المرحبين بمقدمه الكريم ، فجعل النساء والصبيان والولائد يقلن :

طلـــع البـــدر علينـــا ... مـــن ثنيـــات الـــوداع
وجب الشكـــر علينـــا ... مـــا دعـــا لله داع
أيها المبعـــوث فينـــا ... جـــئت بالأمـــر المطـــاع

وغدا الناس يتفرسون فى القادمين اللذين يحيطهما سادات الأنصار بالتبجيل والإكرام ، فما يدرون من منهما رسولهم العظيم ، كان أبو بكر أصغر سنا من رسول الله — صلوات الله عليه وسلامه — بيد أن شيبه كان ظاهرا ، فى حين كان النبى ﷺ يبدو شابا شعر لحيته أسود ، فكانوا يحسبون أن أبا بكر هو البشير والنذير والمصطفى .

وجلس رسول الله — ﷺ — فقام أبو بكر للناس ، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله — ﷺ — يجيء أبا بكر فيعرفه بالنبى — ﷺ ، حتى أصابت الشمس رسول الله — ﷺ — فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه فعرفه الناس .

والتجت دار بنى عمرو بن عوف بالناس ، وغصت قباء بالوافدين من

أطراف المدينة ليحيوا من يكلم من السماء ، وهرع المهاجرون فرحين مستبشرين إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، جاء عمه حمزة ليضمه إلى صدره فى حب عظيم ، وجاء عمر بن الخطاب وسعيد بن عمرو وأبو سلمة وعامر بن ربيعة وعبد الله بن جحش وزيد بن الخطاب وخنيس ابن حذافة ليسلموا عليه ، وقد فاضت صدورهم بأنبل العواطف وأرق الإحساسات .

وذاع خبر نزول محمد ــ ﷺ ــ بقباء بين اليهود فراحوا يهرعون إلى يهود بنى النضير وبنى قريظة وبنى قينقاع بالنبأ العظيم ، وجاء إلى اليهودى الذى اشترى سلمان الفارسى من وادى القرى ابن عم له حتى وقف عليه فقال :

ــ قاتل الله بنى قيلة ، والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبى .

كان سلمان على رأس نخلة لسيده وسيده جالس تحته ، فلما سمع قول ابن عمه إذا به يرتعد وينتفض من الرأس إلى القدم حتى ظن أنه سيسقط على سيده ، فنزل عن النخلة وقد خفق قلبه فى خوف وأمل واستبشار ، ثم ذهب إلى ابن عم سيده وقد غاب عن كل شىء إلا التيقن مما سمع ، فجعل يقول للرجل :

ــ ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟

فغضب سيده فلكمه لكمة شديدة ثم قال :

ــ ما لك ولهذا ؟ أقبل على عملك .

ــ لا شىء ، إنما أردت أن أستثبته عما قال .

وغدا سلمان يفكر فى أمره مذ كان فى أصبهان واتفاقه مع النصارى على الهرب ، ونزوله بالشام ، وما كان بينه وبين الأسقف فى الموصل ، ورحيله

إلى نصيبين ، ثم ذهابه إلى عمورية للبحث عن الحقيقة ، ومعرفته أن النبى المنتظر سيبعث فى بلاد العرب ، ولهفته على الرحيل إلى حيث يبعث من سيخرجه من ظلمات نفسه إلى نور اليقين ، وكيف خرج مع تجار من كلب حتى إذا ما بلغوا وادى القرى ظلموه وباعوه عبدا ، ثم اشتراه سيده اليهودى ليحمله إلى المدينة . لقد بدأت حكمة ربه تتكشف لعين بصيرته ، فإن كان ذاك الذى بقباء هو رسول الله حقا ، فقد انتهت رحلة الآلام والمعاناة وبدأ انتصار الروح .

كان يعيش على أمل واحد ليس له هدف فى الحياة غيره : أن يلقى رسول الله — ﷺ — وأن يؤمن به وأن يكون من تابعيه المخلصين الذين يبذلون أرواحهم رخيصة لرفع راية الإيمان . وإنه من طول البحث عنه والتفكير فيه كاد أن يعرفه بقلبه ، إنه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة مصداقا لما جاء عنه فى النبوءات : « وأثر سلطانه على كتفيه » .

كان عنده شيء قد جمعه ، فلما أمسى أخذه ثم ذهب به إلى قباء وهو قلق فى استبشار خائف فى أمل غائب عن نفسه ، وقد سما بابتهالاته ليقرع أبواب الملكوت ويدعو الله أن يهديه إلى الحق الذى أنفق زهرة عمره فى البحث عنه .

ودخل على رسول الله — ﷺ — ومعه المهاجرون يحفون به ، فجعل يتفرس فيه فإذا بقلبه يخفق وإذا بنفسه تهفو إليه ، ولكنه راح يجاهد ليكبح عواطفه ، فهو لا يريد أن يضحى بالسنين الطويلة التى مرت فى ترقب وانتظار استجابة لعاطفة طارئة ، فقد عقد العزم على ألا يعلن على الملأ تصديقه إلا بعد أن يثبت له بلا أدنى ظل من شك أن محمد بن عبد الله هو النبى الذى بشرت به الأنبياء .

ودنا من الرسول عليه السلام وقد راودته فكرة أن يكشف عن ظهر الرسول عليه السلام ليرى خاتم النبوة ، ولكنه آثر أن يتريث فقال له :

ــ إنه قد بلغنى أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة ، وهذا شيء قد كان عندي للصدقة فرأيتكم أحق به من غيركم .

فقربه إليه فقال رسول الله ــ ﷺ ــ لأصحابه :

ــ كلوا .

وأمسك يده فلم يأكل ، فقال سلمان فى نفسه :

ــ هذه واحدة .

وجلس سلمان يصغى إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو يتحدث ، وكذلك فعل كلثوم بن الهدم صاحب الدار التى نزل فيها عليه السلام . وكان كلثوم شيخ بنى عمرو بن عوف . ولم يكن قد أسلم بل بقى على دين قومه من الأوس وقد انشرح صدره لما رأى محمدا عليه السلام ، وزاد إعجابه به لما سمع حسن منطقه ، وإنه وهو فى مجلسه يلقى سمعه إلى حديث الرسول وإلى ما يتلو من القرآن يستشعر أنه يتعرض لنفحات رحمة مبذولة وأنه يسمو فوق المحسوسات ، وأنه على الرغم من كبر سنه وما مر به من تجارب يحصل على شرف المعلومات ، وأن سعادة روحية تغمره ، وأنه قد اقترب قربا حقيقيا من الله الذى يدعو إليه محمد بن عبد الله .

إن كلامه عليه السلام قد زكى قلبه من الخبث وطهره من الشرك وأشعل سراج عقله وفتح نوافذ ذاته لأسرار الله ، فإذا بالإخلاص ينزل بسويداء قلبه ، وإذا بالشيخ المسن لا يستطيع أن يكتم ما أضاء زيته الذى فى مشكاة قلبه فقال فى إيمان عميق :

ــ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

وكبر الموجودون من المهاجرين والأنصار ، وفى مثل البرق انتشر خبر إسلام شيخ بنى عمرو بن عوف فى قباء فجاء المسلمون من الأوس والخزرج فرحين مهنئين. . بأن هدى الله الشيخ الجليل إلى الإيمان وهداه الصراط المستقيم .

وكان سلمان يرى ما يجرى أمامه وهو فى قمة الانفعال . إنه سمع قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فأحس أن جوانحه كلها قد غمرت بالضياء ، وأن نورا على نور انسكب فى وجدانه ، وأن صدره قد انشرح للإيمان . وهم بأن يعلن على الملأ إسلامه وأن ينطق بشهادة الحق ولكنه راح يجاهد لكيلا يضعف ويستجيب لدواعى عواطفه ، فآثر أن يفر وأن يتريث حتى يصدق عقله كما صدقت مشاعره ، فانسل من الدار وانصرف وإن كان رسول الله — ﷺ — قد استحوذ عليه واستولى على عواطفه ولبه وضميره .

١٢

كان الناس يعلمون من أمانة محمد عليه السلام ما جعلهم يضعون عنده ما يخشون عليه ، فقبل أن يهاجر عليه السلام أعلم عليا بخروجه إلى الهجرة وأمره أن يتخلف بعده حتى يؤدى عنه الودائع ، فغدا على يرد الأمانات على أصحابها ويسترق السمع فيثلج صدره أن الرسول عليه السلام قد نزل بقباء ، وأن قريشا تكاد أن تتمزق غيظا لإفلاته عليه السلام من أيديهم .

وكان الحوار فى نوادى قريش يدور بين الناس حول هجرة ابن عبد الله وعما ناله من منعة وعزة بأنصاره من الأوس والخزرج ، وعما يهدد تجارتهم الرائحة الغادية إلى الشام إذا ما أصبح أمر يثرب بيد ابن أبى كبشة ،

الذى لم يكتف بسب الآلهة وتسفيه الأحلام بل إنه استقر فى المدينة ليوسع شقة الخلاف بين أعظم قريتين فى الحجاز . وكان على يرى ويسمع ما كانت قريش تعانى من قلق وخوف من المستقبل ، فكان ينعم بلـذة الانتصار ويتهلل بالفرح لأن نور الله قد انتشر فى يثرب ، وأنه عما قريب سيغمر العالمين .

وقام على بالأبطح ينادى :

— من كان له عند رسول الله — ﷺ — وديعة فليأت تؤدى إليه أمانته .

وصك صوت على آذان أبى جهل والنضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط وأمية بن خلف وعتبة وشيبة وأعداء محمد عليه السلام فاربدت وجوههم وانقبضت صدورهم ، فذلك الصوت الذى يدوى بين جنبات مكة إنما يعلن فيما يعلن هزيمتهم والسخرية منهم والهزء بهم .

إنهم طالما هزءوا برسول الله وسخروا منه واستخفوا به ، ولكن صوت على الذى ينم عن الفرحة كان أقسى من كل ما اتخذوه هزوا ؛ إنه يؤكد للجميع أن الرجل الذى رموه بالسحر والكذب والجنون لا يزال ذلك الرجل الأمين العفيف الكريم الذى عرفوه قبل البعثة وقد أبت عليه أمانته أن يفر بودائعهم ، ولم يفعل لا هو ولا أتباعه ما فعله اليهود يوم أن أمرهم موسى عليه السلام بالتأهب للخروج من مصر ، فقد اقترضوا حلى المصريين وفروا بها هاربين جزاء على ما نالهم من اضطهاد وتعذيب . أما محمد رسول الله عليه السلام وصحبه فقد ردوا الأمانات إلى أصحابها وتركوا المال والبنين والدور ليفروا بدينهم إلى الله ، تاركين فلذات الأكباد فى رعاية الرحمن الرحيم .

ماذا لو قاموا لابن أبى طالب وكتموا أنفاسه واستراحوا من هذا العناء

الذى ينزل بهم كلما مر على مجالسهم وقال :

ـــ من كان له عند رسول الله ﷺ وديعة فليأت، نرد عليه أمانته .

أولو قتلوا الشاب الهاشمى الغض الذى لم يبلغ بعد السادسة عشرة من عمره أكانوا يستريحون حقا أم كانوا يتعجلون الشر ؟ فالعباس بن عبد المطلب سيطالب بدم ابن أخيه ، وقد يتحرك محمد عليه السلام من يثرب ليقطع عليهم الطريق ويثخن فى الأرض أخذا يثأر ابن عمه الذى نام ليلة هجرته فى فراشه ، فآثروا أن يتحملوا ذلك البلاء وأن يمضغوا غضبهم فى صبر وأن يغلقوا صدورهم على ما فيها من حقد دفين .

ورد على الأمانات التى كانت عند الرسول عليه السلام ولم يطق الصبر على فراق محمد الحبيب ، فخرج يسير الليل ويكمن النهار حتى تفطرت قدماه ، ولاحت له أرباض يثرب فغدا يتحامل حتى دخل قباء ، وأغذ السير إلى دار كلثوم بن الهدم فعلم أن ابن عمه عليه السلام يتحدث مع أصحابه فى بيت سعد بن خيثمة لأنه كان عزبا ، فانطلق إلى هناك وهو يتفصد عرقا قد نال منه الإعياء وسالت الدماء من قدميه ، حتى إذا ما رأى رسول الله عليه الصلاة والسلام ارتمى فى أحضانه فاعتنقه عليه السلام وبكى رحمة لما بقدميه من الورم . وأراد النبى عليه السلام أن يبنى مسجدا بقباء ، وكان لكلثوم بن الهدم مربدا (محلا) يجفف فيه التمر . فلما علم برغبته صلوات الله وسلامه عليه قدم مربده ليكون أول مسجد أسس على التقوى ، فقال عليه السلام :

ـــ يأهل قباء ائتونى بأحجار من الحرة .

فجمعت عنده أحجار كثيرة ، فخط القبلة ثم بدأ فى البناء ، فكان يأخذ الحجر حتى يتعبه فيأتى الرجل من أصحابه فيقول :

ـــ يا رسول الله بأبى أنت وأمى تعطينى أكفك .

ويأخذ الرجل الحجر فيقول عليه السلام :

ـــ لآخذ مثله .

وراح المهاجرون والأنصار يعملون فى البناء ، أبو بكر وعمر وعلى وعمار بن ياسر وحمزة وبلال وأسيد بن حضير وبنو عوف من الأوس ومن جاء متطوعا من بني النجار ، حتى إذا بلغ منهم الجهد جلسوا يستريحون ، فبينا رسول الله ـــ ﷺ ـــ جالس ومعه أبو بكر وعمر إذ طلع عليهم صهيب بعد أن أعطى فتيان قريش أواقى من الذهب ليدعوه ينطلق إلى رسوله وحبيبه عليه السلام ، فلما رآه الرسول عليه السلام قال :

ـــ يا أبا يحيى ربح البيع ، ربح البيع ، ربح البيع .

فظهر الدهش فى وجه صهيب فما سبقه إلى رسول الله ﷺ أحد ليخبره بما كان بينه وبين قريش ، وقام إليه أبو بكر وعمر ورجال فقال له أبو بكر :

ـــ ربح بيعك أبا يحيى .

ـــ وبيعك . هلا تخبرنى ما ذاك ؟

ـــ أنزل الله فيك : ﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد ﴾(١) .

فارتجف صهيب من شدة الانفعال ، ونزل به خشوع وشكر لله أن أنزل فيه قرآنا . وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

ومضت الآيام وعزم رسول الله ـــ ﷺ ـــ على الخروج من قباء ، فترك عمار بن ياسر ليتم بناء المسجد ثم ركب القصواء ، فقالت بنو عمرو ابن عوف له وقد أخذوا بزمام ناقته :

---

(١) البقرة ٢٠٧ .

— يا رسول الله أخرجت ملالا لنا أم تريد دارا خيرا من دارنا ؟

— إنى أمرت بقرية تأكل القرى ، فخلوا سبيلها .

وسار وسار الناس معه ما بين ماش وراكب ، ولا زال أحدهم ينازع صاحبه زمام الناقة حرصا على كرامة رسول الله — ﷺ — وتعظيما له ، وصار الخدم والصبيان يقولون :

— الله أكبر ! جاء رسول الله — ﷺ — ، جاء محمد — ﷺ — .

ولقيته الحبشة ولعبت بحرابها فرحا برسول الله — ﷺ — ، وأدركته — ﷺ — صلاة الجمعة فى بنى سالم بن عوف فنزل ليصليها فى المسجد الذى فى بطن الوادى بمن معه من المسلمين ، وراح يخطب الناس فكان فيما قال :

— فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإنها تجزى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ثم ركب — ﷺ — راحلته بعد الجمعة متوجها للمدينة وقد أرخى زمامها ولم يحركها وهى تنظر يمينا وشمالا ، فسأله بنو سالم ، منهم عتبان ابن مالك ونوفل بن مالك وعبادة بن الصامت :

— يا رسول الله أقم عندنا فى العدد والعزة والمنعة والثروة .

— انزل فينا فإن فينا العدد والعدة والحلقة ، ونحن أهل الحدائق والدرك يا رسول الله . كان الرجل من العرب يدخل هذه البحيرة خائفا فيلجأ إلينا .

فقال لهم عليه السلام خيرا وقال :

— خلوا سبيلها فإنها مأمورة .

وابتسم لهم وقال :

— بارك الله فيكم .

وانطلقت القصواء حتى وردت بني بياضة ، فسأله زياد بن لبيد وفروة ابن عمرو أن ينزل فيهم وقد أخذوا بزمام الناقة ، فقال عليه السلام :

— دعوها فإنها مأمورة .

ووردت دار بنى ساعدة ومنهم سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو وأبو دجانة ، فسألوه أن ينزل فيهم فقال :

— خلوا سبيلها فإنها مأمورة .

فانطلقت حتى مرت بدار عدى بن النجار حيث مات أبوه ونزلت به أمه وهو صغير ، فأخذوا بزمام الناقة وقالوا :

— نحن أخوالك ، هلم إلى العدة والمنعة والعزة مع القرابة ، لا تجاوزنا إلى غيرنا يا رسول الله .

— لا تجاوزنا ليس أحد من قومنا أولى بك منا لقرابتنا .

— دعوها فإنها مأمورة .

فانطلقت حتى بركت فى محل من محلات بنى النجار عند دار بنى مالك ابن النجار وعند باب أبى أيوب الأنصارى ، فلم ينزل عنها — ﷺ — ، ثم وثبت وسارت غير بعيد ورسول الله — ﷺ — واضع لها زمامها ، ثم التفتت خلفها ورجعت إلى مبركها فبركت فيه وتجلجلت ووضعت باطن عنقها وصوتت من غير أن تفتح فاها . وجعل جبار بن صخر من بنى سلمة ينخسها رجاء أن تقوم فينزل عليه السلام فى دار بنى سلمة فلم تفعل .

فنزل عنها — ﷺ — وأخذه الذى كان يأخذه عند الوحى ، وسرعان ما سرى عنه فراح يتلو :

— ﴿ رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين ﴾[1] . رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين . رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين . رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين ، هذا إن شاء الله يكون المنزل .

بركت القصواء عند مربد لغلامين يتيمين من بنى النجار فى حجر معاذ ابن عفراء . وهما سهل وسهيل ابنا عمرو . بركت فى مكان الدار التى بناها تبع للنبى المنتظر يوم أن جاء إلى المدينة ليقتل أشرافها أخذا بثأر ابنه الذى اغتيل فيها غدرا ، ولم يمنعه من الانتقام إلا حبران من اليهود قالا له : إنها مهاجر نبى مرتقب عظيم الشأن من أرادها بسوء حاق به البوار ، فرق قلبه وبنى تلك الدار لتكون هدية من تبع إلى النبى الذى سيهاجر إليها من أمام السيف المسلول ومن أمام النفوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب ، بركت القصواء حيث كان ينبغي أن تبرك ، كانت مأمورة فأرشدت إلى المكان .

وقال أبو أيوب الأنصارى للرسول عليه السلام :

— إئذن لى أن أنقل رحلك .

فأذن له ، واحتمل أبو أيوب رحله فوضعه فى بيته ، وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته فكانت عنده . وراح الأنصار يتنافسون أيهم يؤوى رسول الله — ﷺ ، فقال :

— المرء مع رحله .

وخرجت حديرات من بنى النجار بالدفوف يقلن :

نحن جوار من بنى النجار   يا حبذا محمد من جار

---

(١) المؤمنون ٢٩ .

فخرج إليهن رسول الله — ﷺ — وقال :

— أتحبوننى ؟

— نعم يا رسول الله .

— وأنا والله أحبكم .

١٣

كان عبد الله بن أبى بن سلول من الخزرج ، وكان يلوم قومه أحيانا على ما ينشب بينهم وبين الأوس من عداوات فهو يحب أن يسود الوفاق بين الحيين لأنه يطمع فى أن يكون ملكا على المدينة .

واصطلح الأوس والخزرج على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة رمز تتويجه والخضوع له ، ولكن رسول الله — ﷺ — جاء إلى المدينة قبل أن ينصب ملكا فانفض الأنصار من حوله وأقبلوا على رسول الله عليه السلام فرحين مستبشرين سامعين طائعين ، فورم لذلك أنف ابن أبى بن سلول ، وامتلأ قلبه حنقا على الرجل الذى جاء ليحرمه من تحقيق حلمه الذى ظل يداعبه سنين .

وكان رسول الله — ﷺ — يعرف مكانة عبد الله بن أبى بن سلول فى قومه ، فعرج عليه وأراد النزول عليه لكيلا يتفاقم مرض قلبه ، ولكن عبد الله بن أبى لم يستطع أن يكتم حقيقة شعوره فقال لرسول الله عليه السلام فى غلظة :

— اذهب إلى الذين دعوك وانزل عليهم .

فقال سعد بن عبادة لرسول الله عليه السلام :

— يا رسول الله لا تجد فى نفسك من قوله ، فقد قدمت علينا والخزرج

تريد أن تملكه .

وعاد عليه السلام إلى دار أبى أيوب ، وما كاد يستقر حتى تذكر أهله الذين تركهم فى مكة أم كلثوم وفاطمة الزهراء وأم أيمن وأسامة بن زيد بن حارثة وسودة بنت زمعة . واستشعر شوقا إليهم فبعث زيد بن حارثة وأبا رافع وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم ليقدما إلى مكة ويعودا بالأحبة الذين يملئون حياته بأرق المشاعر وأنبل الإحساسات .

ولما نزل عليه السلام فى بيت أبى أيوب نزل فى السُّفل وأبو أيوب وأم أيوب فى العلو ، وقد رأى أبو أيوب فى ذلك حرجا فأتى النبى صلوات الله وسلامه عليه وقال :

— يا نبى الله بأبى أنت وأمى ، إنى أكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتى ، فاظهر أنت وكن فى العلو وننزل نحن ونكون فى السفل .

— يا أبا أيوب ، إن أرفق بنا ومن يغشانا أن نكون فى سفل البيت .

فظل أبو أيوب وامرأته فى العلو يمشيان على أطراف أصابعهما حتى لا يؤذيا نبى الله عليه السلام ، حتى انكسر حُب (جرة كبيرة) لهما فيه ماء ، فقاما بقطيفة لهما ما لهما لحاف غيرها ينشفان بها الماء تخوفا أن يقطر على رسول الله — ﷺ — فيؤذيه .

وكانا يصنعان له العشاء ثم يبعثان به إليه ، فإذا رد عليهما فضلة تيمم أبو أيوب وأم أيوب موضع يده فأكلا منه يبتغيان بذلك البركة ، حتى بعثا إليه بعشائه وقد جعلا له فيه بصلا ، فرده ولم ير أبو أيوب ليده فيه أثرا فجاءه فزعا فقال :

— يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك ؟

— فإنى وجدت فيه ريح هذه الشجرة وأنا رجل أناجى (أحدث غيرى) ، فأما أنتم فكلوه .

فأكلاه و لم يصنعا له طعاما فيه بصل أو ثوم .

كان أسعد بن زرارة قد بنى مسجدا فى مربد سهل وسهيل حيث بركت القصواء ، وكان يصلى فيه بالناس قبل أن يقدم رسول الله عليه السلام المدينة ، وكان المسجد جدارا مجدرا ليس عليه سقف وقبلته إلى بيت المقدس ؛ ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة صار يصلى فيه .

وكان المهاجرون قد تحولوا من قباء حيث نزل نبى الله عليه السلام ، وقد تنافس فيهم الأنصار أن ينزلوا عليهم حتى اقترعوا فيهم بالسهمان ، فما نزل أحد من المهاجرين على أحد من الأنصار إلا بقرعة بينهم ، فكان المهاجرون فى دور الأنصار وأموالهم . وضاق المسجد بهم فرأى رسول الله صلوات الله عليه وسلامه أن يبنى مسجده ، فعرض أبو أيوب على الرسول عليه السلام ، أن يأخذ تلك الأرض ويغرم لليتيمين سهل وسهيل قيمتها ، فأبى رسول الله عليه السلام .

ودعا الغلامين فساومهما بالمربد فقالا :

— نهبه لك يا رسول الله .

فأبى أن يقبله منهما هبة ، وأرسل إلى ملأ من بنى النجار فجاء أسعد ومعاذ وأبو أيوب ومعهم سهل وسهيل ، فجاءوه — ﷺ ، فقال لهم :

— ثامنونى بحائطكم هذا .

— لا يا رسول الله ، والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله .

فأبى أن يأخذه إلا بالثمن ، وابتاع الأرض بعشرة دنانير أداها من مال أبى بكر .

وكان فى موضع المسجد نخل وحفر ومقابر للمشركين ، فأمر بالنخل أن يقطع وبالحفر فسويت وبالقبور فنبشت وأمر بالعظام أن تغيب . وكان بالمربد ماء ينشع ويظهر من الأرض فسيروه حتى ذهب ، ثم أمر باتخاذ اللبن

فراح المهاجرون والأنصار يضربون الطوب .

وأسس رسول الله عليه السلام المسجد وأسسوا معه ، فجعلوا طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع وفي جانبيه مثل ذلك فهو مربع ، وجعلوا الأساس قريبا من ثلاثة أذرع على الأرض بالحجارة ، ثم بنوه باللِّبن .

وجعل رسول الله عليه السلام ينقل الحجارة معهم بنفسه ويقول :

— اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ، فاغفر للأنصار والمهاجرين ، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار .

وقال قائل من المسلمين يرتجز :

لئن قعدنا والنبي يعمل — لذاك منا العمل المضلل

ودخل عمار بن ياسر وقد أثقلوه باللِّبن فقال :

— يا رسول الله قتلوني ، يحملون على ما لا يحملون .

فمسح رسول الله عليه السلام شعر رأس عمار بيده وكان جعدا وقال :

— ويح ابن سمية ، ليسوا بالذين يقتلونك إنما تقتلك الفئة الباغية(١) .

وجعلت سواري المسجد من جذوع النخل ، وارتفاع جدره قدر قامة . وقال رسول الله عليه السلام لأصحابه :

— ابنوا لي عريشا كعريش موسى ، ثمامات وخشبات وظلة كظلة موسى ، والأمر أعجل من ذلك .

— وما ظلة موسى ؟

— كان إذا رفع يده بلغ العرش (السقف) .

واستمر نبي الله عليه السلام ينقل اللبن في ردائه وهو يقول :

---

(١) قتل عمار بن ياسر وهو يقاتل مع علي كرم الله وجهه جيوش معاوية .

لا هم إن الأجر أجر الآخرة   فارحم الأنصار والمهاجرة
وعافهم من حر نار ساعرة   فإنها لكافر وكافرة

وزخر صدره الشريف بالشكر لله فصار يقول :

هذا الجمال لا جمال خيبر   هذا أبر ربنا وأطهر

وأين ما حمل من خيبر من تمر وزبيب من اللبن الطاهر الذى يبنى به مسجد يذكر فيه اسم الله ويسبح فيه بحمده ويقدس له ؟

وكان عثمان بن مظعون رجلا مترفا ، فكان إذا حمل اللبنة يجافى بها عن ثوبه لئلا يصيبه التراب ، فإن أصابه شيء من التراب نفضه . فنظر إليه على ابن أبى طالب وأنشد يقول مداعبا عثمان بن مظعون :

لا يستوى من يعمر المساجدا   يدأب فيها قائما وقاعدا
ومن يرى عن التراب حائدا

وجعلت قبلة المسجد إلى بيت المقدس وجعل له ثلاثة أبواب : باب فى مؤخره وباب الرحمة وباب كان يدخل منه رسول الله ﷺ ويقال له باب عثمان ، لأنه كان يلى دار عثمان بن عفان .

وأقبلت فاطمة الزهراء ومن خرج معها ، وفيهم عبد الله بن أبى بكر ومعه عيال أبى بكر وزوجته أم رومان وعائشة وأختها أسماء زوج الزبير بن العوام ، وكانت عائشة وأمها على بعير فى محفة ، وكانت أسماء حاملا بابنها عبد الله بن الزبير ، فلما أشرفوا على المسلمين خف رسول الله عليه صلوات الله وسلامه إلى أهل بيته يستقبلهم باشا ويغمرهم بحبه وحنانه . وأنزل أبو بكر عياله بالسنح وهو سعيد أن جمع الله شملهم ، وبات يرقب أسماء فقد أتمت شهور حملها .

وولدت أسماء ولدها ثم وضعته فى حجر رسول الله — ﷺ . فدعا بتمرة فمضغها ثم حنكه بتلك التمرة ثم دعا له وبرّك عليه والزبير بن العوام

ينظر وقد غمرته السعادة ، فابنه عبد الله كان أول مولود للمهاجرين ولد فى يثرب ، وقد فرح به المسلمون فرحا شديدا .

وكان عبد الله بن جعفر بن أبى طالب أول مولود ولد للمسلمين فى الحبشة ، واتفق أن النجاشي ولد له مولود يوم ولد عبد الله هذا فأرسل إلى جعفر يقول له :

— كيف سميت ابنك ؟

— سميته عبد الله .

فسمي النجاشي ابنه عبد الله وأرضعته أسماء بنت عميس مع ابنها عبد الله فكانا أخوين فى الرضاع ، وقد استمرت المراسلات بينهما لما شبا عن الطوق بتلك الأخوة من الرضاع .

وكانت أم رومان أم عائشة بنت أبى بكر وعبد الرحمن ، وكانت أم أسماء بنت أبى بكر لا تزال على دين قومها ، فجاءت إلى المدينة لتزور ابنتها وهى تحمل هدية فأبت أسماء أن تلقاها وردت عليها هديتها . وبلغ ذلك رسول الله — ﷺ — فأمر أسماء أن تؤوى أمها وتقبل هديتها .

وجعل فى المسجد محلا مظللا يأوى إليه المساكين يسمى الصفة ، فسمي أهله أهل الصفة ، وكان — ﷺ — فى وقت العشاء يفرقهم على أصحابه ويتعشى معه طائفة ، وكان يجالسهم ويأنس بهم .

واستتبت الحياة فى المدينة لرسول الله — ﷺ — وصحبه ، وكان عليه السلام يرجو أن يدخل الأوس والخزرج فى دين الله جميعا وأن يؤلف الله بين قلوبهم ليصبحوا بنعمة الله إخوانا ، حتى يتفرغ ليبلغ رسالات ربه للناس كافة دون أن يشغل بأعداء فى قلب المدينة التى اصطفاها الله لتكون مركز الإشعاع ومنبع النور . فما إن قيل له عليه السلام « يا رسول الله لو أتيت عبد الله بن أبى بن سلول ليكون ذلك سببا لإسلام من تخلف من

قومه » ، حتى انطلق عليه الصلاة والسلام راكبا حمارا ، وانطلق المسلمون يمشون معه . فلما أتاه النبي — ﷺ — قال له عبد الله :

— إليك عني ، والله لقد آذاني نتن حمارك .

فقال رجل من الأنصار :

— والله لحمار رسول الله — ﷺ — أطيب ريحا منك .

فغضب لعبد الله رجل من قومه فشتمه ، فغضب لكل واحد منهما أصحابه فكان بينهما ضرب بالجريد والأيدي والنعال ، فنزل : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾[١] .

١٤

قام رسول الله — ﷺ — يخطب يوم الجمعة في مسجده فإذا بالطبل يدوي في جنبات المدينة ، فمال بعض المصلين على بعض وقالوا :

— قدمت عير دحية الكلبي .

وخرج بعض المصلين للشراء من طعام تلك العير والتفرج عليها ، وخرجت بعض النساء من دورهن للتفرج على دحية الكلبي والنظر إلى وجهه لفرط جماله ، فقد كان إذا قدم يخرج أهله للقائه بالطبل واللهو فيخرج الناس مهطعين إلى العير التي اشتهرت باللهو والتجارة .

واستمر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في خطبته :

---

(١) الحجرات ٩

ــ كل ما هو آت قريب ، لا بعد لما هو آت ، لا يعجل الله لعجلة أحد ولا يخف لأمر من الناس ، يريد الناس أمرا ويريد الله أمرا ، فما شاء الله كان لا ما شاء الناس ، وما شاء الله كان ولو كره الناس ، لا مبعد لما قرب الله ، ولا مقرب لما بعد الله ، ولا يكون شيء إلا باذن الله .

ورجع بعض الذين انفضوا ليصلوا صلاة الجمعة خلف رسول الله ــ ﷺ ؛ كان الإسلام حديث عهد بالمدينة و لم تكن أركانه قد ثبتت بعد فى نفوس الناس ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون ❊ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ❊ وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليه وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين ﴾[1] . ليرشد الذين اصطفاهم لنصرة نبيه إلى السلوك القويم ، ويغرس فى نفوسهم الشرائع حتى يصبحوا قادرين على حمل أشرف رسالة حملها بشر .

واستوخم المهاجرون هواء المدينة و لم يوافق أمزجتهم ؛ فقد كانت المدينة معروفة بالوباء ، وكان إذا أشرف على واديها أحد نهق نهيق الحمار فقد كان ذلك فى زعمهم يجعل الوباء لا يضره وكان ممن أصابهم الحمى أبو بكر الصديق وعامر بن فهيرة وبلال . فراح الرسول عليه السلام يعود أصحابه ، فدخل على أبى بكر فقال له :

ــ كيف تجدك ؟

فأنشد أبو بكر :

كل امرىء مصبَّح فى أهله   والموت أدنى من شراك نعله

---

(١) الجمعة ٩ ــ ١١ .

ثم دخل — ﷺ — على بلال فقال :

— كيف تجدك يا بلال ؟

فراح بلال يقول متشوقا إلى مكة :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بواد وحولى إذخر وجليل

وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يبدون لى شامة وطفيل

اللهم العن شيبة بن ربيعة وأمية بن خلف كما أخرجونا من أرضنا .

ثم دخل عليه الصلاة والسلام على عامر بن فهيرة فقال :

— كيف تجدك يا عامر ؟

فقال عامر :

إنى وجدت الموت قبل ذوقه إن الجبان حتفه من فوقه

واستمر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يعود أصحابه ، وكان يحزنه أنهم حتى كانوا يصلون من قعود . فأراد أن يرفع من روحهم المعنوية فقال — ﷺ — :

— اعلموا أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم .

فتجمشوا المشقة وصلوا قياما .

وأشفق على أصحابه فنظر إلى السماء وقال :

— اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة وأشد .

وراح يدعو الله أن ينقل الوباء عن المدينة ، فإذا بها تعود أصح بلاد الله . وصدقت النبوءة التى قالت : من تحت رجليه تزول الحمى .

وأصبح رسول الله — ﷺ — قبلة أفكار سلمان الفارسى . إنه ترك الأهل والأوطان للبحث عن الحقيقة ، وقد فقد حريته وقاسى قسوة الرق فى سبيل الحقيقة وهو يريدها حقيقة لا زيف فيها ، حقيقة يطمئن لها الفكر والقلب معا . إن وجه محمد بن عبد الله ينم عن صدق يجذب الفؤاد إليه ،

وإن ما يتلو من القرآن يسمو على كل ما قرأة سلمان فى الكنائس وفى كتب الأولين فهو يرفع سامعه إلى السموات العلا ليدق أبواب الملكوت وينتشى بفيض الرحمة ويمتلئ بأنوار الحكمة . ولكنه لا يريد أن يتسرع أو يخطو خطوة قبل أن يكون على يقين من أنه على الطريق ، إنه أبى أن يأكل الصدقة وهذه واحدة ولكن لا يزال هناك تجربتان أخريان ، فراح يجمع شيئا ثم جاءه به فقال له :

— إنى قد رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها . فأكل رسول الله — ﷺ — منها وأمر أصحابه فأكلوا معه ، فقال سلمان فى نفسه :

— هاتان ثنتان .

ولم تبق إلا الحجة الثالثة خاتم النبوة . فالذى ينتظره وخرج من بلاده يهيم على وجهه فى الأرض من أجله « أثر سلطانه على كتفيه » . فكيف يحتال سلمان ليرى ذلك البرهان ؟

كان رسول الله — ﷺ — قد نزل فى قباء فى دار عمرو بن عوف فى يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول على كلثوم بن الهدم شيخ بنى عمرو بن عوف ، ونزل على بن أبى طالب لما قدم من مكة مع رسول الله — ﷺ — . وإنه رأى امرأة مسلمة لا زوج لها يأتيها إنسان فى جوف الليل يضرب عليها بابها فتخرج إليه فيعطيها شيئا معه فتأخذه ، فانطلق على إليها فسألها فقالت :

— هذا سهل بن حنيف قد عرف أنى امرأة لا أحد لى ، فاذا أمسى غدا على أوثان قومه فكسرها ثم جاءنى بها فقال احتطبى بهذا .

فعرف على ذلك لسهل بن حنيف ، وكانت إقامة على بقباء ليلتين ثم

انطلق بعدهما رسول الله عليه السلام ومن ومعه إلى المدينة لينزل دار أبى أيوب الأنصارى . وكان كلثوم بن الهدم أول من توفى من المسلمين ، فخرج رسول الله عليه السلام يشيعه وسلمان الفارسى قد تبع الجنازة وقد جعل عينيه على الرسول عليه السلام . حتى إذا ما بلغت جنازة كلثوم بقيع الفرقد مقبرة أهل المدينة جلس عليه السلام فى أصحابه ، فأقبل عليه سلمان وعليه شملتان ، فسلم عليه ثم استدار ينظر إلى ظهره لعله يرى الخاتم الذى وصف له ، فلما رآه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — استدبره عرف أنه يستثبت فى شىء وصف له ، فألقى رداءه عن ظهره فنظر سلمان إلى الخاتم فعرفه . فأكب عليه يقبله ويبكى ، فقال له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — :

— تحول .

فتحول فجلس بين يديه ، فقص عليه حديثه منذ حبسه أبوه فى بيته كما تحبس الجارية من فرط حبه إياه واجتهاده فى المجوسية حتى كان قطن النار الذى يوقدها لا يتركها تخبو ساعة ، وكيف مر بكنيسة وسمع أصواتهم فيها وهم يصلون ، وكيف اهتدى إلى أن النصرانية خير من المجوسية ، وكيف اتفق مع النصارى على الهرب إلى الشام أصل الدين الذى فتن به وما كان بينه وبين أسقف النصارى السيئ بدمشق وما كان بينه وبين الأسقف الصالح الذى جعلوه مكان الأسقف السيئ الذى رجموه .

وراح سلمان يقص قصة خروجه إلى الموصل للبحث عن الحقيقة ورسول الله عليه السلام يصغى إليه وقد لاح البشر فى وجهه . وروى سلمان فى انفعال ما كان بينه وبين صاحبه فى نصيبين وكيف أن نور اليقين لم يشرق فى قلبه طوال سياحته فى الأرض ، فهو يطلب اليقين ولا شىء دونه ، وكيف انتقل إلى عمورية واكتسب فيها حتى كانت له بقرات وغنيمة .

ثم راح يروى ما كان بينه بين صاحبه وقد ترقرق الدمع فى عينيه ، قال :

ــ قلت لصاحبى : وبم تأمرنى ؟ قال : أى بنى ، والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك به أن تأتيه ، ولكنه قد أظل زمان نبى وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام يخرج بأرض العرب ، مهاجره إلى أرض بين حرتين[١] بينهما نخل ، به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة وبين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل .

ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث ، ثم مر بى نفر من كلب تجار فقلت لهم احملونى إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتى هذه وغنيمتى هذه ، قالوا نعم ، فأعطيتهموها وحملونى معهم ، حتى إذا بلغوا وادى القرى ظلمونى فباعونى من رجل يهودى عبدا ،فكنت عنده ورأيت النخل ، فرجوت أن يكون البلد الذى وصف لى صاحبى و لم يحِقَّ فى نفسى ، فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بنى قريظة من المدينة فابتاعنى منه فاحتملنى إلى المدينة ، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبى فأقمت بها .

واستمر سلمان يقص على رسول الله ــ ﷺ ــ حديثه ، ثم أعلن إسلامه بعد أن عثر على ضالته ؛ الحقيقة الناصعة التى لا ريب فيها . فكان سلمان سابق الفرس كما كان بلال سابق الحبشة وصهيب سابق الروم .

وذاق سلمان حلاوة الإيمان ، وكان فـؤاده يهوى إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فهو يستشعر سعادة عارمة كلما كان يقربه

---

(١) الحرة كل أرض ذات حجارة سود .

وفراغا مقيتا كلما بعد عنه . ولولا الرق الذى يكبله ما فارق حبيبه أبدا ولعاش فى رحاب محبته وعلمه وحكمته وخلقه العظيم .

وأحب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه سلمان ، ورأى أن من الخير لسلمان وللإسلام أن يكون ذلك الذى وهب حياته عن طيب خاطر لله بقربه على الدوام . فقال له رسول الله ـ ﷺ :

ـ كاتب صاحبك يا سلمان ؛ لعل الله يرقق قلبه . فيعتقك .

فذهب سلمان يفاوض صاحبه على أن يعمل له ما يتفقان عليه لقاء عتقه وفك رقبته من نير الرق الأليم ، وكان صاحبه يهوديا جشعا فطلب منه أن يحيى له ثلاثمائة نخلة بالحفر والغرس وأربعين أوقية من الذهب . وحز ذلك فى نفس سلمان فمتى يستطيع أن ينجز الحفر والغرس لثلاثمائة نخلة ، وإن استطاع ذلك فمن أين له المال ؟ إن ذلك سيبعد أمنيته الغالية أن يكون فى صحبة حبيبه ورسوله وهاديه إلى الطريق المستقيم . ولكنه لم يكن هناك مفر من توقيع ذلك الاتفاق ، فكاتب صاحبه على ذلك الظلم المبين .

وعلم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بأمر هذه المكاتبة فقال لأصحابه :

ـ أعينوا أخاكم .

فراحوا يعينون سلمان بالنخل ، الرجل بثلاثين ودية (فراخ النخل الصغار) ، والرجل بعشرين ودية ، والرجل بخمس عشرة ودية ، والرجل بعشر ، يعين الرجل بقدر ما عنده ، حتى اجتمعت له ثلاثمائة ودية ، فقال له رسول الله ـ ﷺ :

ـ اذهب يا سلمان ففقر لها (احفر) ، فاذا فرغت فأتنى أكن أنا أضعها بيدى .

وغدا سلمان يحفر ، وطفق أصحابه يحفرون معه والعرق يتفصد

منهم ، حتى إذا فرغوا جاء سليمان الرسول عليه السلام فأخبره ، فخرج رسول الله — ﷺ — معه إليها ، فجعلوا يقربون إليه الودى ويضعه رسول الله — ﷺ — بيده ؛ حتى فرغوا ، وقد كانوا جميعا مقبلين على العمل مستبشرين ، وكان الرسول عليه السلام أكثرهم إقبالا على العمل على الرغم من شواغله الكثيرة فى المدينة ، فقد كانوا جميعا يجاهدون فى سبيل تحرير رقبة مؤمنة ليعود صاحبها حرا كما ولدته أمه ، فليست الحرية عندهم أن ينعموا وحدهم بالحرية ، بل أن يسعد بها كل الناس .

كان سلمان قد غرس بيده ودية واحدة وغرس رسول الله ﷺ سائرها ، فعاشت كلها إلا التى غرسها سلمان ، فأدى سلمان النخل وبقى عليه المال ، فمن أين لسلمان بأربعين أوقية من الذهب ؟

كان المجتمع الجديد فى مدينة الرسول يصهر ليكون خير أمة أخرجت للناس ، وكان الرسول عليه السلام أسوة حسنة لأصحابه ، فراح يعلمهم التعاون على البر والتقوى وأن السعادة الحقة هى إسعاد الغير ، فراح يعمل ليساهم فى دين سلمان ، وغدا الآخرون يعملون ليوفروا أربعين أوقية من الذهب لتعود لسلمان إنسانيته التى سلبها تجار الرقيق غلاظ الأكباد .

وما كان ذلك أمرا ميسررا ، فاستمر محمد عليه السلام وصحبه يجاهدون لتحقيق حلم سلمان ، فيعملون ويدخرون ، وإن حياة نبى الله — ﷺ — وأصحابه فى المدينة كلها جهاد فى سبيل إرساء قواعد رفعة البشرية جميعا .

١٥

بنى مسجد الرسول فى المدينة ليكون مقر الأمة الإسلامية الجديدة ، جماعة الله التى تسهر على مبادئ الإسلام ونصرة المظلوم وحماية الجار ، يكلؤها الله بعين رعايته فهى تعيش لله وفى الله وبالله ، ويسوس أمورها رسول الله — ﷺ — لا لأنه سيد من سادات قريش من ذوى المنعة والقوة والسلطان ، ولا لأنه من الغزاة المغاوير الذين أدانوا الأمم بسطوة السيف والإرهاب ، ولا لأنه من الزعماء السياسيين الذين يستخدمون الدهاء ويمنون الناس بالأمانى حتى يستحوذوا على الرقاب ، بل لأنه جاءهم برسالة من ربه انشرحت لها صدورهم وأنارت باليقين أفئدتهم ، فكان رسول الله عليه السلام راعى رسالة السماء يقود جماعة الله باسم الله ، يربط بين قلوبهم جميعا الإيمان بالله ، على استعداد على الدوام لأن يجود الرسول صلوات الله وسلامه عليه وأتباعه بأرواحهم فى سبيل نصرة الله ، رحماء فيما بينهم يؤثرون على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة .

ودخل نبى الله عليه السلام دار زيد بن سهل زوج أم أنس ابن مالك وأرسل يستدعى أصحابه من المهاجرين والأنصار ليؤاخى بينهم على المواساة والحق ، وأن يتوارثوا بعد الموت دون ذوى الأرحام ليكون بتلك المؤاخاة الاتحاد المنشود لقيام أمة قوية قادرة على الصمود فى وجه الأعداء المحيطين بها من كل جانب ، وليقضى على سوس الفرقة الذى ينخر فى عظام أى نظام حتى ينهار .

وجاء عثمان بن مظعون أخوه — ﷺ — من الرضاعة ومن جعله أميرا على المسلمين الذين هاجروا أول مرة إلى الحبشة وزوج خولة بنت حكيم

التى عرضت عليه أن يتزوج سودة بنت زمعة وعائشة بنت أبى بكر ، وكانت خولة قد شكت أن زوجها يقوم الليل ويصوم النهار قد هجر الدنيا وغالى فى الإعراض عنها ، فقال ﷺ — له :

— يا عثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا . أما لك بى أسوة ؟ والله إن أخشاكم لله وحدوده لأنا .

وأقبل خمسون من المهاجرين وخمسون من الأنصار فقال عليه السلام :

— إنى محدثكم بحديث فاحفظوه وعوه وحدثوا به من بعدكم : إن الله تعالى اصطفى من خلقه خلقا ، ثم تلا : ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ﴾(١) . وإنى أصطفى منكم من أحب أن أصطفيه وأواخى بينكم كما آخى الله من الملائكة . قم يا أبا بكر .

فقام فجثا بين يدى رسول الله عليه السلام فقال :

— إن لك عندى يدا الله يجزيك بها ، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذتك خليلا فأنت منى بمنزلة قميصى من جسدى .

ودعا — ﷺ — خارجة بن زيد وكان صهرا لأبى بكر ، كانت ابنته تحت أبى بكر ، وقال عليه السلام لمن عنده :

— تآخوا فى الله أخوين أخوين .

وآخى بين أبى بكر وخارجة بن زيد ، ثم قال :

— ادن يا عمر .

فدنا فقال عليه السلام :

— قد كنت شديد البأس علينا يا أبا حفص فدعوت الله أن يقرّ بك الدين أو بأبى جهل ، ففعل الله ذلك بك وكنت أحبهما إلى الله .

---

(١) الحج ٧٥ .

وآخى بين عمر وعتبان بن مالك ، وبين أبى رويم الخثعمى وبين بلال ، وبين أسيد بن حضير وبين زيد بن حارثة وكان أسيد من أحسن الناس صوتا بالقرآن وكان أحد العقلاء أهل الرأى ، وآخى بين أبى عبيدة وبين سعد بن معاذ ، وآخى بين عبد الرحمن بن عوف وبين سعد بن الربيع .

وقد هزت الأريحية سعد بن الربيع فقال لابن عوف :

— يا عبد الرحمن ، إنى من أكثر الأنصار مالا فأنا مقاسمك ، وعندى امرأتان فأنا مطلق احداهما فإذا انقضت عدتها فتزوجها .

فقال له عبد الرحمن :

— بارك الله لك فى أهلك ومالك .

كان عرضا من سعد بن الربيع وكان رفضا مهذبا من عبد الرحمن بن عوف ، فعبد الرحمن تاجر من أنجح تجار العرب ، وكان أول ما قال بعد أن هاجر إلى المدينة : « أين مكان الصفق ؟ » يسأل عن السوق فهو خبير بالأسواق ، قادر على أن يكسب ما يحتاج إليه دون أن يكون كلالة على أحد ، وكان قادرا على أن يتخذ له زوجة من الأنصار دون أن يطلق سعد ابن الربيع إحدى زوجتيه ليتزوجها . فأبو بكر الصديق تزوج بنت خارجة بن زيد قبل أن يؤاخى رسول الله ﷺ بينهما ، وتزوج المهاجرون من بنات الأنصار ، ولم يحدث أن طلق أحد من الأنصار إحدى زوجاته ليتزوجها رجل من المهاجرين كما زعم بعض الإخباريين .

وآخى — ﷺ — بين جعفر بن أبى طالب وهو غائب بالحبشة وبين معاذ بن جبل ، وبين مصعب بن عمير وأبى أيوب الأنصارى ،وآخى بين سلمان الفارسى وأبى الدرداء ولم يكن سلمان قد أعتق بعد . وجاء سلمان لأبى الدرداء زائرا فرأى أم الدرداء قد أهملت نفسها ولاح فى وجهها القهر فقال لها :

— ما شأنك ؟

— إن أخاك ليس له حاجة فى شىء من الدنيا .

فذهب سلمان إلى أبى الدرداء فقال له :

— إن لربك عليك حقا ولأهلك عليك حقا ولجسدك عليك حقا ، فأعط كل ذى حق حقه .

فذهب أبو الدرداء إلى النبى — ﷺ — يروى له ما كان من سلمان ، فإذا بالنبى صلوات الله وسلامه عليه الذى يقول إن الرهبانية لم تكتب علينا يؤيد ما قال سلمان . وإذا بأبى الدرداء يعود إلى أهله ليأخذ بنصيبه من الدنيا كما يأخذ بنصيبه من الآخرة .

ومات أبو إمامة أسعد بن زرارة والمسجد يبنى أخذته الذبحة ، فحزن رسول الله — ﷺ — حزنا شديدا عليه ، وجاء بنو النجار وقالوا لنبى الله عليه السلام :

— اجعل لنا رجلا مكانه يقيم من أمرنا ما كان يقيم .

وكره أن يخص بذلك بعضهم دون بعض فقال لهم :

— أنتم أخوالى وأنا نقيبكم .

فقضى بذلك على المطامع التى بدأت تتحرك فى صدور سادات بنى النجار وأخمد أنفاس الفتنة ، ورضى بنو النجار جميعا أن يكون رسول الله الحبيب نقيبهم ، وكان ذلك من مفاخرهم .

إنه عليم بالذات البشرية يعرف كيف يعالج نزواتها ويطمئن القلوب القلقة ويعيد النفوس إلى جادة الطريق فى لين أشبه بالسحر المبين .

وبلغ السخف باليهود والمنافقين أن قالوا لو كان نبيا لم يمت صاحبه فبلغ ذلك رسول الله — ﷺ — فقال :

— بئس الميت أبو أمامة ! اليهود ومنافقو العرب يقولون ، لو كان نبيا لم

يمت صاحبه ! ولا أملك لنفسي ولا لصاحبي من ذلك من شيء .

وجاء الناعي يحمل إليه موت أخيه من الرضاعه عثمان بن مظعون فوجد عليه وجدا شديدا ، وانطلق إلى داره فألفاه مسجى قد أسبل جفنيه على عينيه إلى يوم الدين ، فمال عليه وقبله فسالت دموع رسول الله — ﷺ — على خدى عثمان بن مظعون .

وجعل النساء يبكين فراح عمر يسكتهن ، فقال رسول الله ﷺ :

— مهلا يا عمر .

ثم راح عليه السلام يخاطب النساء :

— إياكن ونعيق الشيطان ، ومهما كان من العين فمن الله ومن الرحمة ، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان .

وقالت امرأته خولة بنت حكيم :

— طبت ، هنيئا لك الجنة أبا السائب .

فنظر إليها رسول الله ﷺ نظرة غضب وقال :

— ما يدريك ؟

— يا رسول الله مارسك وصاحبك .

— وما أدرى ما يفعل بي .

فأشفق الناس على عثمان ونزل بأفئدتهم خشوع ورهبة ، فالأمر لله إن شاء غفر وإن شاء عذب وإلى الله ترجع الأمور .

وغسل عثمان وكفن ، وسارت الجنازة إلى البقيع لدفن أول من مات من المهاجرين في مقابر الأنصار لتتم الوحدة بين المسلمين أحياء وأمواتا . وقبر عثمان وأمر — ﷺ — أن يرش قبره بالماء ، وأمر رجلا أن يأتيه بحجر ، فأخذ الرجل حجرا ضعف عن حمله ، فقام إليه رسول الله — ﷺ — فحسر عن ذراعيه ثم حمله ووضعه عند رأس القبر وقال :

ـــ أتعلم به قبر أخى ، وأدفن إليه من مات من أهلى .

وانتشر المهاجرون والأنصار فى الأرض يبتغون من فضل الله وقد ألف الله بين قلوبهم ، وكان الأنصار لا يبخلون بشيء لإرضاء المهاجرين وتوفير الراحة لهم ، فجاء المهاجرون إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وقالوا له :

ـــ يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة فى قليل ولا أحسن بذلا فى كثير ، كفونا المؤنة وأشركونا فى المهنة ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله .

ـــ لا ، ما أثنيتم ودعوتم لهم .

١٦

كان الناس يجتمعون للصلاة لتحين مواقيتها ، فكان رسول الله ـــ ﷺ ـــ يصلى بغير أذان منذ فرضت الصلاة بمكة إلى أن هاجر إلى المدينة ، وكان ناس من المسلمين تفوتهم صلاة الجمعة لانشغالهم فى أعمالهم عن تحين مواقيت الصلاة ، فراح عليه السلام وأصحابه يتشاورون كيف يجمع الناس للصلاة ، فقيل له :

ـــ انصب راية عند حضور الصلاة . فإذا رآها الناس آذن بعضهم بعضا .

فلم يعجبه ذلك . فذكر له القرن وهو بوق يدعو به اليهود لصلاتهم ، فكرهه ـــ ﷺ ـــ وقال :

ـــ هو من أمر اليهود .

فذكر له الناقوس الذى يدعو النصارى به لصلاتهم . فقال :

— هو من أمر النصارى .

— لو رفعنا نارا فإذا رآها الناس أقبلوا إلى الصلاة .

— ذلك للمجوس .

فقال عمر :

— أولا تبعثون رجلا ينادى بالصلاة ؟

فقال — ﷺ :

— لقد هممت أن أبث رجالا ينادون الناس بحين الصلاة ، وقد هممت أن آمر رجالا تقوم على الآطام ينادون المسلمين بحين الصلاة .

ثم أمر بلالا أن ينادى للصلاة ، فقام بلال يقول :

— الصلاة جامعة .. الصلاة جامعة .

فجاء الناس من الدور ومن الأسواق ليصلوا خلف رسول الله عليه الصلاة والسلام .

ودخل عبد الله بن زيد لينام فطاف به وهو بين نائم ويقظان رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسا فى يده ، فقال ابن زيد :

— يا عبد الله أتبيع الناقوس ؟

— وما تصنع به ؟

— ندعو به إلى الصلاة .

— أفلا أدلك على ما هو خير لك ؟

— بلى .

— تقول : الله أكبر ، الله أكبر . الله أكبر ، الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله . حى على الصلاة ، حى على الصلاة . حى على الفلاح ، حى على الفلاح الله أكبر الله أكبر . لا إله إلا الله .

ثم استأجر عند الرجل غير بعيد ثم قال :

— وتقول إذا قامت الصلاة : الله أكبر الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمدا رسول الله . حي على الصلاة حي على الفلاح . قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة . الله أكبر الله أكبر . لا إله إلا الله .

واستيقظ عبد الله وهو فى قمة انفعاله ، إنه يذكر رؤياه حتى إنه يظن أنه كان يقظان غير نائم . وحاول أن يهدىء من جيشان عواطفه وأن يتريث حتي يصبح ولكنه لم يستطع الصبر على ما رأى . فانطلق إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما رأى ، فقال له عليه السلام :

— إنها لرؤيا حق إن شاء الله تعالى . فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن به . فإنه أندى صوتا منك .

وجاء بلال إلى رسول الله ﷺ — فقال له :

— قم فانظر ما أمرك به عبد الله بن زيد فافعله .

فجعل عبد الله يلقى عليه الأذان ويؤذن بلال به . وكان عمر بن الخطاب فى بيته ، فلما مس الأذان أذنيه ارتسم العجب فى وجهه ، وخرج يجر رداءه وهو فى دهشة من أمره . حتى إذا ما جاء رسول الله ﷺ — يسأله خبر الأذان وعلم بما رأى عبد الله قال :

— والذى بعثك بالحق يا رسول الله لقد رأيت مثل ما رأى عبد الله بن زيد .

— فلله الحمد .

وانشرحت صدور المسلمين لما سمعوا الأذان فى الفجر ، وخرجوا إلى المسجد مستبشرين . أما اليهود فقد انقبضت أفئدتهم ونزل بهم هم ثقيل ، فمنذ أن هاجر النبى عليه الصلاة والسلام إلى المدينة حسدوه وخافوا أن يجمع كلمة الأوس والخزرج فلا تكون لهم طاقة بهم ، إنهم ألقوا إليه

أسماعهم وعرفوا أنه ما جاء إلا بالحق ولكن غرور بعضهم قد دفعهم إلى تكذيبه ومحاولة النيل منه :

لما سمع عبد الله بن سلام برسول الله — ﷺ — عرف صفته واسمه وزمانه الذى كانوا يترقبونه ، فكان مسرا لذلك صامتا عليه ، حتى قدم رسول الله — ﷺ — المدينة . فلما نزل بقباء فى بنى عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وعبد الله بن سلام فى رأس نخلة له يعمل فيها . وعمته خالدة بنت الحارث تحته جالسة . فلما سمع الخبر بقدوم رسول الله — ﷺ — كبر . فقالت له عمته حين سمعت تكبيره :

— خيبك الله ! والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادما ما زدت !

— أى عمة . هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه . بعث بما بعث به .

— أى ابن أخى . أهو النبى الذى كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة ؟

— نعم .

— فذاك إذا .

فخرج إلى رسول الله — ﷺ — فأسلم ، ثم رجع إلى أهل بيته فأمرهم فأسلموا ، وكتم إسلامه من يهود .

وذهب حيى بن أخطب أبو صفية وأخوه أبو ياسر ، وكانا من أكبر اليهود وأعظمهم ، إلى رسول الله — ﷺ — ثم جاءا من العشى فذهبت صفية لاستقبالهما وكانت من أحب ولد أبيها إليه وإلى عمها أبى ياسر ، لم تلقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاها دونه . فلم يلتفت إليها واحد منهما مع ما بهما من الغم ، والتفت أبو ياسر إلى أخيه حيى بن أخطب :

— أهو هو ؟

— نعم والله .

— أتعرفه وتثبته ؟

— نعم .

— فما فى نفسك منه ؟

— عداوته والله ما بقيت .

وعجبت صفية فى نفسها . إنهما ليعرفانه وإنه لهو هو فلماذا يتفقان على عداوته ما دام نور الحق قد لاح للبصائر ، وما دام قد ثبت أنه النبى الذى كانوا ينتظرون ! إن اليهود قد وقر فى نفوسهم أنهم وحدهم الناس وأن الله اصطفاهم لتكون النبوة فيهم دون سائر البشر ، فإذا ما أقروا برسالة محمد ابن عبد الله عليه السلام فإن ذلك يقضى على زعم الاصطفاء ، وما كان ذلك ليرضى الذين عبدوا أنفسهم غرورا .

وجاء عبد الله بن سلام رسول الله — ﷺ — فقال له :

— يا رسول الله إن يهود قوم بهت (باطل) ، وإنى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك وتغيبنى عنهم ثم تسألهم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامى . فإنهم إن علموا به بهتونى وعابونى .

فأدخله رسول الله — ﷺ — فى بعض بيوته ، ودخلوا عليه فكلموه وسألوه . ثم قال لهم :

— أى رجل الحصين بن سلام فيكم ؟

— سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا .

فلما فرغوا من قولهم خرج عليهم فقال لهم :

— يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به ، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة باسمه وصفته ، فإنى أشهد أنه رسول الله وأومن به وأصدقه وأعرفه .

وثارت الدماء فى عروق اليهود ولاح فى وجوههم الغضب والانفعال

فقالوا :

— كذبت .

وراحوا يعددون مساوىء ابن سلام من قالوا فيه منذ لحظات إنه سيدهم وعالمهم . فالتفت ابن سلام إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت ، أهل غدر وكذب وفجور ؟

وأمر رسول الله — ﷺ — بكتابة كتاب بين المهاجرين والأنصار وموادعة يهود وإقرارهم على دينهم ، فهو يريد عليه السلام أن يستقر السلام فى المدينة حتى يستطيع أن يبلغ رسالات ربه فى قبائل العرب ، وألا يؤلب عليه أعداء فى الداخل قد يتحالفون مع قريش ذات يوم للقضاء عليه وعلى دين الله . وقد كان الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد النبى بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس : المهاجرون من قريش على رِبَعَتهم (أمرهم الذى كانوا عليه) يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم (أسيرهم) بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم (الديات) الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون بينهم معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها

بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وإن المؤمنين لا يتركون مُفرحا (المثقل بالدين والكثير العيال) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فاء أو عقل. وأنه لا يُحالف مؤمن مولى مؤمن دونه. وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة (عطية) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين. وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم. ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ولا ينصر كافرا على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم. وإن المؤمنين موالى بعض دون الناس، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم. وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله عز وجل إلا على سواء وعدل بينهم. وإن كل غازية غزت معنا يُعقب بعضهابعضا. وإن المؤمنين يبىء،بعضهم عن بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله عز وجل، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه. وإنه لا يُجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على قومه. وإن من اعتبط (قتل بلا جناية توجب القتل) مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قَوَدٌ (قصاص) به إلا أن يرضى ولى المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا القيام عليه، وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما جاء فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحدثا ولا يؤويه، وإن من نصره أو آواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صَرف ولاَ عدل ، وإنكم مهما اختلفتم فيهَ من شيء فان مرده إلى الله وإلى محمد ﷺ.

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم ، فانه لا يوقِع (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته .

وإن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف . وإن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف . وإن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف ،

وإن ليهود بنى جُشَم مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته .

وإن جَفنة من بنى ثعلبة كأنفسهم . وإن لبنى الشطنة مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن البر دون الإثم . وإن موالى ثعلبة كأنفسهم،وإن بطانة يهود كأنفسهم . وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ، وأنه لا ينْحجِز على ثأر جرح ، وإنه من قتل فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم . وأن الله على أبرّ هذا (على الرضا به) ، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم . وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم . وإنه لا تُجار حرمة إلا بإذن أهلها . وإن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله.وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره . وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها وإن بينهم النصر على من دهم يثرب . وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قِبَلهم . وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحسن . وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه . وإن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره ، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم ولا آثم ، وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم ، وإن الله جارٌ لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله » .

١٧

ذاق رسول الله — ﷺ — طعم الراحة بعد السنين الطويلة التى أمضاها فى مكة منذ أن بعث إلى أن هاجر ، وهو هدف الاضطهاد والسخرية والتكذيب ، ولولا أن الله كتب على نفسه أن يعصم رسوله من الناس لنجح أعداؤه فى قتله ، فما أكثر ما حاولوا أن يلقوا عليه صخرة أو يطعنوه بخنجر أو يصوبوا سهما إلى فؤاده ، ولكن الله كان ينزل الرعب فى قلوبهم ، فكانوا يحجمون عن اغتياله مفزوعين ويدورون على أعقابهم تكاد قلوبهم أن تنخلع من ذلك المجهول الذى يغمرهم بخوف شديد .

وفى الليلة التى قرر أن يهاجر فيها إلى ربه أحاط بداره سادات قريش ومن كل قبيلة فتى شاب جليد نسيب وسيط فيهم . وفى يد كل فتى منهم سيف صارم ليضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد فيقتلوه فيستريحوا منه . ويتفرق دمه فى القبائل جميعا فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا . وما دار بخلدهم أن الذى كتب على نفسه عصمة رسوله قادر على أن يستنقذه منهم . فأخذ على أبصارهم عنه فانسل من بينهم دون أن يروه .

وجاء إلى المدينة فإذا بأنصاره والمهاجرين يستقبلونه استقبالا مفعما بأنبل مشاعر البشرية ، وإذا بهم جميعا سامعين طائعين فرحين مستبشرين خاضعين لقانون الله يستشعرون حرية روحية ترفعهم عن النزوات ورغبات الحسد وتطهر نفوسهم من الكراهية والبغضاء والحسد ، فإذا بأفئدتهم التى كانت تنز حقدا قد أصبحت تفيض حبا ، إذا بالحياة تشرق بالآمال ويصيرلها معنى بعد أن كانت عجلة الوجود الكئيبة تدور فى فراغ إلى الأبد .

وصارت شريعة الرب هى حياة المدينة . فإذا ما نزل من السماء أمر على رسول الله — ﷺ — صدع له المسلمون جميعا . إنه لما قدم نبى الله عليه السلام كان أهلها من أخبث الناس كيلا . فلما أنزل الله تعالى : ﴿ ويل للمطففين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون * ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم * يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾[1] . تغير الحال عقب أن قرأ عليه السلام فى السوق ما أوحى إليه ، فأصبح المدنيون من أفضل أهل الأرض كيلا .

إنه عليه السلام قد كتب كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم ، وقد صار بذلك الكتاب صاحب الكلمة العليا فى المدينة .

وما كان يعكر صفو تلك الأيام إلا ذلك الغرور الذى يملأ جوانح اليهود ، فقد سمعوا به أول ما سمعوا يوم أن بعثت قريش إليهم النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط ليسألاهم عن محمد فهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم من علم الأنبياء . فلما جاءاهم قالوا لهما : سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان من أمرهم ، فإنه قد كان لهم حديث عجب ؟ وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ما هى ؟ فأنزل الله آيات أصحاب الكهف ، وأنزل آيات ذى القرنين ، وقال تعالى فيما سألوه عنه من أمر الروح : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾[2] . وقد بلغ يهود ما أنزل الله ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة قالت أحبار اليهود :

---

(١) المطففين ١ — ٦ (٢) الأسراء ٨٥ .

— يا محمد أرأيت قولك : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ . إيانا تريد أم قومك ؟

— كُلاًّ .

وظهرت الدهشة فى وجوه المغرورين المفتونين بتوراة الله التى امتزجت بأساطير البابليين وقالوا :

— فإنك تتلو فيما جاءك : إنا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شىء .

— إنها فى علم الله قليل ، وعندكم فى ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه .

فأنزل الله تعالى فيما سألوه عنه من ذلك : ﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾(١) . ولم يقتنع الذين عبدوا أنفسهم غرورا أن علمهم من علم الله قليل !

كان الحوار دائرا بينه عليه السلام وبين يهود مذ وطئت قدماه أرض المدينة ، وكان الوحى ينزل عليه فيما يسألونه عنه . جاءه ذات يوم ناس منهم فقالوا :

— صف لنا ربك ، فإن الله أنزل نعته فى التوراة فأخبرنا من أى شىء هو ؟ ومن أى جنس هو ؟ أذهب هو أم نحاس أم فضة ؟ وهل يأكل ويشرب ؟ وممن ورث الدنيا ومن يورثها ؟

كانوا يتحدثون فى صلف كأنما كانت عندهم خزائن علم الله ، وما خطر لهم على بال أن صفات الله التى نزلت على موسى عليه السلام قد اعتورها ما اعتور التوراة فى أرض السبى ، وأنهم لما كانوا مهزومين مخذولين فى بابل راحوا يصورون إلههم يهوه إلها صحراويا قاسيا يحب سفك

---

(١) لقمان ٢٧ .

الدماء ويبارك الخديعة والغش والبهتان ، إلها قد صاغته أمانيهم فهو لبنى إسرائيل وحدهم دون الناس .

فأنزل الله على رسوله عليه السلام : ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد ﴾[(١)] .

فبهتوا وانصرفوا يفكرون فى حوار آخر يعاونهم على إطفاء ذلك النور الذى غمر المدينة . والذى يوشك أن يغمر كل ما حولها .

كان رسول الله عليه السلام راضيا بإشراق نور الله فى المدينة وبما لقى هو وأصحابه فيها من أمن واستقرار . وكان فى بعض أوقات راحته يسرح خياله يفكر فى الطاهرة سيدة نساء قريش ، فهو لا ينسى أبدا مواساتها إياه وحضانتها للإسلام وما قاست من أهوال فى سبيل نصرة دين الله ، وكان يتمنى أحيانا لو أنها كانت إلى جواره تشهد تحقيق حلمها الذى رأت فيه الشمس تنحدر إلى دارها لتشرق منه على العالمين ، وسرعان ما يفيق من شروده ليستغفر ربه فما شاء الله كان .

وكان رسول الله عليه السلام يرجو أن يهدى الله اليهود إلى الإسلام . فلما نطق عبد الله بن سلام بشهادة الحق طمع عليه السلام فى إسلام يهود بنى قينقاع ، فأرسل أبا بكر إلى فيحاص بن عازوراء بكتاب وكان انفرد بالعلم والسيادة على يهود بنى قينقاع بعد إسلام عبد الله بن سلام . وقال رسول الله — ﷺ — لأبى بكر :

— لا تفتت على بشىء حتى ترجع إلى ؟

وجاء أبو بكر إلى فيحاص ودفع إليه بكتاب رسول الله — ﷺ — ، فراح فيحاص يقرأ الكتاب فإذا بنبى الله عليه السلام يأمرهم بالإسلام

---

(١) سورة الاخلاص .

وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضا حسنا . فلما انتهى فيحاص من قراءة الكتاب قال :

ـــ يا أبا بكر تزعم أن ربنا يستقرضنا أموالنا وما يستقرض إلا الفقير من الغنى ، فإن كان حقا ما تقول فإن الله إذا فقير ونحن أغنياء .

فثارت الدماء فى عروق أبى بكر فضرب وجه فيحاص ضربا شديدا ، وهم أن يضربه بالسيف لولا أن تذكر ما قاله له رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لما دفع إليه الكتاب .

وجاء فيحاص إلى النبى ﷺ وشكا أبا بكر ، فقال ـــ ﷺ ـــ لأبى بكر :

ـــ ما حملك على ما صنعت ؟

ـــ يا رسول الله إنه قال قولا عظيما . زعم أن الله عز وجل فقير وأنهم أغنياء ، فغضبت لله تعالى .

وقال فيحاص :

ـــ والله ما قلت هذا .

وأنزل الله على عبده تصديقا لأبى بكر : ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقَتْلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق * ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد * الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين ﴾[1] .

ونزل فى أبى بكر الصديق وما بلغه فى ذلك من الغضب : ﴿ ولتسمعن

---

(١) آل عمران ١٨١ ـــ ١٨٣ .

من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾[١] .

كان اليهود يعتقدون أن الرسالة فيهم لأنهم شعب الله المختار ، فلما جاء النبى الأمى من الأمم نال ذلك من كبريائهم وقوض أوهامهم ، ونصبت عند ذلك أحبار يهود لرسول الله ــ ﷺ ــ العداوة بغيا وحسدا وضغنا . وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج ممن بقى على جاهليته فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث . إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه ، فتظاهروا بالإسلام ونافقوا فى السر وكان هواهم مع يهود لتكذيبهم النبى ــ ﷺ ــ وجحودهم الإسلام .

وكانت عداوتهم خفية لم يجهروا بها كما جهر بها فى مكة أبو جهل بن هشام وأبو سفيان بن حرب وأمية بن خلف والنضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط وكفار قريش ، بينا كانت أحبار يهود هم الذين يسألون رسول الله ــ ﷺ ــ ويتعنتونه ويأتونه باللبس ليلبسوا الحق بالباطل ، فكان القرآن ينزل فيهم فيما يسألون عنه إلا قليلا من المسائل فى الحلال والحرام كان المسلمون يسألون عنها .

وكان شاس بن قيس شيخا قد أسن وولى من أحبار اليهود ، عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم ، قد مر على نفر من أصحاب رسول الله ــ ﷺ ــ من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية ، فقال فى نفسه :

---

(١) آل عمران ١٨٦ .

ـــ قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد ، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار .

فأمر فتى شابا من يهود فقال له :

ـــ اعمد إليهم فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بعاث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار .

كانت المعركة التى درات بين الأوس والخزرج يوم بعاث مريرة حصدت فيها رءوس ، وقد قام شعراء الأوس قيس بن الحطيم وأبو قيس بن الأسلت بدور عظيم فى تأجيج نار الحماسة فى صدور قومهم ، ونهض حسان بن ثابت وابن أبى رواحة وشعراء الخزرج للرد على مزاعم شعراء الأوس . فما إن جلس الشاب اليهودى بين الأنصار حتى راح ينشد شعر أبى قيس بن الأسلت :

على أن فجعت بذى حفاظ فعادونى له حزن رصين
فإما تقتلوه فإن عمرا أعض برأسه عضب[١] سنين[٢]

وغدا رجال من الأوس ورجال من الخزرج ينشدون أشعار شعرائهم ، فتنازع القوم وتفاخروا حتى تواثب من الحيين على الرُّكب أوس بن قيظى أحد بنى حارثة بن الحارث من الأوس ، وجبار بن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج ، فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه :

ـــ إن شئتم رددناها الآن جذعة .

فغضب الفريقان جميعا وقالوا :

ـــ قد فعلنا ، موعدكم الظاهرة . السلاح السلاح .

وابتسم اليهودى الشاب فى خبث واستبشار ، فقد خدعه وهمه فظن أنه

---

(١) السيف القاطع . (٢) مسنون .

أفسد بين قلوب ألف الله بينها ، وأن رسول الله — ﷺ — لن ينجح فى رأب الصدع الذى نجح هو فى أن يشقه فى جدار الوحدة التى تمت بين الأوس والخزرج .

وخرج الأوس والخزرج إلى الظاهرة وقد لبسوا السلاح . وقبل أن تنشب المعركة بلغ ذلك رسول الله — ﷺ — فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال :

— يا معشر المسلمين الله الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف بين قلوبكم ؟

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا . قد أطفأ الله عنهم كيد شاس ابن قيس ، فأنزل الله تعالى فى شاس بن قيس وما صنع : ﴿ قل يأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون * قل يأهل الكتاب لِمَ تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون ﴾[1] .

كان قيس بن الخطيم شاعر الأوس وكان حسان بن ثابت شاعر الخزرج . فلما هدأت حرب الأوس والخزرج قبل الهجرة تذكر الخزرج قيس بن الخطيم ونكايته فيهم فتآمروا وتوعدوا قتله . فخرج عشية من منزله فى ملاءتين يريد ما لا له ببستان فى المدينة . حتى مر بأطم بنى حارثة ، فرمى من الأطم بثلاثة أسهم ، فوقع أحدها فى صدره ، فصاح صيحة سمعها رهطه فجاءوا فحملوه إلى منزله ، فلم يروا له كفئا إلا أبا

---

(١) آل عمران ٩٨ — ٩٩ .

صعصعة يزيد بن عوف بن مدرك النجارى . فاندس إليه رجل حتى اغتاله فى منزله فضرب عنقه واشتمل على رأسه ، فأتى به قيسا وهو بآخر رمق فألقاه بين يديه وقال :

ـ يا قيس قد أدركت بثأرك .

فقال قيس وهو يجود بآخر الأنفاس :

ـ عضضت بأير أبيك إن كان غير أبى صعصعة !

ـ هو أبو صعصعة .

وأراه رأسه .

كانت هذه هى حال الأوس والخزرج قبل أن يهاجر إليهم رسول الله عليه صلوات الله وسلامه وقبل أن يؤلف الله بين قلوبهم . وكانت أهداف أعداء الإسلام أن تحل البغضاء فى قلوب الحيين مكان ما نزل فيها من الحب ، ولكن رسول الله عليه السلام كان يقف بالمرصاد لمثل هذه المحاولات يقضى عليها قبل أن تتفاقم وتشتد .

وكان عليه السلام أعرف الناس بالطبيعة البشرية ، فلم يأمر الناس أن يمحوا من ماضيهم ما قال شعراؤهم فى أيامهم من فخر ، بل كان يسمع تلك الأشعار ثم يذكرهم بما أكرمهم الله لما شرح صدورهم إلى الإسلام وألقى فى قلوبهم أنوار اليقين .

إن أصحابه فى مكة التمسوا منه أن يقص عليهم لما طال حديث عليه السلام عن الدين وهو فى المدينة لا يريد أن تمل قلوب الأنصار ، فكان يصغى إلى أشعارهم ويسمع منهم أنباء الغابرين . فقد جلس عليه السلام ذات يوم فى مجلس ليس فيه إلا خزرجى ، ثم استنشدهم قصيدة قيس بن الخطيم الأوسى :

أتعرف رسما كاطراد المذاهب لعَمْرة وحشا غير موقف راكب

فأنشده بعضهم إياها ، فلما بلغ إلى قوله :

أجالدهم يوم الحديقة حاسرا كأن يدى بالسيف مخراق لاعب

فالتفت إليهم رسول الله — ﷺ — فقال :

— هل كان كما ذكر ؟

فشهد له ثابت بن قيس بن شماس وقال له :

— والذى بعثك بالحق يا رسول الله لقد خرج إلينا يوم سابع عرسه عليه غلالة وملحفة مورّسة (مصبوغة بالأصفر) فجالد كما ذكر .

كانت نسائم الدعة تهب رخاء على مدينة الرسول ، وكان ذلك من رحمة الله على المؤمنين حتى يلتقط المهاجرون أنفاسهم قبل أن يخوضوا المعارك التى سيغمر بعدها نور الإسلام العالمين .

١٨

كان كسرى الثانى قد شن الحرب على بيزنطة ، وغزا قواد الفرس جهات من آسيا الصغرى واستولوا على الرها وأنطاقية ودمشق ثم بيت المقدس حيث انتزعوا الصليب وبعثوا به إلى المدائن ، ثم استولوا على الإسكندرية وأجزاء أخرى من مصر .

وكان شهر براز (خنزير الدولة) أعظم قواد الجيش الإيرانى ، فتقدم فى آسيا الصغرى وضرب حصارا على القسطنطينية ، ولكنه لم يكن يملك الوسائل لنقل عسكره إلى الساحل الأوروبى للبسفور فعسكر فى مكانه ينتظر ما تأتى به الأيام .

وأدار ذلك النصر رأس كسر الثانى فسمى نفسه : « الرجل الخالد بين الآلهة والإله العظيم جدا بين الرجال ، صاحب الصيت الذائع الذى

يصحو مع الشمس والذى يهب عينيه للنيل » . وسمى أبرويز (المظفر) فقد كان نصره على الروم نصرا عظيما لم يتهيأ لملك من ملوك إيران مثله .

وكان كفار قريش ورسول الله — ﷺ — وأصحابه بمكة يتابعون أخبار الحرب الدائرة بين الفرس والروم ، وكان هوى قريش مع الفرس وهوى النبى عليه السلام وأصحابه مع الروم لأنهم أهل كتاب ، فلما جاءت أنباء انتصار الفرس فرح كفار مكة وشمتوا ، فلقوا أصحاب النبى — ﷺ — فقالوا :

— إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم .

وشق ذلك على الرسول عليه السلام وأصحابه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ألم * غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون *فى بضع سنين ﴾(١) . وقامت مشادة بين أبى بكر الصديق وأمية بن خلف حول ذلك التأكيد ، فتراهن الرجلان وأكد أبو بكر أن الروم ستنتصر على الفرس قبل انقضاء ست سنين .

وراحت السنون تمر وكسرى يظلم الشعب ليملأ خزائنه . ولما كان حقودا شديد الشك فإنه كان ينتهز الفرص ليقتل من يشك فيه من الذين أخلصوا فى خدمته ويستجيب لأوهام منجميه . إنه سمع من منجميه وكهانه أن منيته آتية من قبل نيمروز أحد خدامه المخلصين ، فأجال الرأى فى علة ليقتله بها فلم يجد له عثرة وتذمم من قتله لما علم من طاعته إياه ونصيحته له وتحريه مرضاته ، فرأى أن يستبقيه ويأمر بقطع يمينه ، ثم بعد

---

(١) الروم ١ — ٣ .

أن يحرمه من شغل أعظم مناصب الدولة يعوضه منها أموالا عظيمة ، ولكن نيمروز استحلف الملك أن يجيب طلبه والتمس منه أن يأمر بضرب عنقه ليمحى بذلك العار الذى لزمه ، فضربت عنقه وأصبح كسرى عدوا لدودا لمهرهرمزذ ولد نيمروز .

واستمر كسرى فى اغتيال خدامه المخلصين ، فيزدين النصرانى كان من أسرة تملك أراضى واسعة فى كرخا بيت سلوق (كركوك حاليا) وكانت تشغل منصبا كبيرا فى الإدارة المالية . وقد بلغ يزدين هذا منصب واستربو شانسالار فكان عليه تسلم العشور واصطحاب العسكر فى الحروب لمراعاة مصالح الخزانة فى الغنائم وتحصيل الخراج ، وكان يصدر للخزانة ألف قطعة ذهبية كل يوم ، وكان يدافع بحماس لا يقل حرارة عن قضية النصارى، وشيد فى جميع البلاد الكنائس والأديرة على صورة بيت المقدس السماوى . وكان محبوبا من كسرى كما أحب فرعون يوسف بل أكثر منه ، وحينما غزا الفرس بيت المقدس أرسل يزدين إلى المدائن غنائم عظيمة ، وكان من أنفس الآثار عند النصارى جزء من الصليب المقدس وقد أودعه الملك مع عظيم الاحترام فى بيت المال الجديد الذى أنشأ له بناء فى العاصمة .

وصلب يزدين يهود القدس الذين انتهزوا الفرصة للانتقام من النصارى فأشعلوا النار فى الكنائس وصادر أملاكهم وأقام بعض ما تهدم من الكنائس ، ولكن العطف الذى تمتع به الواستربو شانسالار لم يدم ، فقد راح كسرى يتحين الفرص لقتله .

وكان بين كسرى وقائده شهر براز عداء خفى ، وقد أرسل كسرى إلى شهر براز أثناء محاربته الروم ثلاثة كتب ظهر منها نية القتل فامتنع عن الحضور إليه وانضم لملك الروم وحارب معه .

وعادت أنظار العالم تتجه مرة أخرى إلى الحرب الطاحنة التى تدور بين

أعظم إمبراطوريتين فى الأرض ، كانت إمبراطورية الفرس قد طعنت نفسها بخنجر ظلم كسرى لشعبه قبل أن تطعنها الإمبراطورية الرومانية الطعنة القاتلة ، كانت قد انتحرت من الداخل قبل أن ينتفض هرقل ليطرد الغزاة من الأراضى التى دنسوها بأقدامهم ، إنه نفخ فى شعبه روحا دينية واستثار فيهم ماضيهم المجيد فراحت الفيالق الرومانية تتقدم وهى تحمل النسر الرومانى نحو الشرق لتستخلص من أيدى الفرس الصليب المقدس .

واستعاد هرقل آسيا الصغرى وتقدم طاردا جيوش كسرى فى أرمينية وأذربيجان ، وراح شهر براز القائد الفارسى الذى كان يخشى غدر كسرى يرسم لهرقل الطريق إلى النهروان . فدعا كسرى رجلا من النصارى كان جد كسرى قد أنعم على جده واستنقذه من القتل أيام مزدك وكان معه أصحابه الذين استجابوا له ، وأرسل كسرى ذلك النصرانى إلى شهر براز بعصا مجوفة فيها رسالة كلف بها شهر براز بإحراق دار ملك الروم وقتل المقاتلة وسبى الذرية ونهب الأموال .

ومضى النصرانى فلما عبر النهروان سمع أجراس الكنائس تدق فعز عليه أن يعين ملك الفرس على ملك الروم المسيحى ، فأتى بابه وأخبره بقصته ثم دفع إليه العصا ، فغضب هرقل وحسب أن شهر براز قد خدعه فنادى الناس بالرحيل وخرج لا يلوى على شىء .

وكان المسلمون فى المدينة يتتبعون أخبار الحرب الضروس التى اشتعل أوارها بين الفرس والروم وكان الفرح يملأ جوانحهم كلما جاءتهم أنباء انتصارات هرقل ، وكان أبو بكر الصديق أكثرهم فرحا فإنه راهن أمية بن خلف يوم أنزلت : ﴿ ألم *غلبت الروم * فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون *فى بضع سنين ﴾[1] .

---

(١) الروم ١ ـــ ٣ .

على أن نصر الروم سيتم فى مدى ست سنين ، وها هو ذا وعد الله أوشك أن يتم فالنسر الرومانى يطوى الأرض فى طريقه إلى النهروان .

وجاءت الأنباء أن هرقل لم يعبر النهر بل نادى الناس بالرحيل ، فحزن المسلمون لذلك الانسحاب المفاجئ ، إلا أن إيمان أبى بكر بنصر الروم القريب لم يتزعزع فقد كان على ثقة بربه وبما ينزل من السماء . إن الله تعالى قد قال إن الروم سيغلبون فى بضع سنين فإن كان هرقل قد رأى أن ينادى بالرحيل فلعل ذلك لحكمة ، وسيعيد الكرة وسينتصر على الكافرين .

كانت الدنيا بأسرها تتجه بأنظارها إلى الإمبراطوريتين العظيمتين المسيطرتين على مصائر العالم ، وما لفت نظر أحد فى ذلك الحين ذلك التطور الهائل الذى طرأ على المجتمع المدنى ، ولو تنبأ متنبئ بأن الفئة المؤمنة القليلة الملتفة حول رسول الله — ﷺ — ستقوض الإمبراطوريتين العظيمتين قبل عشرين سنة من ذلك الوقت لكان هدفا طيبا لسخرية الساخرين وهزء المستهزئين .

لم يكن على وجه الأرض من يدور بخلده مثل تلك الأحلام ، فقد كانت غاية آمال المسلمين أن يهزم هرقل الفرس ويتحقق وعد الله إلا رجلا واحدا كان على ثقة من أن أتباعه الفقراء الذين لا يجدون قوت يومهم سيحكمون ممالك الدولتين العظيمتين ، إنه محمد رسول الله — ﷺ .

١٩

كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة . فقد أوحى الله إليه ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾[١] . ﴿ فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر ﴾[٢] . وكان أنصاره يحاورون جيرانهم اليهود محاولين أن يقنعوهم بالتى هى أحسن بالدخول فى دين الله طائعين .

وقد ذهب معاذ بن جبل وبشر بن البراء إلى جيرانهم اليهود وقالا :

ـــ يا معشر يهود . اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ـــ ﷺ ـــ ونحن أهل شرك وكفر ، وتخبرونا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته .

فقال سلام بن مشكم من عظماء يهود بنى النضير :

ـــ ما جاءنا بشىء نعرفه ، ما هو الذى كنا نذكره لكم .

فأنزل الله تعالى : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾[٣] .

وانطلق رسول الله عليه السلام ومعه عمر بن الخطاب إلى مالك بن الصيف وكان رئيسا على اليهود ، وكان سمينا ، فغدا رسول الله عليه السلام يحاوره ومالك يرد فى عجرفة واستعلاء وغلظة . فقال له عليه السلام :

---

(١) البقرة ٢٥٦ . (٢) الغاشية ٢١ ـــ ٢٢ .

(٣) البقرة ٩٨ .

— أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أن الله يبغض الحبر السمين ، قد سمنت من مالك الذى تطعمك اليهود .

فضحك القوم ، فغضب مالك والتفت إلى عمر فقال فى ثورة انفعاله :

— ما أنزل الله على بشر من شىء .

فأنزل الله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعُلِّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ﴾[1] .

وسمع اليهود ما أنزل الله فملئوا غضبا ، فلولا ما قال مالك بن الصيف ما ألزمهم القرآن الحجة ولما كانت هناك فرصة للطعن عليهم واتهامهم بالعبث فى التوراة ، فانطلقوا إلى مالك والغيظ يأكل أفئدتهم فقالوا له :

— ما هذا الذى بلغنا عنك ؟

فقال مالك بن الصيف ليبرر سقطته :

— إنه أغضبنى .

أينكر نزول التوراة على موسى لأنه أغضبه ؟! أينكر الوحى الذى قامت عليه اليهودية لأنه سخر منه ؟! إنه جعلهم سخرية جيرانهم الذين كانوا ينظرون إليهم فى إجلال لأنهم أهل الكتاب الأول ، فماذا يبقى لهم من شرف يتيهون به على العالمين إذا ما أقروا ذلك الحبر السمين الذى قال فى لحظة غضب : « ما أنزل الله على بشر من شىء » على زعمه ؟

إنه قول رئيس طاش لبه فى لحظة غضب فقوض كل تراثهم ، فحق عليه أن ينزع من الرئاسة ليمحوا ما لطخهم به من عار ، فنزعوه من الرياسة

---

(١) الأنعام ٩١ .

وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف .

وراح اليهود يسألونه — ﷺ — عن أشياء ليلبسوا الحق بالباطل . وما كانوا يسألون عن جوهر الدين فالدين كان قد فسد على أيدى الفريسيين والصدوقيين الذين جعلوا من سماحة الأديان نواهى قاسية تافهة ما أنزل الله بها من سلطان .

وكانوا يهابونه ويرتجفون فرقا مما ينزل عليه ، وكان بعضهم يفضل ألا يسأله لئلا يسمعه ما يكره أو يجيبه بما يزعزع ثقته فى دينه أو يؤكد له أنه النبى الأمى الذى كانوا يستفتحون به على غطفان والأوس والخزرج فينصرون .

وكان فريق منهم يهوون الجدل فكانوا يذهبون إليه يسألونه فى كل ما يخطر لهم على بال ، كانوا يسألونه : متى الساعة إن كنت نبيا ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾(١) .

وجاء يهوديان إليه عليه السلام فسألاه عن قوله تعالى : ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ، فقال — ﷺ — لهما :

— لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تسرقوا .

واستمر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يتلو عليهما وصايا موسى عليه السلام واليهوديان يصغيان إليه فى دهش وهما يعجبان من أين له هذا

---

(١) الأعراف ١٨٧ .

العلم ، حتى إذا ما انتهى من حديثه قالا فى انفعال :

— نشهد أنك نبى .

— ما يمنعكما أن تسلما ؟

— نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا يهود .

وجاء يهود إليه يجادلونه ويسألونه عن خلق السموات والأرض ، فقال لهم إن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، فقالوا له :

— قد أصبت . لو أتممت : ثم استراح .

فأنزل الله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾[1] . فلما سمع يهود هذه الآيات تقاصرت أنفسهم وأحسوا أن ذلك النبى يخالفهم فى كثير من الأمر وإن مخالفته إياهم تريح الألباب . ولولا تعصبهم الأعمى وغرورهم الذى أسدل الحجب على بصائرهم لآمنوا به ، فمن ذا الذى يطمئن قلبه إلى إله ينال منه التعب بعد خلق السموات والأرض فيستريح ؟ إن محمدا عليه السلام قد نفى عن الله فكرة التعب سبحانه وتعالى عما يصفون ، وإنه الحق لولا ما تخفى الصدور .

وكان أحبار اليهود أكثر الناس عداوة للمؤمنين ، ولكن بعضهم قد شرح الله صدورهم للإسلام فنطقوا شهادة الحق دون أن يخشوا بطش يهود ، فقد قدم إلى المدينة حبران من أراضى الشام لم يعلما بمبعثه ﷺ ، فقال أحدهما للآخر :

— ما أشبه هذه بمدينة النبى الخارج فى آخر الزمان .

---

(١) ق ١٣٨ .

وما استقر بهما المقام حتى أخبرا بمهاجرة النبى — ﷺ — ووجوده فى تلك المدينة ، فذهبا إليه فلما رأياه قالا له :

— أنت محمد ؟

— نعم .

— نسألك مسألة إن أخبرتنا بها آمنا بك .

— اسألانى .

— أخبرنا عن أعظم الشهادة فى كتاب الله .

فأنزل الله عليه :

« شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم . إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب . فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » .

ألقى الحبران إليه سمعهما فإذا بما يتلو عليهما ينفذ إلى سويداء قلبيهما فيستشعران بأنوار تشيع فى جوانبهما وبطمأنينة عجيبة تنزل بأفئدتهما وبرحمة من الله تغمرهما ، فلم يستطيعا أن يكتما إيمانهما فأعلنا إسلامهما وشهدا بأنه النبى الأمى الذى يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، الذى يجدونه مكتوبا عندهم وبشرت به الأنبياء .

وجاءه عليه السلام الذين أولعوا بالجدل من اليهود فقالوا له :

— كيف تقول إنك على ملة إبراهيم وأنت تأكل لحوم الإبل وتشرب ألبانها وكان ذلك محرما على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا فى التوراة ، فنحن أولى الناس بإبراهيم منك ومن غيرك .

فقال لهم عليه السلام : إن إسرائيل (يعقوب) هو الذى حرم على نفسه بعض الطعام قبل أن تنزل التوراة ، فسألوه عليه السلام :

— أى طعام حرم إسرائيل على نفسه قبل أن تنزل التوراة ؟

— أنشدكم بالله الذى أنزل التوراه على موسى هل تعلمون أن إسرائيل (يعقوب) مرض مرضا شديدا وطال سقمه فنذر لله لئن شفاه الله تعالى من سقمه ليحرمن أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه لحمان الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها ؟

— اللهم نعم .

كان بيعقوب عرق النسا وكان إذا طعم ذلك هاج به ، فنذر لله ليحرمن أحب الطعام إليه وأحب الشراب وما كان ذلك تشريعا من الله . وما حرم الله ذلك على أنبيائه كما زعموا من قبل أن تنزل التوراة ، وقد أنزل الله فى ذلك : ﴿ كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ، قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين * فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون * قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾(١) .

وأنزل الله تعالى ردا على زعمهم بأنهم أولى الناس بإبراهيم : ﴿ يأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون * ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين ﴾(٢) .

---

(١) آل عمران ٩٣ — (٢) آل عمران ٦٥ — ٦٨ .

وفغر يهود أفواههم دهشة . لكأنما كان ذلك شيئا جديدا لم يسمعوا به من قبل وإن كان حقيقة واقعة ، فإبراهيم قد كان قبل أن يكون موسى عليه السلام والسيد المسيح وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ، فكيف يمكن أن يكون يهوديا أو نصرانيا وما كانت اليهودية أو النصرانية قد جاءتا إلى الوجود ؟!

إنهم قالوا إنهم أولى الناس بإبراهيم وهو يقول إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا حق وذاته الكريمة ، وهذا من الممكن أن يجادلوه فيه ولكن فيم يمترون ؟ إن كانوا من نسل إسحاق فهو من نسل إسماعيل وإن قالوا إنهم أبناء السيدة وهو من نسل الجارية فهل الأديان الحقة تفرق بين البشر ؟ كلكم لآدم وآدم من تراب . فمن شاء أن يفتخر فليفتخر بالتراب !

كانوا يحاجونه وكان القرآن ينزل بما يفحمهم ويثير دهشتهم ، ولو أنصفوا أنفسهم ما جادلوه ولكن غرورهم كان يدفعهم إلى إثارة الحوار بينهم وبينه فما تنزل الآيات بالحق من ربه حتى يطرقوا مدحورين .

وجاء يهود إليه وقالوا :

ـــ يا أبا القاسم ما ترى فى رجل وامرأة زنيا بعد إحصان ؟

فقال لهم ـــ ﷺ :

ـــ ما تجدون فى التوراة ؟

ـــ دعنا من التوراة فقل لنا ما عندك .

فأفتاهم بالرجم فأنكروه ، فلم يكلمهم رسول الله ـــ ﷺ ـــ حتى أتى بيت مدارسهم « الكنيس » فقام على الباب فقال :

ـــ يا معشر يهود ، أخرجوا إلى أعلمكم .

فأخرجوا إليه عبد الله بن صوريا وأبا ياسر بن أحطب ووهب بن يهود

فقالوا :

— هؤلاء علماؤنا .

فقالَ عليه السلام :

— أنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى ما تجدون فى التوراة على من زنى بعد إحصان ؟

— يعير ويجتنب .

وسكت شاب أمرد أبيض أعور ، إنه ابن صوريا . فالتفت إليه رسول الله — ﷺ — فقال له :

— أنشدك الله الذى لا إله إلا هو الذى أنزل التوراة على موسى وفلق البحر ورفع فوقكم الطور وأنجاكم وأغرق فرعون وظلل عليكم الغمام وأنزل عليكم المن والسلوى ، والذى أنزل عليكم كتابه وحلاله وحرامه هل تجدون فيه الرجم على من أحصن ؟

— نعم .

فوثب عليه سفلة اليهود فقال :

— خفت إن كذبته أن ينزل علينا العذاب .

وراح اليهود يحاولون الوقيعة بين الأنصار والمهاجرين ، فكانوا يقولون للأنصار :

— لا تنفقوا أموالكم على هؤلاء فإنا نخشى عليكم الفقر .

فأنزل الله تعالى : ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ﴾[1] .

وكان اليهود إذا كلموا النبى — ﷺ — قالوا :

---

(١) النساء ٣٧ .

— راعنا سمعك واسمع غير مسمع .

ويضحكون فيما بينهم ، فلما سمع المسلمون منهم ذلك ظنوا أن ذلك شيء كان أهل الكتاب يعظمون به أنبياءهم ، فصاروا يقولون ذلك للنبى — ﷺ ، ففطن سعد بن معاذ لما رأى اليهود يقولون ذلك وهم يضحكون أن القول بلسان اليهود سب قبيح للنبى عليه السلام ، فغضب غضبا شديدا فقال لليهود :

— يا أعداء الله عليكم لعنة الله . والذى نفسى بيده إن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله — ﷺ — لأضربن عنقه بالسيف .

— ألستم تقولونها ؟!

فأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم ﴾[1] .

وما كانوا يكفون عن الهزء والسخرية والجدل وإن نزلت فيهم آيات بينات تلزمهم الحجة وتنال من كبريائهم وتطعن غرورهم وتكشف جهل ورثة الكتاب الأول والعلم الأول : فقد طال عليهم الأمد فقست قلوبهم .

وجاء — ﷺ — جماعة من اليهود بأطفالهم فقالوا له :

— يا محمد هل على أولادنا هؤلاء من ذنب ؟

— لا .

— والذى تحلف به ما نحن إلا كهيئتهم : ما من ذنب نعمله بالليل إلا كُفر عنا بالنهار وما من ذنب نعمله بالنهار إلا كفر عنا بالليل .

فأنزل الله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء ولا يُظلمون فتيلا * انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما

---

(١) البقرة ١٠٤ .

مبينا ﴾(١) .

ورأى أحبار اليهود أن محاجتهم لمحمد عليه السلام لا تعود عليهم إلا بالخسران المبين ، فعقدوا العزم على أن يبذلوا كل جهودهم ليثنوه عن الطريق القويم ، فاجتمع ابن صوريا وشاس بن قيس وكعب بن أسيد وقالوا :

— نبعث إلى محمد لعلنا نفتنه فى دينه .

فجاءوا إليه — ﷺ — فقالوا :

— يا محمد قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم ، وإن اتبعناك اتبعك كل اليهود وبيننا وبين قوم خصومة فنحاكمهم إليك فتقضى لنا عليهم فنؤمن بك .

كانوا يحدثونه لكأنما كان سياسيا من محترفى السياسة الذين يؤمنون بأن الغاية تبرر الوسيلة ، فعرضوا عليه عرضا يسيل لعاب أى رجل من رجال الدنيا ، فما طلبوا منه أكثر من أن يصدر حكما لمصلحتهم ثم يؤمن اليهود جميعا به . إنه عرض يدير رأس أى طامع فى الرياسة أو الزعامة ، ولكنه كان رسول رب العالمين قد بعثه ليعلم الناس مكارم الأخلاق ، لا يحيد عن الحق وإن وقف وحده فى وجه الدنيا بأسرها ، فلم يأبه لعرضهم الذليل و لم يقبل أن يخالف ضميره ليكسب تأييد اليهود وتصديقهم ، وماذا يهمه من اليهود ما دام الله معه يؤيده ويبارك خطاه ويشرح صدور الصالحين بأنوار اليقين ؟ فأبى ذلك عليهم فنزل قول الله تعالى : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس

---

(٣) النساء ٤٩ ، ٥٠ .

لفاسقون * أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾(١) .

كان الحوار مشبوب الأوار بين رسول الله — ﷺ — وبين أحبار اليهود ، وكان أشراف الأوس والخزرج الذين لم يشرح الله صدورهم للإيمان يكتمون البغضاء فى قلوبهم للرسول عليه السلام وكانت تبدو أحيانا فى أفواههم . وذات يوم ركب رسول الله — ﷺ — إلى سعد بن عبادة يعوده من شكوى أصابته على حمار عليه إكاف فوقه قطيفة فدكية مختطمة بحبل من ليف ، وأردف — ﷺ — أسامة بن زيد خلفه ، فمر بعبد الله بن أبى بن سلول وهو فى ظل حصنه وحوله رجال من قومه ، فلما رآه رسول الله — ﷺ — استنكف من أن يجاوزه حتى ينزل فنزل فسلم ثم جلس فتلا القرآن ودعا إلى الله عز وجل وذكر بالله وحذر وبشر وأنذر ، وعبد الله بن أبى رافع رأسه لا يقبل عليه كبرا قد أطبق شفتيه لا ينبس بكلمة ، حتى إذا فرغ رسول الله — ﷺ — من مقالته قال ابن أبى :

— يا هذا إنه لأحسن من حديثك هذا إن كان حقا ، فاجلس فى بيتك فمن جاءك له فحدثه إياه ومن لم يأتك فلا تغشه به ولا تأته فى مجلسه بما يكره منه .

فقال عبد الله بن رواحة فى رجال كانوا عنده من المسلمين :

— بل فاغشنا به وأتنا فى مجالسنا ودورنا وبيوتنا ، فهو والله ما نحبه وما أكرمنا الله به وهدانا له .

فقال عبد الله حين رأى من خلاف قومه ما رأى :

متى لم يكن مولاك خَصْمك لم تزل
تـــذلُّ ويصرعك الذيـــــن تُصارع

---

(١) المائدة ٤٩ ، ٥٠ .

وهل ينهض البازى[1] بغير جناحه

وإن جز يوما ريشه فهو واقع

فقام رسول الله — ﷺ — فدخل على سعد بن عبادة وفى وجهه ما قال عدو الله ، فقال سعد :

— والله يا رسول الله إنى لأرى فى وجهك شيئا ، لكأنك سمعت شيئا تكرهه .

— أجل .

ثم أخبره بما قال ابن أبى فقال :

— يا رسول الله ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم له الخرز لنتوجه ، فإنه ليرى أنك قد سلبته ملكا .

٢٠

كان للبغايا أشهر سقيفة فى يثرب ، فكان شباب القبائل العربية يخرجون فى قوافل قومهم المنطلقة إلى المدينة وقد شغلت رءوسهم بفتيات سادات الأوس والخزرج واليهود صاحبات الرايات الحمر ، فقد كن من الفرس والروم والشام والحبشة والعرب . وكان لعبد الله بن أبى بن سلول إماء من كل جنس يكرههن على الزنا ليأخذ أجورهن فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا ﴾[2] . فزاد ذلك فى عداوة ابن أبى بن سلول لرسول الله عليه السلام ، فإن كان محمد صلوات الله وسلامه عليه قد حرمه من الملك لما جاء إلى المدينة فإنه يحرض الإماء على

---

(١) البازى : طير من الجوارح .   (٢) النور ٣٣ .

ألا يستجبن لرغبات ساداتهن إذا ما أكرهوهن على البغاء . ولو سمعن قوله وتمردن على العمل لنضب أهم موارد ثراء أعظم أشراف أهل المدينة .

ورأى عبد الله بن أبى بن سلول أن قومه قد دخلوا فى الإسلام ، فإن بقى على دينه فإنه يعزل نفسه عن الأحداث الجارية فى المدينة ويفقد شرفه فيهم . أما إن دخل فيما دخلوا فيه فهو يحافظ بذلك على مكانته ويكون قريبا من الأحداث مما ييسر له الكيد للإسلام والمسلمين وانتهاز أية بادرة ضعف ليثب عليه ويستعيد حلمه القديم ألا وهو وضع التاج على رأسه ليصبح صاحب الكلمة العليا فى المدينة .

وأسلم عبد الله بن أبى بن سلول ليكون رأس المنافقين . أما أبو عامر بن عمرو بن صيفى الراهب فأبى إلا الكفر بعد أن لبس المسوح وطاف بالأرض يتنسم أخبار النبى الأمى الذى أظل زمانه ، فلما قدم رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة جاءه فقال له :

ــ ما هذا الدين الذى جئت به ؟

ــ جئت بالحنيفية دين إبراهيم .

ــ فأنا عليها .

ــ إنك لست عليها .

ــ بلى . إنك أدخلت يا محمد فى الحنيفية ما ليس منها .

ــ ما فعلت . ولكنى جئت بها بيضاء نقية .

ــ الكاذب أماته الله طريدا غريبا وحيدا .

ــ أجل ، فمن كذب ففعل الله تعالى ذلك به .

وانصرف الراهب وقد وطن النفس على تكذيب محمد عليه السلام ومناصبته العداء ، فقال عليه السلام :

ــ لا تقولوا الراهب ولكن قولوا الفاسق ..

وانضاف إلى يهود رجال من الأوس والخزرج أظهروا الإسلام رياء ، فكانوا يجلسون إلى رسول الله — ﷺ — ثم ينقلون حديثه للمنافقين ساخرين مستهزئين . وكان منهم نبتل بن الحرث فإنه جلس إليه عليه السلام ثم ذهب إلى حيث كان المنافقون وقال لهم وقد لوى شفته السفلى استخفافا :

— إنما محمد أذن ، من حدثه بشيء صدقه .

فأنزل الله تعالى : ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أُذن قل أُذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ﴾(١) .

كان نبتل رجلا جسيما مسترخى الشفتين ثائر شعر الرأس أحمر العينين ، كبده أغلظ من كبد الحمار ، وكان ذا وجهين يجلس إلى الرسول عليه السلام بوجه ويقبل على المنافقين بوجه آخر ، فكان إذا ما جلس إليهم هون من شأن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وقد كشف أمره القرآن وقال رسول الله فيه :

— من أحب أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحرث .

وقامت خصومة بين بعض رجال ممن يُدْعون بالإسلام وبين رجال من المسلمين ، فرأى المسلمون أن يمشوا بخصومتهم إلى رسول الله — ﷺ — فأبى المنافقون ودعوهم إلى الكهان حكام أهل الجاهلية ، فأنزل الله عز وجل فيهم : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا * وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى

---

(١) التوبة ٦١ .

الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا * فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا * أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا * وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما * فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾(١) .

وأسلم من أحبار يهود نفاقا رجال آمنوا بأن الإسلام أمتن من أن يهاجموه صراحة فدخلوا فيه ليكيدوا له ويكونوا كالسوس ينخرون فى قواعده فى غفلة من أهله لعله ينهار يوما فيحققون ما عجز عنه أعداؤه السافرون .

كانوا يحاولون أن يشككوا فى القرآن معتمدين على أنهم أهل الكتاب الأول والعلم الأول مستغلين التوراة التى كتبت فى أرض السبى ليفتنوا المسلمين عن دينهم ، فلما ذكر رسول الله — ﷺ — سليمان بن داود فى المرسلين قال بعض أحبارهم :

— ألا تعجبون من محمد ، يزعم أن سليمان بن داود كان نبيا ، والله ما كان إلا ساحرا .

وكانوا معذورين فى زعمهم فالتوراة التى بين أيديهم ما كانت ترى فى سليمان أكثر من ملك بنى الهيكل ثم مات كافرا . إنهم زوجوه ألف جارية وصوروه ملكا غارقا فى الشهوات كملوك الفرس الذين أذلوهم فى المنفى . فلما ذكره القرآن فى المرسلين وكرمه وأكد أن الله سخر له الريح

---

(١) النساء ٦٠ — ٦٥ .

ومنحه ملكا لا ينبغى لأحد من بعده سخروا من ذلك القول . وما وجدوا فيما فعله سليمان عليه السلام إلا السحر المبين !

كانوا يحلمون وهم فى المنفى فى بابل بالملك أكثر من النبوة والرسالة . فقد أتى بختنصر على ملكهم بينا النبوة كانت لا تزال فيهم ، فأكثروا من الحديث عن داود الملك وسليمان الملك فى توراتهم التى كتبوها بأيديهم ليعبروا عن آمالهم وأمانيهم وليبثوا فى الشعب الذليل روح الأمل بعودة سلطانهم . فلما جاء محمد عليه السلام بالحق كان ذلك الحق غريبا عليهم ، فراحوا يقصون على المسلمين أقاصيص التوراة ليفسدوا الدين القيم وليقفوا فى وجه انتشاره الذى أذهلهم وأقض مضاجعهم .

وقالوا له :

— أخبرنا عن الروح .

قال عليه السلام :

— أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل هل تعلمونه جبريل ، وهو الذى يأتينى ؟

— نعم . ولكنه يا محمد لنا عدو وهو ملَك إنما يأتى بالشدة وبسفك الدماء ، ولولا ذلك لاتبعناك .

فأنزل الله عز وجل : ﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين * من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين * ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون * أوَ كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون * ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون * واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان

ولكن الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلّمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شرَوا به أنفسهم لو كانوا يعلمون * ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾[1] .

وراحت الأيام تمر والحوار دائر بين محمد عليه السلام واليهود والكافرين والمنافقين ، والقرآن ينزل من السماء ليلزم الجميع الحجة ويبين لهم ما فيه يختلفون . وأهل الكتاب فى دهشة من أمر ذلك الأمى الذى لم يقرأ فى كتب الأولين ويعجبون من أين له هذا العلم الغزير ، ولولا أن طمس الله على قلوبهم لانقادوا له طائعين سامعين مجيبين .

ومر أبو ياسر بن أخطب برسول الله — ﷺ — وهو يتلو فاتحة البقرة : ﴿ ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾[2] فوقف وقد شغل ذهنه بما سمع ، فأتى أخاه حيى بن أخطب فى رجال من يهود فقال :

— تعلموا والله ، لقد سمعت محمدا يتلو فيما أنزل عليه : ﴿ ألم * ذلك الكتاب ﴾ .

فقالوا فى عجب :

— أنت سمعته ؟

— نعم .

فمشى حيى بنو أخطب فى أولئك النفر من يهود إلى رسول الله — ﷺ ، فقالوا له :

---

(١) البقرة ٩٧ — ١٠٣ .　　(٢) البقرة ١ ، ٢ .

— يا محمد ، ألم يذكر لنا أنك تتلو فيما أنزل إليك : ﴿ أَلم * ذلك الكتاب ﴾ ؟

— بلى .

— أجاءك بها جبريل من عند الله ؟

— نعم .

— قد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه بين لنبى منهم ما مدة ملكه وما أكل أمته (طول مدتهم) غيرك .

والتفت حيى بن أخطب إلى من معه فقال لهم :

— الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون ، فهذه إحدى وسبعون سنة ؛ أفتدخلون فى دين إنما مدة ملكه وأكل أمته إحدى وسبعون سنة ؟

ثم أقبل على رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا محمد ، هل مع هذا غيره ؟

— نعم .

— ماذا ؟

— ﴿ المص ﴾(١) .

— هذه والله أثقل وأطول ، الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون ، فهذه إحدى وستون ومائة سنة ، هل مع هذا يا محمد غيره ؟

— نعم ﴿ الر ﴾(٢) .

— هذه والله أثقل وأطول ، الألف واحدة واللام ثلاثون والراء مائتان ، فهذه إحدى وثلاثون ومائتان ، هل مع هذا غيره يا محمد ؟

— نعم ﴿ المر ﴾(٣) .

---

(١) الأعراف ١ .　(٢) يونس ١ .　(٣) الرعد ١ .

— هذه والله أثقل وأطول ، الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مائتان ، فهذه إحدى وسبعون ومائتا سنة .

وصمت قليلا ثم قال :

— لقد لُبِّس علينا أمرك يا محمد ، حتى ما ندرى أقليلا أعطيت أم كثيرا ؟

ثم قاموا عنه ، فقال أبو أيسر لأخيه حيى بن أخطب ولمن معه من الأحبار :

— ما يدريكم لعله قد جمع هذا كله لمحمد ، إحدى وسبعون وإحدى وستون ومائة وإحدى وثلاثون ومائتان وإحدى وسبعون ومائتان ، فذلك سبعمائة وأربع وثلاثون سنة .

— لقد تشابه علينا أمره .

وكانت صفية بنت حيى بن أخطب تصغى إلى حديث أبيها وعمها أبى ياسر فإذا به يدور حول محمد عليه السلام على الدوام ، وإذا به يقطر حقدا وضغينة على الرجل الذى جاء يدعو إلى المحبة والسلام . إنها تحس عطفا على رسالته بل حماسة إلى دعوته . وإن همسا غريبا يهجس فى أغوار أغوارها أن سيكون لها شأن فى حياة النبى عليه السلام . ولو رفعت عن بصيرتها حجب الغيب لرأت نفسها زوجة للرسول صلوات الله وسلامه عليه ولخفق قلبها سرورا وتهللت بالفرح بأن من الله عليها بأن تصبح أم المؤمنين .

٢١

وافى الموسم فخرجت قبائل العرب إلى سوق مجنة ليبتاعوا ويبيعوا ويذبحوا الذبائح ويتقربوا إلى آلهتهم لتبارك لهم فى تجارتهم . وراح أهل مكة يتأهبون لاستقبال الحجيج ، فغدا العباس بن عبد المطلب يضع الأحواض فى كل مكان ويملؤها بالماء فهو صاحب السقاية. وجعل عتبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وحكيم بن حزام وسادات قريش يعدون الطعام لفقراء الناس . وخرجت القوافل من مخازن التجار لتنساب إلى أسواق مجنة وعكاظ وذى مجاز .

وتأهب أبو سفيان ليسير بقريش إلى حيث يخرج الناس فهو سيدهم وقاضيهم وصاحب الكلمة فيهم بعد أن طوى الزمن سادات بنى هاشم . إنه تاجر يحب الغنم دائما وأن يكسب من صلاته بالناس . لا يعنيه الدين بل كان ما يهمه من أمره الجاه والسلطان . وقد ساءه أن يفلت محمد عليه السلام منهم يوم أن هاجر إلى المدينة واشتد غيظه لا لأنه كان يخشى ألا تعبد اللات والعزى فى الأرض إذا ما ظهر دين محمد بن عبد الله . بل لأنه كان يعلم علم اليقين خطورة محمد عليه السلام على تجارة قريش إذا ما دانت له يثرب .

وراح أبو العاص بن الربيع يتأهب للخروج بتجارته مع قومه وزينب بنت محمد عليه السلام تعد لزوجها ما يصلحه وقد لاح الأسى فى وجهها .. إنها شهدت شهادة الحق مذ أول يوم عاد فيه أبو القاسم إلى داره من غار حراء بعد أن هبط عليه الوحي . وكانت ترجو أن يؤمن أبو العاص بالدين القيم فهو كريم الخلق اشتهر بين قومه بالأمين كما اشتهر بذلك أبوها

من قبل . ولكن أبا العاص ظل على دين قومه و لم يحاول أن يردها عن الإسلام .

كان أبو العاص نعم الزوج وكانت زينب تبذل كل جهد لإرضاء ابن الخالة ، ولكن كثيرا ما كان اختلاف العقائد يقوم حائلا بين أن ترفرف السعادة الكاملة بجناحيها على الدار ، فخالتها هالة بنت خويلد وكل أهل البيت كانوا على وثنيتهم بينا كانت هى تعبد الله وحده وتسبحه بكرة وأصيلا .

وتحسست بيدها القلادة التى قدمتها الطاهرة إليها هدية يوم زفافها فإذا الدموع تترقرق كاللآلىء فى مقلتيها ، فطيف أمها لا يغيب عن خيالها أبدا . فإن كانت خديجة أم المؤمنين قد أصبحت فى الغابرين فان صوت خالتها هالة كان يبعث القشعريرة فى بدنها كلما مس أذنيها ثم يوقظ ذكريات سيدة نساء قريش من مرقدها ، فقد كان صوت حاضنة الإسلام وصوت أختها من معدن واحد ، له نفس الجرس والنبرة وتأثيره العميق فى نفوس سامعيه .

أحست يوم أن ماتت أمها أن نبع الحنان قد غاض فعذبتها لوعة الأسى . ولكن أباها العظيم غمرها بحبه الكبير فمسح على نفسها بالرحمة وأذهب عن فؤادها الشجن ، وكانت زيارتها لبيت أبيها عليه السلام تجعلها تستشعر أنها ليست وحيدة فى دنياها ، فوجودها بين أخيها هند ابن هالة وأختيها أم كلثوم وفاطمة الزهراء وابن عمها على بن أبى طالب وربيب أبيها زيد بن محمد وزوجه أم أيمن ونساء المسلمين كان يقوى روحها ويشد أزرها .

كانت فى بيت زوجها قلقة على الرغم من حبه وعطفه ورعايته ، فهى مؤمنة يحيط بها الكافرون . بينا كانت فى بيت أبيها مطمئنة راضية مستبشرة . فهى فى منبع النور ترشف مع الآخرين فى سعادة روحية رحيق الإيمان المختوم .

وكانت تتلوى من الألم كلما سمعت باضطهاد قومها لأبيها الكريم . وسرعان ما يذوب العذاب إذا ما أشرق عليها نبي الله عليه السلام بابتسامته العذبة وغمرها بعطفه السابغ . فتسمو فوق الآلام وتنزع ذاتها إلى أفراح الروح وتستشعر خصب الوجود .

كانت سعادتها مستمدة من القرب منه والنظر إليه وإلقاء سمعها إلى الحكمة التي تتدفق من بين شفتيه . فيتألق نور العقل وتربو طمأنينة النفس وتتحرر الذات من كل القيود لتهيم مستبشرة فى عالم الملكوت . فلما بلغها أن أباها قد هاجر إلى يثرب فرارا بدينه أحست كأن قلبها ينصهر ونزل بها حزن ثقيل وهرعت إلى داره شاردة اللب قلقة منزعجة مضطربة . لا تملك من أمرها إلا أن تذرف الدموع .

إنها ضمت أختيها أم كلثوم وفاطمة إلى صدرها وهى تجاهد آلام نفسها . فإذا يخيل إليها أنها ترى من خلال دموعها خديجة أم المؤمنين مقبلة من مخدعها . فانتفضت انتفاضة سرت إلى العزيزتين الغاليتين اللتين احتوتهما فى حضنها فارتفع نحيبها . فأقبلت أم أيمن وفى أثرها ابنها أسامة بن زيد فراحت تمسح عنهن الأحزان وتقول إن لقاء الأحبة قريب .

وجاء زيد بن حارثة وحمل ابنتي رسول الله عليه السلام أم كلثوم وفاطمة وحمل زوجه أم أيمن وولده أسامة حب رسول الله — ﷺ — وخرج بهم . وخرج معه عبد الله بن أبى بكر وقد حمل أسماء وعائشة بنت أبى بكر وأمها أم رومان وأهل بيت الصديق . فأحست زينب وحشة قاسية فى مكة فهى لا تستطيع أن تلحق بالمسلمين . فهى فى كنف رجل كريم وإن ظل على دين آبائه .

وباتت غريبة فى مكة فلم يعد معها من المسلمين إلا المستضعفين الذين عجزوا عن الهجرة أو الذين حبسوا لئلا يهاجروا إلى الرسول . وكان

عزاؤها الوحيد إقبال العباس عليها بأنباء النبى صلوات الله وسلامه عليه ، فقد كانت تلك الأنباء تخفف لوعة الفراق وتدسس فى النفس الأمل . وإن كانت إذا ما خلت بنفسها تعجب من أين تأتى العباس بن عبد المطلب أخبار ابن أخيه ؟

وكانت إذا ما هزها الحنين إلى أبيها وأخواتها تخرج من دار زوجها إلى العاص بن الربيع وتنطلق إلى دار خديجة لتمد الطرف إلى البيت الذى شهدت فيه أسعد الأيام وحملت له أعذب الذكريات فتستشعر كأنما تلثم بعينيها فى حنان وانفعال رمز الأمانى والآمال وكنز الوجود . ففى تلك الدار تفتحت عيناها على النور مرتين . يوم أن ولدت ويوم أن ولدت من جديد لما جاء أبوها العظيم من الغار يحمل رسالة السماء .

وكانت إذا ما أرقها الشوق واستبد بها الحنين تسعى إلى قبر الطاهرة أم المؤمنين تبث روحها ما يمور فى صدرها من إحساسات وتغسل أحزان نفسها بالدموع ، ثم تنقلب إلى أهل أبى العاص بن الربيع تعيش بينهم على أمل أن يهدى الله زوجها ويشرح صدره للإسلام فيهاجران إلى أبيها الكريم ويتحق الحلم الكبير .

وخرجت قوافل مكة وعلى رأسها أبو سفيان بن حرب وقد حمل زوجته هند بنت عتبة فى هودج . وخرج أبو العاص بن الربيع مع الخارجين وهو يقود جملا عليه هودج فيه زينب بنت محمد عليه السلام . وغدت زينب تتلفت فإذا بجميع سادات قريش فى القافلة : أبى الحكم بن هشام وعتبة بن أبى ربيعة وأخيه شيبة وأمية بن خلف وأخيه أبى وحكيم بن حزام والوليد بن المغيرة وخالد بن الوليد والعاص بن وائل وعمرو بن العاص وأبى لهب بن عبد المطلب والأسود بن عبد يغوث والنضر بن الحارث ومنبه بن الحجاج والسائب بن صيفى وعقبة بن أبى معيط والحكم

ابن أبى العاص .

ولم يغب عن الركب إلا محمد صلوات الله وسلامه عليه ومن هاجر معه من المسلمين . فخنقت زينب العبرات وهاجت الذكريات فظلت فى شرود حزين حتى طاف بها طائف رحيم راح يهمس فى أغوار نفسها أن ما من رجل من هؤلاء الرجال إلا وله ابن أو قريب قد هاجر مع أبيها العظيم . فإن كان محمد عليه السلام قد غاب اليوم عن القوم فقد غاب أيضا فلذات الأكباد والأحباب ، وإن كان قد مسها قرح فقد مس القوم قرح مثله . إلا أنها على الرغم من أحزان قلبها مستبشرة بهجرة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بينا القوم أذلة قد كفر الأبناء بآلهة الآباء وفضلوا عليهم عدوهم المبين.

وحطت قريش الرحال فى سوق مجنة . السوق التى تشوق إليها بلال بن رباح فى مهجره فقال :

وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يبدون لى شامة وطفيل ؟

كانت زينب بنت محمد عليه السلام تستشعر نفس الإحساس فقد كانت تتساءل فى نفسها عما إذا كان سيأتى يوم يملأ فيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه وصحبه هذه البطاح . ويذكرون الله ويسبحون بالعشى والإبكار ؟ وراحت ترقب فى أسى ما يمارس القوم من شعائر الجاهلية وتعجب فى عين ذاتها لقومها الذين عميت قلوبهم فى صدورهم عن الهوى والرشاد .

وكانت تستشعر غربة ووحشة وإن جلست إلى هند بنت عتبة وصويحباتها اللاتى أمضت طفولتها وشبابها معهن . وما كانت تنعم بالراحة والحرية والأنس إلا إذا كانت مع أم الفضل امرأة العباس . فقد كانت تغذى جفاف عواطفها بغيث حنانها وحلاوة إيمانها الصادق العميق .

وكانت تتهلل بالفرح لما ترى أم الفضل تجاهد فى غرس مبادئ الإسلام

النقية فى أغوار فؤاد ابنها عبد الله بن عباس .

وتصرمت أيام مجنة فتدفق الناس إلى سوق عكاظ من الوهاد والنجاد والدروب والوديان والجبال . ونزلت القبائل على مياهها ومراعيها تحت راياتها ، وتأهب سادات قريش للحكم بين الشعراء . وقد صار أبو سفيان ابن الحارث ابن عم النبى وشبيهه وتربه الذى لم يفارقه أبدا قبل الإسلام وشاعر قريش من أشهر الحكام . وكانت زينب تستشعر أسى كلما وقعت عيناها عليه فكيف غاب عن لب الشاعر الأريب الصديق أن يهتدى إلى جوهر الإسلام وإعجاز القرآن ؟

وامتدت الأبصار إلى الشعراء وهم يتوجهون إلى القبة التى ضربت للنابغة الذبيانى ، وغدا الناس يذكرون أسماءهم . لقد وردوا جميعا إلى عكاظ ولم يغب عنهم إلا حسان بن ثابت شاعر الخزرج ، فقد أسلم الشاعر الذى كانت تفتح له قصور ملوك الغساسنة ويقدم إليه أفضل الأطعمة والمشروبات وتشنف أذنيه أشهر المغنيات . وفضل أن يكون بالقرب من رسوله الكريم الذى أخرجه من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام . وكان المسجد المتواضع فى عينيه أعظم من كل قصور الحيرة والشام . وكان حديث نبى الله عليه السلام فى نفسه أروع من كل ما سمع من الشعراء فى كل الأسواق .

وأقبل هودج مسوَّم فاتجهت الأنظار إليه فما جاء إلى عكاظ من قبل هودج قد جعلت له علامة يعرف بها ويميز ، وهبطت الخنساء منه وعرف سبب تميزها لهودجها فهى تعاظم العرب بمصيبتها فى أبيها عمرو بن الشريد وأخويها صخر ومعاوية ابنى عمرو .

إن الناس ليذكرون تلك الأيام التى كان عمرو بن الشريد يمسك فيها بيدى ابنيه صخر ومعاوية فى المواسم ويقول :

أنـــا أبـــو خيرى مضر ومـــن نكـــر فليعـــتبر

و لم ينكر أحد فقد كان صخر بن عمرو شريفا فى بنى سليم حليما جوادا شجاعا . و كان أخوه معاوية من أشهر فرسان القبائل فى الجاهلية .

و كان عمر معاوية قصيرا ، ففى موسم من مواسم عكاظ لقى جارية جميلة عند هاشم بن حرملة فدعاها إلى نفسه فامتنعت ، فقتله هاشم بن حرملة لما خرج غازيا يريد بنى مرة وبنى فزارة فى فرسان أصحابه من سليم .

ودخل الشهر الحرام من السنة التالية لقتل معاوية فخرج صخر بن عمرو حتى أتى بنى مرة بن عوف بن ذبيان وهو على فرسه الشماء فقال :

— إنى أخاف أن يعرفونى ويعرفوا غرة الشماء فيتأهبوا .

فسود غرتها ، فلما أشرفت على أدنى الحى رأوها فقالت فتاة منهم :

— هذه والله الشماء .

فنظروا فقالوا :

— الشماء غراء وهذه بهيم .

فلم يشعروا إلا والخيل دوائس فاقتتلوا فقتل صخر دريدا ووقف على ابنى حرملة فإذا أحدهما به طعنة فى عضده وقال لهما :

— أيكما قتل أخى معاوية ؟

فسكتا فلم يحيرا إليه شيئا .

فقال الصحيح للجريح وكان هاشم بن حرملة :

— ما لك لا تجيبه ؟

— وقفت له فطعننى هذه الطعنة فى عضدى وشد أخى عليه فقتله ، فأينا قتلت أدركت ثأرك . إلا أنا لم نسلب أخاك .

— فما فعلت فرسه الشماء ؟

— ها هى تلك خذها .

— فهل كفنتموه ؟

— نعم فى بردين أحدهما بخمس وعشرين بكرة .

— فأرونى قبره .

فأروه إياه . فلما رأى جزع عنده ثم قال :

— كأنكم قد أنكرتم ما رأيتم من جزعى . فوالله ما بت منذ عقلت إلا واترا أو موتورا أو طالبا أو مطلوبا ، حتى قتل معاوية فما ذقت طعم نوم بعده .

ولم يكتف صخر بما ظفر من نصر وقتل أخذا بثأر أخيه . إنما مضى بالتنكيل بأعدائه فغزا بقومه وترك الحى خلوا ، فاهتبلت غطفان الفرصة فأغارت على سليم ، ولكنها كانت واهمة فى تقديرها فمن بقى من غلمان سليم استطاعوا أن يقتلوا من غطفان نفرا وانهزم الباقون ، فنالت سليم نصرا مزدوجا . نصرا بزعامة صخر ونصرا بقهرها غطفان حينما أغارت عليهم .

ولم يقنع صخر بانتصاراته فأصر على أن ينكل بأسد حليفة غطفان ليكون نصره عاما شاملا ويشفى غليله من هؤلاء الحلفاء الذين وقفوا يشاركون بنى غطفان القتال ، فجمع الجموع وأغار على بنى أسد بن خزيمة فالتقوا فاقتتلوا قتالا شديدا ، فارفض أصحاب صخر عنه وطعن طعنة فى جنبه وثبت فى النزال ، فعاد إليه أصحابه فأصاب غنائم وسبيا وأخذ بديلة فتزوجها ، فلما صار إلى أهله تعالج من الطعنة فنتأ من الجرح مثل اليد ، فأضناه ذلك حولا .

وسأل سائل امرأته :

— كيف صخر اليوم ؟

— لا ميت فينعي ولا صحيح فيرجى :

ومات صخر متأثرا بجرحه ، وجاءت الخنساء إلى الموسم ترثى الأحبة فانطلقت إلى قبة الشعراء ، فخف الناس إليها وقد ألقوا إليها سمعهم فراحت تنشد :

أعينـــى جـــودا ولا تجمـــــدا	ألا تبكيان لصخـر النـدى ؟
ألا تبكيـــان الجرىء الجميـــل	ألا تبكيـــان الفتـــى السيـــدا ؟
طويـل النجـاد رفيـع العمـــا	د ساد عشيرتـــــه أمــــردا
إذا القـــوم مـــدوا بأيـــديهم	إلى المجد مـــد إليـــه يـــدا
فنـــال الـــذى فـــوق أيـــديهم	مـــن المجد ثم مضى مصعـــدا
يكلفـــه القـــوم مـــا عـــالهم	وإن كان أصغرهـــم مولـــدا
تـــرى المجد يهوى إلى بيتـــه	يرى أفضل الكسب أن يحمـدا
وإن ذكـــر المجد ألفيتـــــه	تـــأزر بـــالمجد ثم ارتـــدى

وكانت زينب بنت محمد عليه السلام تصغى إلى رثاء الخنساء لأخويها فتحس بالألفاظ تقطر جزعا ، ولا جرم فالخنساء ترى فى موت الأحبه نهاية الحياة والعدم فهى على دين قومها . ولو أن ديار سليم عن يسار المدينة فأهلها كانوا مشغولين عن النور الذى بزغ فيها بالحروب الطاحنة الدائرة بينهم وبين جيرانهم ، فلو أن بنى سليم دخلوا فى الدين القيم لوجدت الخنساء فيه خير العزاء ، ولمسح عن قلبها الحزن والشجن .

وأقبل العباس بن عبد المطلب على ابنة محمد عليه السلام وطفق يقص عليها أنباء المهاجرين إلى المدينة وما شجر بين الرسول عليه السلام وبين يهود من حوار . وهى مقبلة عليه تصغى فى اهتمام حتى إذا ما انتهى من حديثه قالت له :

— ومن أين لك كل هذه الأنباء ؟

— من حجاج المدينة .

ومر أبو سفيان بن حرب بهما فقال له :

— ما وراءك يا أبا الفضل ؟

فانطلق العباس وأبو سفيان يتحدثان وزينب ترقب عم أبيها وهى شاردة حائرة لا تدرى أكان العباس على دين قومه حقا أم اعتنق الإسلام وكتم إسلامه لأمر أهم من إعلانه . فكل ما يفعله العباس فى مكة وفى الأسواق إنما يؤكد للعين الفاحصة أنه عين رسول الله صلوات الله عليه وسلامه وأذنه على أعدائه وأعداء الدين .

٢٢

كان الجدل دائرا بين الفريسيين والصدوقيين فى يثرب قبل أن يهاجر إليها رسول الله — ﷺ ، فاليهود قد أغرموا بالمناقشات الدينية أينما وجدوا وفى أى موضوع سمعوا حتى إن تفسيرات التوراة كانت أكداسا . وقد اختلفوا فى الحرام والحلال اختلافا شديدا فكانت الفرق اليهودية وكانت أماكن دراستهم عامرة بالحوار الذى لا طائل تحته . فلما جاء رسول الله عليه السلام إلى المدينة وجدوا فى مناقشته فرصة طيبة لممارسة هوايتهم الحبيبة وإظهار ما عندهم من علم وكانوا يعتقدون أنه علم من عند الله . وما خطر لهم على قلب أنه قد تأثر بأساطير الشعوب لما طال عليهم العهد فامتزج بعلم الله أوهام البشرية ومعتقدات الجاهلية .

كانوا يسألونه وكان القرآن يرد عليهم ردودا قاطعة مفحمة ، فكانوا يندحرون وهم يعجبون ثم يجمعون أنفسهم ويعاودون إلقاء السؤال فى إثر السؤال لعله يخطئ يوما فيقيم اليهود عليه الحجة فينفض أنصاره من

حوله ، دون أن يدخلوا معه فى معركة حربية سافرة .

جاءوه يسألونه :

— بمن تؤمن من الرسل ؟

﴿ .. آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾(١) .

كانوا يريدون أن يعترضوا على إسماعيل ولكنهم خافوا أن يكذبهم من أسلم من اليهود . فإسماعيل قد ورد ذكره فى التوراة وقد بشر الملك أمه بأن سيجعله أمة عظيمة ، أما عيسى عليه السلام فما جاء له فى التوراة من ذكر ، فقد نزلت على موسى عليه السلام قبل أن يولد المسيح بمئات السنين فجحدوا نبوته وقالوا :

— لا نؤمن بعيسى ولا بمن آمن به .

فأنزل الله تعالى : ﴿ قل يأهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون ﴾(٢) .

— يا محمد ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه . وتؤمن بما عندنا من التوراة وتشهد أنها من الله حق ؟

كان على علم بما طرأ على التوراة من تبديل وأن أحبارهم قد غيروا فيها . أضافوا إليها وحذفوا منها فقال :

— بلى ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق وكتمتم منها ما أمرتم أن تبينوه للناس . فبرئت من أحداثكم .

— فإنا نأخذ بما فى أيدينا ، فإنا على الهدى والحق ولا نؤمن بك ولا

---

(١) البقرة ١٣٣ .　　　(٢) المائدة ٥٩ .

تتبعك .

فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ .. يأهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين ﴾(١) .

ـــ يا محمد أما تعلم مع الله إلها غيره ؟

ـــ لا إله غيره بذلك بعثت وإلى ذلك أدعو .

فأنزل الله تعالى : ﴿ قل أى شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم وأوحى إلىَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون * الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾(٢) .

ـــ أحق يا محمد أن هذا الذى جئت به حق من عند الله ؟ فإنا لا نراه متسقا كما تتسق التوراة .

كانت التوراة تقص القصص الذى كتب فى أرض المنفى ، تقص قصة نوح لما سكر وتعرت عورته وقصة لوط لما اضطجع مع ابنته . وقصة داود لما انتزع من قائده أوريا زوجته غدرا ، وقصة سليمان لما كفر . وقصة إستر مع إمبراطور الفرس وكيف أن عمها مردخاى قدمها محظية إلى البلاط الفارسي وإذا بكتاب التوراة يرفعونها إلى مرتبة القداسة . أما القرآن فما كان عملا أدبيا من خيال قاص أو شاعر بل كان من عند الله ينبض بالحكمة وينطق بالحق فهو كتاب منير مبين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، فقال لهم رسول الله عليه السلام :

---

(١) المائدة ٦٨ .　　　　(٢) الأنعام ١٩ ، ٢٠ .

ــ أما والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله تجدونه مكتوبا عندكم . ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا به ما جاءوا به .

ــ يا محمد أما يعلمك هذا إنس ولا جن ؟

ــ أما والله إنكم لتعلمون أنه من عند الله وإنى لرسول الله ، تجدون ذلك مكتوبا عندكم فى التوراة .

ــ يا محمد فإن الله يصنع لرسوله إذا بعثه ما يشاء ويقدر منه على ما أراد . فأنزل علينا كتابا من السماء نقرؤه ونعرفه وإلا جئناك بمثل ما تأتى به .

فأنزل الله تعالى ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾[1] .

واستمر اليهود فى الجدل والمنافقون فى النفاق . ففى ذات يوم خرج عبد الله بن أبى بن سلول وأصحابه فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ــ ﷺ ــ فقال عبد الله بن أبى :

ــ انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم .

فذهب فأخذ بيد أبى بكر فقال :

ــ مرحبا بالصديق سيد بنى تيم وشيخ الإسلام وثانى رسول الله فى الغار . الباذل نفسه وماله .

ثم أخذ بيد عمر فقال :

ــ مرحبا بسيد بنى عدى بن كعب الفاروق القوى فى دين الله الباذل نفسه وماله لرسول الله .

ثم أخذ بيد على فقال :

---

(١) الإسراء ٨٨ .

ـــ مرحبا بابن عم رسول الله وختنه سيد بنى هاشم ما خلا رسول الله .

ثم افترقوا فقال ابن سلول لأصحابه :

ـــ كيف رأيتمونى فعلت ؟ فإذا رأيتموهم فافعلوا كما فعلت .

فأثنوا عليه خيرا . فأنزل الله تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون * وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون* ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون * وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون * وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون * الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون * أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين * مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمى فهم لا يرجعون * أو كصيّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴾[1] .

وسمع يهود هذه الآيات البينات فأحسوا قهرا فما نزل مثلها فى التوراة . وأبوا أن يعترفوا بما فى نفوسهم ورأوا أن يسخروا منها قبل أن

---

(١) البقرة ٨ ـــ ٢٠ .

تسحر الناس ببلاغتها فقالوا :

— الله أجل وأعلى من أن يضرب الأمثال .

فأنزل الله تعالى : ﴿ إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين ﴾(١) .

وضاقت صدور اليهود حرجا بما أنزل الله ولكنهم مجادلون بطبعهم قد ملأ الغرور جوانحهم فراحوا يضحكون ويقولون :

— ما يشبه هذا كلام الله .

فإذا ما انصرفوا قال الرجل منهم لصهره ولذوى قرابته ولمن بينهم وبينه رضاع من المسلمين :

— اثبت على الدين الذى أنت عليه وما يأمرك به . وهذا الرجل فإن أمره حق .

كانوا يعترفون فى نجواهم للأنصار أن أمر محمد عليه صلوات الله وسلامه حق . فإذا ما لقوه طفقوا به يستهزئون . فأنزل الله فيهم : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون * وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون * ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين * أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾(٢) .

---

(١) البقرة ٢٦ .

(٢) البقرة ٤٠ — ٤٤ .

وكان سلمان الفارسي يختلف إلى رسول الله — ﷺ — وصحبه فقد كانوا يعملون لجمع المال الذى يحرر سلمان من رقه . وكان سلمان لا يفتأ يتحدث عن عبادة أصحابه فى الدير واجتهادهم ويقول :

— يا رسول الله كانوا يصلون ويصومون ويؤمنون بك ويشهدون أنك تبعث نبيا .

فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال رسول الله — ﷺ — :

— يا سلمان هم من أهل النار .

فأظلمت على سلمان الأرض فأنزل الله تعالى :

﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (١) .

فأحس سلمان كأنما كشف عنه جبل .

وكان المنافقون يحضرون المسجد يسمعون أحاديث المسلمين ويسخرون منهم ويستهزئون بدينهم . فاجتمع يوما منهم فى المسجد ناس فرآهم رسول الله — ﷺ — يتحدثون بينهم بأقصى أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض ، فأمربهم أن يُخرَجوا ، فقام أبو أيوب خالد بن زيد إلى عمرو بن قيس أحد بنى النجار وكان صاحب آلهتهم فى الجاهلية . فأخذ برجليه يسحبه حتى أخرجه من المسجد وهو يقول :

— أتخرجني يا أبا أيوب من مربد بني ثعلبة ؟!

ثم أقبل أبو أيوب أيضا إلى رافع بن وديعة أحد بنى النجار فلببه بردائه ثم نتره نترا شديدا ولطم وجهه وأخرجه وهو يقول له :

---

(١) البقرة ٦٢ .

— أف لك منافقا خبيثا ! أدراجك (ارجع من الطريق التى جئت منها) يا منافق من مسجد رسول الله — ﷺ .

وقام عُماره بن حزم إلى زيد بن عمرو وكان رجلا طويل اللحية فأخذ بلحيته فقاده بها قودا عنيفا حتى أخرجه ، ثم جمع عمارة يديه فلدمه[١] بها فى صدره لدمة خر منها فقال :

— خدشتنى يا عمارة .

— أبعدك الله يا منافق ، فما أعد الله لك من العذاب أشد من ذلك ، فلا تقربن مسجد رسول الله — ﷺ .

وقام أبو محمد مسعود بن أوس من بنى النجار إلى قيس بن عمرو بن سهل ، وكان قيس غلاما شابا ولا يعلم فى المنافقين شاب غيره ، فجعل يدفع فى قفاه حتى أخرجه .

وقام عبد الله بن الحارث من بَلْخُدره رهط أبى سعيد الخدرى إلى الحارث بن عمرو وكان ذا جُمه ، فأخذ بجمته فسحبه بها سحبا عنيفا على مامر به من الأرض حتى أخرجه ، فقال له :

— لقد أغلظت يا بن الحارث .

— إنك أهل لذلك — أى عدو الله — لما أنزل فيك . فلا تقربن مسجد رسول الله — ﷺ — فإنك نجس .

وقام رجل من بنى عمرو بن عوف إلى أخيه زُوَى بن الحارث فأخرجه إخراجا عنيفا وقال :

— غلب عليك الشيطان وأمره .

وأخرج المنافقون من مسجد الرسول إخراجا عنيفا ، فقد أصبحت

---

(١) ضربه .

العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

٢٣

كان أبو بكر قد نزل بالسنح من ضواحى المدينة على خارجة بن زيد من بنى الحارث من الخزرج ، وتزوج الصديق حبيبة بنت خارجة . ولما كان قد أنفق ماله فى تحرير الإماء والعبيد الذين هداهم الله إلى الإسلام ليخلصهم من اضطهاد ساداتهم فقد ذابت ثروته ، فراح التاجر المكى يعمل فى الزراعة مع خارجة مزارعة فى أرضه : فقد لقن رسول الله — ﷺ — أصحابه أن العمل عبادة . فأقبلوا على العمل مستبشرين .

ونزل الزبير بن العوام بيثرب وكان فقيرا ما له فى الأرض من مال ولا مملوك ولا شىء غير جمله الذى يستقى عليه وغير فرسه ، فكانت زوجه أسماء بنت أبى بكر تقوم بعلف فرسه ، فإذا ما فرغت منها خرجت تملأ الماء ثم تعود لتصلح دلوها الجلد أو لتعجن . وما كانت أسماء تحسن أن تخبز فكانت تستعين بجارات لها من الأنصار ليخبزن لها وقد كن جارات صدق . فاذا ما انتهت أعمال البيت انطلقت إلى أرض الزبير التى أقطعه رسول الله — ﷺ — وهى على ثلثى فرسخ من الدار لتعمل بها ، حتى إذا ما مالت الشمس للمغيب عادت إلى دارها لتحتضن ابنها عبد الله . وكانت أسماء تعرف شدة غيرة زوجها فكانت تتحاشى كل ما يثيره ، فإذا ما ذهبت لزيارة أبيها وأخواتها فى السنح كانت تخرج فى صحبة الزبير ، وكانت تمد بصرها إلى عائشة فكانت تراها رقيقة حلوة نامية وإن كانت ذات ولع باللعب والمرح .

ووقعت عينا أبى بكر على ابنته ذات العينين الواسعتين والقـدمين

الصغيرتين والشعر الجعد ، فاذا بفكرة تزويجها تحتل رأسه . إنها كانت مخطوبة لجبير بن مطعم بن عدى ثم خطبها رسول الله — ﷺ — ولم يبن عليها . وانطلق الصديق من السنح حتى أتى رسول الله عليه السلام فقال له :

— ما يمنعك أن تبنى بأهلك ؟

— الصداق .

فأعطاه أبو بكر اثنتى عشرة أوقية ونشا . فبعث بها رسول الله عليه السلام إلى دار أبى بكر فغمر أم رومان فرح شديد ، وهل هناك أمنية أغلى من أن يتزوج رسول الله صلوات الله عليه ابنتها ؟

وكان الشهر شوال . وفتحت دار أبى بكر بالسنح لرسول الله — ﷺ — واجتمع إليه رجال ونساء من الأنصار ، فجاءت أم رومان إلى عائشة وهى فى أرجوحة بين نخاتين فأنزلتها من الأرجوحة وفرقت شعرها ومسحت وجهها بشىء من ماء ، ثم أقبلت تقودها حتى وقفت بها عند الباب وهى تنهج حتى سكن بعض نفسها ، ثم أدخلتها الدار فإذا نسوة من الأنصار فى البيت فقلن :

— على الخير والبركة وعلى خير طائر .

فأسلمتها أم رومان إليهن وأصلحن من شأنها ، ثم دخلت بها إلى حيث كان رسول الله عليه السلام فإذا به جالس على سرير وعنده رجال ونساء من الأنصار ، فأجلستها فى حجر رسول الله عليه السلام ثم قالت :

— هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهن وبارك لهن فيك .

فوثب الرجال والنساء فخرجوا ، وبنى عليها رسول الله — ﷺ — نهارا فى بيتها فما نحرت جزور ولا ذبحت شاة ، حتى أرسل إليهم سعد بن عبادة بجفنته التى كان يرسلها وبقدح من لبن ، فشرب النبى — ﷺ —

بعضه وشربت عائشة باقيه .

كان زواجا بسيطا يتساوق مع بساطة حياة محمد صلوات الله وسلامه عليه . ولكنه ربط بين رسول الله وصاحبه الذى ضحى بماله وراحته وتجارته فى سبيل قضية الإسلام وانتشار الدعوة فى الآفاق . وكان أبو بكر على ثقة من أن ابنته ستجد السعادة فى بيت صديقه العظيم الذى يكلم من السماء .

وحملت عائشة إلى دار الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — التى كانت ملتصقة بمسجده ، وكانت فى تلك الدار سودة بنت زمعة السيدة البدينة التى ما كان أحد يحس وجودها . ففاطمة الزهراء وأم كلثوم وعلى ابن أبى طالب وهند بن أبى هالة ابن خديجة أم المؤمنين كانوا ينظرون إليها على أنها سيدة مسنة مؤمنة فقدت عائلها فجاءت إلى بيت نبى الله عليه السلام لتخدمه وتسهر عليه ، أما وجود عائشة فى الدار فكان شيئا آخر يختلف كل الاختلاف عن وجود بنت زمعة !

كانت عائشة صغيرة السن ولكنها كانت تعرف مكانتها فى دار رسول الله عليه السلام ، فكانت لا ترى فى سودة بنت زمعة منافسة لها فى قلب الرسول عليه السلام بل كانت ترى فيها سيدة ترعى شئون الدار .

وذات يوم أعدت عائشة طعاما ودعت رسول الله إليه فجلس بينها وبين سودة .. وقدمت عائشة لسودة شيئا منه فاعتذرت سودة بأنها لا تحبه . فقالت لها عائشة إنها ستلطخ به وجهها إن لم تأكل . فأعادت سودة الاعتذار ، فقامت عائشة ولطخت به وجه سودة فضحك النبى عليه السلام ولم يقل شيئا . وابتسمت سودة فغاية أمانيها أن تدخل الفرحة على قلبه صلوات الله وسلامه عليه :

كانت حياته عليه السلام كفاحا واضطهادا وأحزانا وكدا ونصبا وما

كان فيها شيء بهيج ، حياة قاسية قسوة الصحراء ، فكانت عائشة الواحة التي يلوذ بظلها الظليل من هجير الحياة . وغدت السيدة الصغيرة تبذل كل ما في طاقتها لإسعاد زوجها الطيب الرحيم الأمين الذى لا يدخر وسعا لإسعاد كل البشر .

وبدا أن عائشة تحتل مكانة الطاهرة وسيدة نساء قريش فى قلب رسول الله عليه السلام . فتحركت الغيرة منها فى قلوب بنات الرسول وأبناء خديجة ، ففاطمة الزهراء التى عرفت منذ موت أمها بأم الرسول لحدبها عليه استشعرت أن بنت أبى بكر قد نزلت بقلب أبيها منزلة خديجة . وأنها صارت تشاطرها حب أبيها وتقاسمها عطفه الكبير ، فما كانت بقادرة على أن تقبل عليها بقلب سليم .

وكان هند بن أبى هالة يستشعر بالأسى يعتصر فؤاده كلما وقعت عيناه على عائشة . كان على يقين من أن أمه وأم المؤمنين جميعا خديجة بنت خويلد هى حب الرسول عليه السلام الكبير . فلما بنى على العذراء بنت أبى بكر وغمرها بحنانه دبت الغيرة منها فى قلب ابن خديجة وربيب الرسول .

وكان على بن أبى طالب قد شب فى كنف خديجة . فإن كانت فاطمة بنت أسد أمه فما عاش فى أحضانها قدر ما عاش بين ذراعى سيدة نساء قريش وأم المؤمنين ، فهو لا يطيق أن يرى امرأة أخرى فى دار ابن عمه الحبيب تتخذ مكان السيدة الطاهرة التى أحبها من كل قلبه .

ورأت عائشة حب النبى لابنته وقيامه لها إذا حضرت وإقباله عليها وشدة حبه إياها فكانت تغار من ذلك الحب النبيل . وإن كانت تكتم حقيقة مشاعرها وتطوى عليها صدرها حتى لا تغضب الرجل الذى أحبته بكل خلجة من خلجات فؤادها .

وكان نبى الله عليه السلام يحب ربيبه وابن عمه على بن أبى طالب حبا

عظيما ، وما كان يكتم ذلك الحب بل كان يعلنه على الملأ فى كل مناسبة .
وقد ساء عائشة أن يكون لعلى نصيب كبير فى قلب زوجها فكانت تحس نحوه بنفس ما يستشعره الزبير بن العوام نحو ربيب الرسول عليه السلام وابن عمه ، فقد مر برسول الله مع الزبير فى بنى غنم فرأى رسول الله عليا على مقربة منه فضحك له وضحك على يحييه ، ورأى الزبير تهلل أسارير ابن أبى طالب فأحس شيئا فى صدره عبر عنه بقوله :

— لا يدع ابن أبى طالب زهوه !

فقال رسول الله — ﷺ — مدافعا عن حبيبه وربيبه وابن عمه :

— إنه ليس به زهو ، ولتقاتلنه وأنت له ظالم .

وكانت الغيرة أبرز صفات الزبير . ففى ذات يوم حملت أسماء بنت أبى بكر النوى من أرض زوجها الزبير على رأسها وانطلقت إلى الدار . وفى الطريق قابلت رسول الله — ﷺ — ومعه نفر من الأنصار . ورأى النبى حملها فأشفق عليها فشاء أن يحملها على راحلته خلفه فهى أخت زوجه وابنة صديقه وزوجة ابن عمته ، فهتف :

— أسماء .

ثم قال لبعيره : « إخ . إخ » لينيخ بعيره . ولكن أسماء لم تتقدم ، تذكرت شدة غيرة الزبير . فعرف رسول الله أنها استحيت أن تسير مع الرجال فمضى ولم يلتفت خلفه ، ومضت أسماء حتى بلغت الدار تحمل النوى على رأسها وهى تحاول أن تلتقط أنفاسها . وأقبل الزبير فقالت له :

— لقينى رسول الله — ﷺ — وعلى رأسى النوى ومعه نفر من أصحابه ، فأناخ لأركب فاستحييت منه وعرفت غيرتك .

— والله لحملك النوى كان أشد على من ركوبك معه .

وبلغ أبا بكر ما تقاسيه ابنته من مشاق وما تقوم به من أعمال فبعث إليها

بخادم تكفيها سياسة الفرس ، ففرحت فرحا شديدا لكأنما قد أعتقها أبوها .

ونبتت بذور الغيرة التي تنبت فى كل بيت فى صدور أهل البيت ، وستتعهدها الأيام لتنمو وتشتد حتى تتحكم فى أخطر حقبة من التاريخ .

٢٤

كان وحده فى غار حراء ولم يكن معه إلا ربه الذى يناجيه . وفى ليلة من ليالى رمضان التى كان يتحنث فيها أضاءت الأنوار جنبات الغار ونزل الروح الأمين عليه بوحى الله . فانقلب إلى أهله يدعوهم إلى عبادة الله وحدة لا شريك له .

وأمر أن ينذر عشيرته الأقربين فخرج إليهم ليس معه سيف ولا أنصار وكان كل ما معه دعوة كلف بها وتأييد من الله . فدخل فى الدين دون إكراه من شرح الله صدره لأنوار اليقين وكفر به من طمس الله على قلوبهم . واستمر بضع عشرة سنة ينذر بالدعوة بغير قتال .

كان يأتيه أصحابه بمكة ما بين مضروب ومشجوج وثائر فيقول لهم :

— اصبروا فإنى لم أومر بالقتال .

ونفد صبر بعضهم فجاءه جماعة منهم عبد الرحمن بن عوف والمقداد بن الأسود وقدامة بن مظعون وسعد بن أبى وقاص وقد نزل بهم أذى كبير من المشركين فقالوا :

— يا رسول الله كنا فى عز ونحن مشركون . فلما آمنا صرنا أذلة ، فأذن لنا فى قتال هؤلاء .

— كفوا أيديكم عنهم .

لم يأمره الله إلا إلا بالإنذار والصبر على الأذى والكف عن المشركين . وراح القرآن يتحدث عن الفتح فيسخر الكافرون من ذلك القول . فأنزل الله تعالى : ﴿ ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين* قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون * فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون ﴾(١) .

وانتشر الإسلام فى مكة دون سلاح بل على الرغم من الأسلحة التى أشهرت فى وجهه . واضطر المسلمون إلى أن يفروا بدينهم من وجه الاضطهاد إلى الحبشة ثم إلى المدينة . واستقر أمره ـ ﷺ ـ بعد الهجرة وكثر أتباعه فقد دخل الأنصار فى دين الله عن رضا وقدموا محبته عليه السلام على محبة آبائهم وأبنائهم وأزواجهم . وأصر المشركون على الكفر والتكذيب واشتد كيد اليهود للإسلام فى المدينة . وبدا أن الركون للسلام قد يقوض الدولة الفتية التى تكونت من المهاجرين والأنصار وأنها مهددة بالغزو من الخارج أو بالطعن من الداخل طعنة تزهق الروح التى أشرقت فى أرض المهجر بنور الله ، فكان لابد أن يصان ذلك المجتمع الذى سيحمل رسالة النور إلى العالمين ، فأوحى الله إلى عبده : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾(٢) .

وأذن الله تعالى لنبيه عليه السلام ولأصحابه فى قتال من قاتلهم وبدأهم به . وكرهت جماعة القتال بعد أن استقروا فى المدينة وشق ذلك عليهم وكان منهم من جاء إلى الرسول عليه السلام فى مكة يستأذنه فى قتال المشركين . فقال لهم عليه السلام آنذاك : كفوا أيديكم عنهم فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا

---

(١) السجدة ٢٨ ، ٢٩ .   (٢) البقرة ١٩٠

الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا ﴾(١) .

وأذن الله للذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق بالقتال ووعد بنصرهم . فأنزل تعالى : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾(٢) . فخرج رسول الله — ﷺ — بالمهاجرين ليس فيهم أنصارى . كانوا سبعين رجلا من أصحابه ليعترض عيرا لقريش وبنى ضمرة لعله يستولى على ما يعوض بعض ما صادره الكافرون من أموال المهاجرين .

كانت قريش قد استولت على دور المهاجرين وعلى أموالهم وتجارتهم ، وقد حبست المستضعفين من المسلمين عن الخروج إلى يثرب ليلحقوا بإخوانهم الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . وكان موقفها من المسلمين لا يتفق مع السماحة التى تمارسها مع اليهود والنصارى والمجوس والصابئين . فقد كان أصحاب الديانات يمارسون شعائرهم فى مكة فى حرية حتى لقد وضع تمثال للعذراء وهى تحمل طفلها بين تماثيل آلهتهم ، بينا اضطهد محمد عليه صلوات الله وسلامه وصحبه أشد الاضطهاد وعذبوا أقسى العذاب حتى اضطروا إلى أن يهاجروا فرارا من الأذى الذى يفوق طاقة البشر .

وانطلق المهاجرون فى طريق الأبواء وقد حمل حمزة بن عبد المطلب اللواء وكان أبيض ، وكان أول لواء لرسول الله — ﷺ — وتذكر عليه

السلام وهو فى الطريق ذلك اليوم الذى كان عائدا فيه من يثرب مع أمه آمنة بعد أن زارا قبر أبيه فى دار عدى بن النجار. فقد هبت عاصفة هوجاء كادت تخلع الهودج . فمالت أمه عليه واحتوته بين أحضانها لتحميه من الريح الصرصر العاتية . وظلت صابرة على قسوة سفع الرياح حتى سكنت العاصفة وروحها تتسرب من بين جنبيها . لقد ماتت فى الطريق و لم يكن معه إلا أم أيمن . فحمل الجثة الغالية معه فى الهودج حتى دخل الأبواء ليدفنها هناك بعيدة عن قبر زوجها ، بعيدة عن أهلها ، غريبة فى الأرض لن تجد من يزور قبرها .

كانت تلك اللحظات قمة مأساة طفولته فقد ذاق بعدها مرارة اليتم وإن غمره جده عبد المطلب بحبه وحنانه حتى لحق بأمه آمنة.لقد مر على ذلك عشرات السنين ولكن الذكرى الأليمة حفرت فى أعماقه فهو لايستطيع أن ينسى آلام نفسه وتلك العبرات الحارة التى ذرفها على أمه الراحلة .

وبلغ رسول الله — ﷺ — ودان وهى قرية كبيرة بينها وبين الأبواء ستة أميال . وعرف هناك أن قافلة قريش القادمة من الشام قد رحلت فى طريقها إلى مكة وأنها أفلتت من قبضته ، فنزل بودان و لم يلق كيدا . ولقى سيد بنى ضمرة مجدى بن عمر الضمرى فصالحه على ألا يغزوهم ولا يغزوه ولا يكثروا عليه جمعا ولا يعينوا عليه عدوا . وكتب بينه وبينهم كتابا : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد رسول الله لبنى ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم وأن لهم النصرة على من رامهم إلا أن يحاربوا فى دين الله ما بل بحر صوفة . وأن النبى — صلوات الله عليه وسلامه — إذا دعاهم لنصرة أجابوه عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله » .

ورجع رسول الله — ﷺ — إلى المدينة ليشتد الجدل بينه وبين يهود .

وفيما هو فى مسجده عليه السلام جاءه أن عيرا لقريش قادمة من الشام فيها أمية بن خلف ومائة رجل من قريش وألفان وخمسمائة بعير ، فأمر عليه السلام أصحابه من المهاجرين بأن يتأهبوا للخروج ، فلما سمع بلال أن أمية بن خلف فى القافلة ثارت دماؤه فى عروقه فهو لا ينسى تلك الأيام التى كان يعذبه فيها أمية ، وهو يراه رأس الكفر ويرجو أن يمكنه الله منه ليثأر لما ناله .

واستعمل — ﷺ — على المدينة سعد بن معاذ وعقد لواءه الأبيض لسعد بن أبى وقاص ، ثم خرج فى مائتين من أصحابه من المهاجرين خاصة يريد عير قريش ، حتى إذا بلغ بواط وجد أن العير قد مضت فرجع إلى المدينة ولم يلق كيدا .

وراح الرسول عليه السلام يرصد قوافل قريش ، فقد أذن الله له ولمن هاجر معه بأن يقاتل الذين أخرجوهم من ديارهم بغير حق ، وكان غرضه عليه السلام أن يسترد من القرشيين بعض ما سلبوه من أموال المهاجرين .

وجاء رجل إلى الرسول — ﷺ — يخبره أن عيرا لقريش متوجهة للشام قد جمعت قريش جميع أموالها فيها، لم يبق بمكة لا قرشى ولا قرشية له مثقال فصاعدا إلا بعث به فى تلك العير إلا حويطب بن عبد العزى، وأن فى تلك العير خمسين ألف دينار وألف بعير ، وفيها أبو سفيان بن حرب وهو قائدها ومعه تسعة وثلاثون رجلا منهم مخرمة بن نوفل وعمرو بن العاص .

فخرج رسول الله — ﷺ — فى مائتين من المهاجرين حتى بلغ العشيرة وقد حمل اللواء عمه حمزة ، واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد .

خرجوا على ثلاثين بعيرا يتعقبونها فوجدوا العير قد مضت قبل ذلك بأيام ، فنزلوا ليستريحوا قبل أن يرجعوا إلى المدينة .

وغدا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يتفقد أصحابه فوجد على بن أبى طالب نائما هو وعمار بن ياسر وقد سفت الرياح التراب على ابن عمه حتى كادت تغمره ، فجعل عليه السلام يرنو إلى على فى حب ثم أيقظه برجله فى رفق وهو يقول :

— قم أبا تراب .

وقدم — صلى الله عليه وسلم — من غزوة العشيرة إلى المدينة ، وما انقضت ليالى لم تبلغ العشرة حتى أغار كرز بن جابر الفهرى على النعم والمواشى التى تسرح للمرعى ، فاستعمل عليه السلام على المدينة زيد بن حارثة وحمل اللواء الأبيض على بن أبى طالب ثم خرج عليه السلام خلف كرز بن جابر حتى بلغ وادى سفوان من ناحية بدر . وفاته كرز و لم يدركه ثم قفل راجعا إلى المدينة .

إن الله أذن له بقتال من أخرجوهم ظلما من ديارهم ، وقد خرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى أصحابه من المهاجرين يريد عير قريش أكثر من مرة ، فإن كانت العير قد مضت قبل أن يدركها فلن تفلت منه المرة القادمة ، ولينصرن الله من ينصره وإن الله لقوى عزيز .

٢٥

اطمأنت برسول الله — صلى الله عليه وسلم — داره وأظهر الله بها دينه وسره بما جمع إليه من المهاجرين والأنصار من أهل ولايته ، وأبو قيس بن أبى أنس فى مسجده يعبد ربه ، فقد كان رجلا قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح وفارق الأوثان واغتسل من الجنابة وتطهر من الحائض من النساء ، وهم بالنصرانية ثم أمسك عنها ودخل بيتا له اتخذه مسجدا لا تدخله عليه فيه

طامث ولا جنب وقال : أعبد رب إبراهيم .

وفارق أبو قيس الأوثان وكرهها حتى قدم رسول الله — ﷺ — المدينة ، فخرج إليه يلقى إليه سمعه لا يبغى إلا كبد الحقيقة التى عاش ينشدها حتى صار شيخا كبيرا . فلما رتل رسول الله — ﷺ — القرآن أحس الشيخ لكأنما أنوار الحكمة تشرق فى قلبه، وأنه قد اقترب من ربه قربا حقيقيا ، وأن الحجاب الذى كان بين فؤاده والكون قد رفع ، فنظر بعين بصيرته إلى ملكوت السماء فإذا بالرحمة تفيض عليه ، وإذا بصدره ينشرح ، وإذا بحقائق الأمور تتلألأ فى عين ذاته ، وإذا به يهتدى إلى أن ما يسمعه هو الحق من ربه فطفرت الدموع من عينيه .

إنه طاف بالأرض فى أثر النور ، أصغى إلى أحبار اليهود ورهبان النصارى وكهان العرب والصابئة والمجوس واقتنى الكتب وعكف على قراءتها حتى انتهى به الأمر إلى أن دخل بيتا له فاتخذه مسجدا يعبد فيه رب إبراهيم ، فلما مس أذنيه آيات الله أحس بكل جوارحه أنها من الله وطريق الوصول إليه ، وأنها تفوق كل ما سمعه وما قرأه فهى تعرف سبيلها إلى القلب لتجلوه وتزكيه وترفع الروح إلى آفاق مشرقة من نفحات رب العالمين .

وكان قلب أبى قيس سليما من الغل والحسد ، ولم تكن له مطامع فى الدنيا غير الاهتداء إلى الحق والحقيقة فأعلن فى فرح فياض إسلامه . ولما كان شاعرا فقد راح ينشد بما يعتمل فى صدره من إحساسات :

سبحوا الله شرق كل صباح	طلعت شمسه وكل هلال
عالم السر والبيان لدينا	ليس ما قال ربنا بضلال
وله الطير تستزيد وتأوى	فى وكور من آمنات الجبال

وتعلق قلب الشيخ برسول الله — ﷺ — وأحبه حبا يفوق حب أبنائه

وذويه . وكان يجد سعادة عارمة كلما ذكره ، فغدا ينظم الأشعار يذكر ما أكرمهم الله تبارك وتعالى به من الإسلام وما خصهم الله به من نزول رسوله — صلى الله عليه وسلم — عليهم :

ثوى فى قريش بضع عشرة حجة ... يذكّر لو يلقى صديقا مواتيا
ويعرض فى أهل المواسم نفسه ... فلم ير من يُؤوى ولم ير داعيا
فلما أتانا أظهر الله دينه ... فأصبح مسرورا بطيبة راضيا
وألفى صديقا واطمأنت به النوى ... وكان له عونا من الله باديا
يقص لنا ما قال نوح لقومه ... وما قال موسى إذ أجاب المناديا
فأصبح لا يخشى من الناس واحدا ... قريبا ولا يخشى من الناس نائيا
بذلنا له الأموال من حل مالنا ... وأنفسنا عند الوغى والتآسيا
ونعلم أن الله لا شيء غيره ... ونعلم أن الله أفضل هاديا
نعادى الذى عادى من الناس كلّهم ... جميعا وإن كان الحبيب المُصافيا
أقول إذا أدعوك فى كل بيعة : ... تباركت قد أكثرت لاسمك داعيا
أقول إذا جاوزت أرضا مخوفة ... حنانيك لا تظهر على الأعاديا
فطأ مُعرضا إن الحتوف كثيرة ... وإنك لا تُبقى لنفسك باقيا
فوالله لا يدرى الفتى كيف يتقى ... إذا هو لم يجعل له الله واقيا
ولا تحفل النخلُ المعيمة[1] ربها ... إذا أصبحت ريا وأصبح ثاويا

وكان شعراء المسلمين يمتدحون رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بينا كان كعب ابن الأشرف شاعر اليهود يهجوه ، والمنافقون يتولون اليهود والمشركين ويأتونهم بالأخبار ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكان نفر من اليهود يباطنون نفرا من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم فقال

---

(١) العاطشة .

بعض المؤمنين لأولئك النفر من الأنصار :

ـــ اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا لزومهم ومباطنتهم لا يفتنوكم عن دينكم .

فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم وملازمتهم فأنزل الله تعالى :

﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير ﴾(١) .

فاجتنب الأنصار ملازمة اليهود ومباطنتهم فزاد ذلك فى حقدهم على رسول الله عليه السلام ، فما يأتى المؤمنين بأمر حتى يقولوا : سمعنا وأطعنا . فرأوا أن خير ما يفعلونه أن يكيدوا الرسول الله وللقرآن فتواطأ اثنا عشر حبرا من يهود خيبر وقال بعضهم لبعض :

ـــ ادخلوا فى دين محمد أول النهار باللسان دون الاعتقاد واكفروا به فى آخر النهار وقولوا : إنا نظرنا فى كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمدا ليس بذلك وظهر لنا كذبه وبطلان دينه . فإذا فعلتم ذلك يشك أصحابه فى دينهم وقالوا : إنهم أهل كتاب وهم أعلم به منا فيرجعون عن دينهم إلى دينكم .

واطمأنوا إلى ما دبروا ، وقبل أن يمشوا بالفتنة بين المسلمين أوحى الله إلى عبده : ﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون * ولا تؤمنوا إلا لمن تبعَ دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم * يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾(٢) .

---

(١) آل عمران ٢٨ .   (٢) آل عمران ٧٢ ـــ ٧٤ .

وضايق اليهود أن كشف القرآن مكرهم ، ولم يفت فى عضدهم أن أطلع الله رسوله عليه السلام على سرهم فقد ظنوا أن بعضهم يمشى إليه بنجواهم فاستمروا فى كيدهم لنبى الله ، فأتى كعب بن الأشرف ومالك ابن الضيف ووهب بن يهوذا وزيد بن ثابود وفنحاص بن عازوراء وحيى بن أخطب رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقالوا :

ـــ تزعم أن الله بعثك إلينا رسولا وأنزل عليك كتابا وأن الله قد عهد إلينا فى التوراة أن لا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، فإن جئتنا به صدقناك .

وسمع ضعاف الإيمان والمنافقون ما قال أشراف اليهود فراحوا ينتظرون آية مادية تراها أعينهم ، ورفت بسمات خبيثة على شفاه أعداء محمد عليه السلام من اليهود والمشركين والمنافقين وترقبوا رد رسول الله عليه السلام على ذلك التحدى الذى ما كان يختلف كثيرا عن تحدى كفار قريش لما سألوه عليه السلام أن يفجر لهم من الأرض عيونا ويجعل لهم جنات وأن يحيل الصفا إلى ذهب نضار ، فإن الله أنزل : ﴿ قل إنما الآيات عند الله ﴾(١) . ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾(٢) . ليتلو ذلك على كفار قريش ، أما اليهود أهل الكتاب الأول الذين يؤمنون بالوحى فقد أنزل الله تعالى للرد على تحديهم : ﴿ الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين * فإن كذبوك فقد كذّب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير ﴾(٣) .

---

(١) العنكبوت ٥٠ .　　(٢) الأسراء ٥٩ .

(٣) آل عمران ١٨٣ ، ١٨٤ .

كانوا يحاولون أن يزعزعوا إيمان المؤمنين بافتراءاتهم ، ولكن القرآن كان ينزل من فوق سبع سماوات ليكشف كيدهم ويفضح سرهم فيزعزع ثقة بعض اليهود بأشرافهم ، فقد قامت خصومة بين رجل من المنافقين وبين يهودى فقال اليهودى :

ـــ انطلق بنا إلى محمد .

فقال المنافق :

ـــ بل نأتى كعب بن الأشرف .

كان اليهودى يعلم أن محمدا عليه السلام لن يجور عليه ، وكان المنافق على يقين أن رسول الله عليه السلام لا يقبل الرشوة بينا يستطيع أن يرشو كعب بن الأشرف ، ولكن اليهودى أبى إلا رفع الخصومة إلى محمد صلوات الله وسلامه عليه ، فلما رأى المنافق ذلك أتى معه إلى الرسول فاختصما إليه ، فقضى رسول الله ﷺ لليهودى ، فلما خرجا من عنده لزمه المنافق وقال :

ـــ ننطلق إلى عمر بن الخطاب .

فأقبلا إلى عمر فقال اليهودى :

ـــ اختصمنا أنا وهذا إلى محمد فقضى لى عليه فلم يرض بقضائه وزعم أنه مخاصم إليك ، وتعلق بى فجئت إليك معه .

فقال عمر للمنافق :

ـــ أكذلك ؟

ـــ نعم .

ـــ رويدا حتى أخرج إليكما .

فدخل عمر وأخذ السيف فاشتمل عليه ثم خرج إليهما وضرب به المنافق حتى برد وقال :

— هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله .

وأنزل الله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا * وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا * فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا * أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا * وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ﴾[1] .

وكان للمؤمنين مشاكلهم فكانوا يفزعون إلى رسول الله — ﷺ — يلتمسون عنده النصيحة ، فقد جاءه عبد الله بن رواحة يقول له إن له أمة سوداء وأنه غضب عليها فلطمها ثم إنه فزع ، فقال له النبى — ﷺ :

— ما هى يا عبد الله ؟

— يا رسول الله هى تصوم وتصلى وتحسن الوضوء وتشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسوله .

— يا عبد الله هذه مؤمنة .

— فوالذى بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجنها .

وأعتق عبد الله بن رواحة شاعر الأنصار أمته السوداء وتزوجها ، فطعن عليه ناس من المسلمين فقالوا فى عجب واستنكار :

— نكح أمة .

---

(١) المائدة ٦٠ — ٦٤ .

وكان ذلك شيئا يحط من كرامة الرجال ، ولكن الإسلام جاء ليرد إلى البشرية كرامتها ، فالناس جميعا لآدم وآدم من تراب لا فرق بين حر وعبد ولا أبيض ولا أسود ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ﴾[1]

وكان مرثد بن أبى مرثد حليفا لبنى هاشم فبعثه رسول الله — ﷺ — إلى مكة ليخرج ناسا من المسلمين بها أسراء فلما قدمها سمعت عناق بمقدمه وكانت خليلة له فى الجاهلية ، فلما أسلم أعرض عنها فأتته فقالت :

— ويحك يا مرثد ، ألا نخلو ؟!

— إن الإسلام قد حال بينى وبينك وحرمه علينا ، ولكن إن شئت تزوجتك . إذا رجعت إلى رسول الله — ﷺ — استأذنته فى ذلك ثم تزوجتك .

— أنت تتبرم .

ثم استغاثت عليه وفضحت أمر قدومه فضربوه ضربا شديدا ثم خلوا سبيله ، فانصرف إلى رسول الله — ﷺ — راجعا فاستأذنه فى عناق أن يتزوجها ، وكانت ذات حظ من جمال ، قال :

— يا نبى الله إنها لتعجبنى .

فأنزل الله عز وجل : ﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ﴾[2] .

وكان الأوس والخزرج ينظرون إلى اليهود فى إجلال قبل الإسلام فهم أهل الكتاب والعلم ، فلما من الله عليهم بالإسلام أحس الأنصار عزة وراحوا يناقشون جيرانهم فى ثقة فما آتاهم الله من فضله يفوق ما عند اليهود

---

(١) البقرة ٢٢١ . (٢) البقرة (٢) .

من بقايا دين قويم وأساطير الشعوب . وأحس اليهود أن القرآن قد رفع من شأن حلفائهم الذين كانوا يهرعون إليهم فى حل مشاكلهم وبدلهم تبديلا ، فتحركت غيرة أهل الكتاب فقالوا للمسلمين :

ــ نحن أهدى منكم ، نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أولى بالله منكم .

وقال المسلمون :

ــ نحن أهدى منكم وأولى بالله ، نبينا خاتم الأنبياء وكتابنا يقضى على الكتب التى قبله . فأنزل الله تعالى : ﴿ ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا * ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا * ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾[١] .

٢٦

وبعث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عبد الله بن جحش ابن عمته فى رجب ، عند رجوعه من غزوة سفوان التى بلغ فيها مياه بدر ، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد ، وكتب له كتابا وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضى لما أمره به ، ولا يستكره من أصحابه أحدا .

وكان أصحاب عبد الله بن جحش من المهاجرين ثم من بنى عبد شمس

---

(١) النساء ١٢٣ ــ ١١٥ .

ابن عبد مناف : أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، ومن حلفائهم عبد الله بن جحش وهو أمير القوم ، وعكاشة بن محصن بن حرثان أحد بني أسد بن خزيمة حليف لهم . ومن بني نوفل بن عبد مناف عتبة بن غزوان حليف لهم . ومن بني زهرة سعد بن أبي وقاص . ومن بني عدى بن كعب عامر ابن ربيعة ، وواقد بن عبد الله بن مناف أحد بني تيم حليف لهم ، وخالد بن البكير أحد بني سعد بن ليث حليف لهم . ومن بني الحارث بن فهر سهيل ابن بيضاء .

فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فيه فإذا فيه : إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم .

فلما نظر عبد الله بن جحش فى الكتاب قال :

ـــ سمعا وطاعة .

ثم قال لأصحابه :

ـــ قد أمرنى رسول الله ﷺ أن أمضى إلى نخلة أرصد بها قريشا حتى آتيه منهم بخبر . وقد نهانى أن أستكره أحدا منكم فمن كان يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فماض لأمر رسول الله ـــ ﷺ .

فمضى ومعه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد .

وسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له بحران ، أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرا لهما كانا يتعقبانه ، فتخلفا عليه فى طلبه .

ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة ، فمرت به عير لقريش تحمل زبيبا وأدما (جلدا) وتجارة من تجارة قريش فيها عمرو

ابن الحضرمى ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان ، والحكم بن كيسان مولى بنى المغيرة .

فلما رأى القوم عبد الله بن جحش والذين معه هابوهم ، فأشرف لهم عكاشة بن محصن وكان قد حلق رأسه ، فلما رأوه اطمأنوا فقد حسبوا أن المسلمين قد قدموا للعمرة وقالوا :

— عُمَّار ، لا بأس عليكم منهم .

وتشاور عبد الله بن جحش وأصحابه فيهم وذلك فى آخر يوم من رجب ، فقال القوم :

— والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن منكم به ، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام .

فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم ، ثم شجعوا أنفسهم عليهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم ، فرمى واقد بن عبد الله التيمى عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله ، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، وأفلت القوم نوفل بن عبد الله فأعجزهم .

وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير وبالأسيرين حتى قدموا على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المدينة ، فلما علم ما كان منهم قال :

— ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام .

فوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا ، فلما قال ذلك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سقط فى أيدى القوم وظنوا أنهم قد هلكوا ، وراح إخوانهم من المسلمين يعنفونهم فيما صنعوا . وماجت المدينة ونشط اليهود يوقظون الفتنة حتى إذا خلوا بأنفسهم تعلقوا بالأوهام وراحوا يتفاءلون وهم أهل الكتاب الأول ويقولون :

— عمرو بن الحضرمى قتله واقد بن عبد الله . عمرو عمرت الحرب ،

والحضرمى حضرت الحرب ، وواقد بن عبد الله وقدت الحرب .

وتهللت أساريرهم فالفأل يؤكد لهم أن الحرب واقعة وأن نهاية محمد بن عبد الله قد دنت وهى الأمنية التى نزلت بسواد أفئدتهم ، فما فضح نفاقهم مثل قرآن محمد .

وثار سادات قريش ومشوا إلى من بقى من المسلمين فى مكة وقالوا فى غضب :

ـــ قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال .

ـــ إنما أصابوا ما أصابوا فى شعبان .

وأكثر الناس فى ذلك المهاجرون والأنصار ويهود المدينة وكفار قريش ، فأنزل الله على رسوله : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾(١) .

وفرج الله تعالى عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف ، وتهلل عبد الله ابن جحش وصحبه بالفرح فقبض رسول الله صلوات الله وسلامه عليه العير والأسيرين ، وبعثت إليه قريش فى فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان فقال رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم :

ـــ لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا فإنا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم .

فسعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان لم يعودا مذ أضلا بعيرا لهما وتخلفا

---

(١) البقرة ٢١٧ .

فى طلبه ، فلما قدما قبل عليه السلام فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان .

وكان الحكم وهو فى أسره يصغى إلى ما يتلى من القرآن فيستشعر كأنما أنوار اليقين تفيض فى نفسه وأن رقة تكتنفه حتى إن الدموع تبلل روحه قبل أن تطفر من مقلتيه ، إنه يرتفع إلى ما فوق السماوات ليهيم فى ملكوت الله ، إنه يحس فى قرارة نفسه أنه خلق من جديد وأنه ملئ حكمة وأن الحجب قد رفعت عن عين بصيرته فاهتدى إلى جوهر الحقيقة وحقيقة الذات ، فلم يستطع إلا أن يشهد شهادة الحق وأن يعلن على الملأ أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

أسلم الحكم بن كيسان وأقام عند رسول الله ـــ ﷺ ، وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة وقلبه يقطر حقدا على المسلمين الذين أسروه وأخذوا فديته ينتظر الأيام ليثأر لما ناله .

وتجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه من كرب شديد حين نزل القرآن ، فطمعوا فى الأجر فقالوا :

ـــ يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين ؟

فأنزل الله عز وجل فيهم : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم ﴾[1] .

وكانت العير أول غنيمة للمسلمين فراح رسول الله ـــ ﷺ ـــ يقسم الفئ وهو سعيد ، فقد أقبلت أيام النصر بعد سنين الاضطهاد والتعذيب ، وغدا عبد الله بن جحش ينشد حين قالت قريش قد أحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه المال وأسروا

---

(١) البقرة ٢١٨ .

الرجال :

تعُدون قتلا فى الحرام عظيمة ... وأعظم منه لويرى الرشد راشد
صدودكم عما يقول محمد ... وكفر به والله راء وشاهد
وإخراجكم من مسجد الله أهله ... لئلا يرى لله فى البيت ساجد
فإنا وإن عيرتمونا بقتله ... وأرجف بالإسلام باغ وحاسد
سقينا من ابن الحضرمى رماحَنا ... بنخلة لما أوقد الحرب واقد
دما وابن عبد الله عثمان بيننا ... ينازعه غُلٌّ من القدِّ عاند(١)

٢٧

الوحى ينزل من السماء وكتاب الوحى يكتبون القرآن على العُسُب (جريد النخل) واللخاف (صفائح الحجارة) والرقاع والأديم وعظام الأكتاف والأقتاب ، ورجال من المهاجرين يبعثون بما أنزل الله على رسول الله إلى المستضعفين من المسلمين بمكة الذين حبسوا عن الهجرة ، فكانت آيات الله ترتل فى الدور سرا وسرعان ما تنتشر فى الحرم .

وكان الحوار دائرا بين المسلمين ويهود المدينة ، فلما رأى اليهود رسول الله — ﷺ — يصلى إلى بيت المقدس ويجعل الكعبة خلفه قالوا مستهزئين :

— يخالفنا محمد ويتبع قبلتنا .

وكأنما استرحوا لهذه الحجة فغدوا يقولون للمسلم .

— لو لم نكن على هدى ما صليتم لقبلتنا فاقتديتم بنا فيها !

---

(١) القد : شرك يقطع من الجلد ، وعاند : سائل بالدم لا ينقطع .

وكان رسول الله ـــ ﷺ ـــ يحب فى قرارة نفسه أن يستقبل الكعبة محبة لموافقة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . إنه لما كان فى مكة كان يتجه إلى بيت المقدس والكعبة أمامه ، أما بعد أن هاجر إلى المدينة صار إذا استقبل صخرة بيت المقدس يستدبر الكعبة ، فشق ذلك عليه وزاد فى ضيقه قول كفار قريش للمسلمين :

ـــ لم تقولون نحن على ملة إبراهيم وأنتم تتركون قبلته وتصلون إلى قبلة اليهود ؟

وود رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن الله سبحانه وتعالى صرفه عن قبلة اليهود ، فكان إذا صلى إلى بيت المقدس يكثر من النظر إلى السماء ويدعو الله فى ابتهال أن يوليه قبلة يرضاها . فبينا كان يصلى الظهر بأصحابه فى بنى سلمة وأتم ركعتين نزل جبريل فأشار إليه أن صل إلى الكعبة ، فاستدار رسول الله ﷺ إلى الكعبة فاستدار من خلفه ، فلما أتم الصلاة جعل يتلو على المصلين ما أنزل عليه : ﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها * فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون ﴾(١) .

وخرج عباد بن بشر وكان صلى مع رسول الله ـــ صلوات الله عليه وسلامه ـــ ومر على قوم من الأنصار يصلون العصر وهم راكعون فقال :

ـــ أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ـــ ﷺ ـــ قبل البيت .

فتحولوا نحو الكعبة .

وبينا الناس بقباء فى صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال :

---

(١) البقرة ١٤٤ .

— إن رسول الله — ﷺ — قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها .

وقام رجال على أبواب المساجد ينادون :

— إن الصلاة قد وجهت نحو الكعبة .

فاستداروا إلى الكعبة فرحين ، فقد كان ذلك الأمر فراقا بينهم وبين اليهود .

واجتمع قوم من كبار اليهود يتشاورون فى ذلك الأمر الخطير ، فلو أنهم لم يؤمنوا بمحمد عليه السلام ورسالته فاتجاهه إلى قبلتهم إقرار منه بعظمة تلك القبلة وقداستها وهو اعتراف ضمنى باليهودية وعلو مكانتها وفضلها على الديانات كلها ، أما أن يتخذ الكعبة قبلة ففى ذلك رفع الكعبة على بيت المقدس وقد يجعل ذلك أفئدة العرب تهوى إلى دينه . فرأوا أن يبذلوا الجهود ليعيدوه إلى قبلته الأولى ليستردوا لقبلتهم مكانتها فى نفوس العرب وليفتنوه ليعلم الناس أنه — ﷺ — فى حيرة من أمره ، فجاءوا إليه وقالوا له :

— يا محمد ، ما ولاك عن قبلتك التى كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه . ارجع إلى قبلتك التى كنت عليها نتبعك ونصدقك .

وانتظروا أن يتحول مرة أخرى إلى بيت المقدس ليعلنوا على الملأ أنه يساوم فى دينه ، فأنزل الله عليه : ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين * الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون * الحق من ربك فلا تكونن من الممترين * ولكلٍّ وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شيء

قدير * ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون * ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشونى ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون ﴾(١) .

وطاش لب اليهود فقد ردت فتنتهم إلى نحورهم ، فلن يحول محمد عليه السلام قبلته مرة ثانية إلى بيت المقدس . وقد استبشر المسلمون والكافرون العرب بأن محمدا وصحبه قد اتجهوا إلى قبلة إبراهيم ، فأراد اليهود أن يهونوا من شأن الكعبة فقالوا :

ـــ بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء وفى الأرض المقدسة .

وفرحوا بهذه الحجة ولكن القرآن نزل بآيات يؤكد فضل الحرم : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴾(٢) .

وضاق اليهود بحجج القرآن الدامغة فقالوا للمسلمين :

ـــ والله إن أنتم إلا قوم تفتنون .

فأنزل الله تعالى : ﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾(٣) .

---

(١) البقرة ١٤٥ ـــ ١٥١ . (٢) آل عمران ٩٦ .

(٣) البقرة ١٤٢ .

وقالت الصحابة له :

ـــ يا رسول الله لقد ذهب منا قوم قبل التحول فهل يقبل منا ومنهم ؟ وقد مات قبل أن تحول قبل البيت رجال فلم ندر ما تقول فيهم ؟

فأنزل الله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾(١) .

وبعدما صرفت القبلة إلى الكعبة بشهر فى شعبان من السنة الثانية للهجرة فرض صوم رمضان أو الإطعام عن كل يوم مسكينا يقول الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون * أياما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾(٢) .

فكان من شاء صام ومن شاء أطعم عن كل يوم مسكينا، ثم كان إيجاب صوم رمضان عينا بقوله تعالى : ﴿شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾(٣) .

وكانوا ينوون الصيام عقب الإفطار مباشرة ، فإذا نام أحدهم فلم يستيقظ إلا بعد الغروب فما كان يتناول شيئا بل يستأنف الصيام . وذكر

---

(١) البقرة ١٤٣ .   (٢) البقرة ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٣) البقرة ١٨٥ .

لرسول الله — ﷺ — أن بعض أصحابه سقط مغشيا عليه بسبب الصوم فسأله عليه السلام عن ذلك فأخبره أنه أهل حرث وأنه جاء لينظر ما تعمله له زوجته ليتعشى به فغلبته عينه فنام فلم يستيقظ إلا بعد الغروب فلم يتناول شيئا .

وواقع عمر بن الخطاب أهله بعدما صلى العشاء فلما اغتسل أخذ يبكى ويلوم نفسه ، فأتى النبى — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله أعتذر إلى الله وإليك من نفسى هذه الخاطئة إنى رجعت إلى أهلى فوجدت رائحة طيبة فسولت لى نفسى فجامعت أهلى .

— ما كنت جديرا بذلك يا عمر .

فقام رجال فاعترفوا بمثله فنزلت : ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم ، فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون ﴾[1] :

---

(١) البقرة ١٨٧ .

٢٨

الحرب مستمرة بين بيزنطة وفارس والقتال مشبوب بين الدولتين حتى الموت ، كانت دولة الفرس قد اكتسحت دولة الروم ونهبت بيت المقدس وغزت مصر ووقفت الجيوش الفارسية تقرع أبواب القسطنطينية بمساعدة الآفار ، وكانت دول العالم ترقب ذلك الصراع فى اهتمام وقد تشتتت العواطف بين الإمبراطوريتين العتيدتين ؛ كانت بعض الدول هواها مع هرقل إمبراطور الروم وبعضها هواها مع كسرى الثانى شاهنشاه إيران الرجل الخالد بين الآلهة والإله العظيم جدا بين الرجال ، صاحب الصيت الذائع الذى يصحو مع الشمس والذى يهب عينيه للنيل .

وفرح كفار قريش أيام كان الرسول عليه السلام بمكة ، لما تقدمت جيوش فارس حتى بلغت البوسفور . وقالوا للمسلمين إن انتصار حلفائهم من الوثنيين عبدة النار على أهل الكتاب لخير دليل على أن النصر سيكون حليف قريش على من شقوا عصا الطاعة من أصحاب ابن أبى كبشة الذين كفروا باللات والعزى وجعلوا للكون إلها واحدا فى الأرض وفى السماء .

وقد شق ذلك على رسول الله — ﷺ — فأنزل الله تعالى : ﴿ الم * غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين ﴾[1] . فسخر سادات قريش مما أنزل الله حتى ثارت مشادة بين أبى بكر الصديق وأمية بن خلف بلغت أن تراهن الرجلان على تحقيق هذه

---

(١) الروم ١ ، ٢ .

النبوءة .

وراحت الأيام تمر وجيوش الفرس مرابطة حول أسوار القسطنطينية ، وأمية بن خلف وسادات قريش يستهزئون بأبى بكر كلما مروا به وأبو بكر واثق من تحقيق وعد الله ، ورسول الله ـ ﷺ ـ يزيده ثقة على ثقة ويقول له إن بضع سنين بين ثلاثة وتسعة .

وتصرمت سنوات وبلغ اضطهاد الكافرين للمسلمين غايته ، فهاجر المسلمون إلى يثرب . وقد استؤنفت الحروب الطاحنة بين الإمبراطوريتين وغدت أنباء انتصارات الروم تفد على مكة والمدينة فكان المسلمون يستبشرون بوعد الله بينا كان كفار قريش ويهود المدينة فى كمد ، فالقرشيون يخشون أن تتحقق نبوءة محمد فيزعزع ذلك إيمان أهل مكة بآلهتهم ويجعل أفئدتهم تميل إلى إله أبى القاسم الذى تنبأ له بذلك النصر أيام كان الحديث عن نصر الروم ضربا من الخيال . أما اليهود فكانوا يمقتون هرقل من كل قلوبهم فهو يضطهدهم أشد الاضطهاد منذ تلك النبوءة التى أكدت له أن ملك الروم سيزول على أيدى شعب مختون ، فلم يجد غير اليهود هدفا لقسوته وانتقامه ممن ظن أنهم المعاول التى ستقوض صرح الإمبراطورية والجحافل التى سيتقلص ظل النسر الرومانى على الأرض .

وراح الجيش الرومانى الذى أعاد تنظيمه طيبريوس وموريقيوس يتقدم بقيادة هرقل نحو الشرق ويغزو مصر ويستولى عليها ، ويقابل المصريون استرداد الروم لبلادهم بفتور . فإن كان الروم مسيحيين والمصريون مسيحيين أيضا إلا أن المصريين كانوا نساطرة وكان الروم يعاقبة وكان كل فريق يكن للآخر بغضا دفينا .

وتقدم النسر الرومانى نحو بيت المقدس ففرح المؤمنون ، فان هى إلا وثبة واحدة ويستولى هرقل على المدينة المقدسة ويتحقق وعد الله . وكان

أبو بكر يتهلل بالفرح ويتمنى لو أنه كان بمكة ليرى وجوه الذين سخروا منه لما راهن أمية بن خلف على أن نصر الروم أكيد .

واشتد الجدل بين يهود المدينة وبين المسلمين حول الحرب الدائرة بين كسرى الثانى وهرقل . فقد راح اليهود يؤكدون أن الروم سيتقهقرون مدحورين بعد حين ، فكسرى يجمع جيوشه من أطراف إمبراطوريته ليرد هرقل عن المدينة المقدسة ويتعقبه حتى عقر داره ، بينا كان المسلمون يرون أن نصر هرقل قريب ، وقد أكثروا من تلاوة سورة الروم .

كانت الإمبراطورية الفارسية تترنح ، فكسرى بمظالمه وتحقيره وعداوته لقواده وحقده الدفين على كل من يرتفع له شأن فى مملكته قد طعن دولته فى قلبها بخنجر مسموم . إنها انتحرت من الداخل قبل أن يدهمها هرقل بجيوشه . انهزمت قبل أن تنشب المعركة ويدور القتال بعد أن قضى كسرى بأفعاله على عزيمة الرجال . وقد وضحت الحقيقة سافرة لعين المسلمين فأيقنوا أن اندحار الفرس قريب .

وود أبو بكر لو ينطلق إلى مكة ليقف على رءوس كفار قريش يستهزىء بهم كما استهزءوا به من قبل ، ولكن ذهاب الصديق إلى أعداء الله ورسوله لم يكن مأمونا وإن كان بعض الأنصار يشدون الرحال إلى الحرم فى جوار أصحابهم من أهل مكة .

كان أمية بن خلف ينزل على سعد بن معاذ بالمدينة إذا ذهب إلى الشام فى تجارته ، وكان سعد ينزل على أمية إذا ما وفد إلى مكة ، وقد قدم سعد معتمرا فنزل على أبى صفوان فقال له :

— انظر لى ساعة خلوة لعلى أطوف بالبيت .

— انتظر حتى إذا انتصف النهار وغفلت الناس انطلقت وطفت .

كان أمية بن خلف من رءوس الكفر وكان سعد بن معاذ من وجوه المسلمين والأنصار ، فدار بينهما حوار وذكرت أنباء الحرب الضروس بين الفرس والروم . ولا شك تذكر أمية بن خلف ذلك الرهان الذى كان بينه وبين أبى بكر الصديق ولكنه أبى أن يسلم أن النصر سيكون حليف الروم ، فلا تزال المدينة المقدسة تقاوم ولم تسقط بعد فى أيدى هرقل .

وخرج أمية بن خلف وسعد بن معاذ قريبا من نصف النهار ، فبينا سعد يطوف إذ أتاه أبو جهل فقال فى عجب ودهشة :

— من هذا الذى يطوف ؟!

— أنا سعد بن معاذ .

— أتطوف بالكعبة آمنا وقد أويتم محمدا وأصحابه وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم ؟

والتفت أبو جهل إلى أمية بن خلف وقال :

— أما والله لولا أنك مع أبى صفوان ما رجعت إلى أهلك سالما .

فتخاصما وسعد يرفع صوته بقوله :

— أما والله لئن منعتنى هذا لأمنعك ما هو أشد عليك منه : طريقك على المدينة .

وأحس أبو جهل الخطر فخفف من غلوائه ، وصار أمية يقول لسعد :

— لا ترفع صوتك على أبى الحكم فإنه سيد أهل الوادى .

وجعل أمية يسكت سعدا وظل سعد فى ثورته فقال لأمية :

— إليك عنى ، فإنى سمعت محمدا — ﷺ — يزعم أنه قاتلك .

فنزل الرعب بقلب أمية بن خلف وقال وعيناه لا تثبتان على شىء :

— إياى ؟!

فقال سعد بن معاذ دون أن تختلج فيه خالجة :

ـــ نعم .

ـــ بمكة ؟

ـــ لا أدرى .

وصمت أبو جهل على مضض فهو يعرف أن تجارة قريش إلى الشام لا بد أن تمر بالمدينة ، فإذا ناصب سعد بن معاذ العداء فسيجر المتاعب على قومه . وسار أمية بن خلف إلى داره وهو شارد حزين فى وجهه قلق وفى قلبه فزع ، فلما رجع إلى امرأته قرأت فى وجهه ما يعتمل فى صدره فقالت له :

ـــ ما بك ؟

فقال فى صوت خافت مضطرب :

ـــ ما تعلمين ما قال أخى اليثربى ؟

ـــ وما ذاك ؟

ـــ زعم أنه سمع محمدا يزعم أنه قاتلى .

وطاف بالمرأة خوف شديد وقالت فى همس كان موقعه فى نفس أمية أقسى من هزيم الرعود :

ـــ فوالله ما يكذب محمد .

وجثم على الدار الرعب وراحت القلوب تنبض بالفزع .

٢٩

سمع رسول الله — ﷺ — بأبى سفيان بن حرب مقبلا من الشام فى عير قريش . إنها العير التى خرج عليه السلام فى طلبها حتى بلغ العشيرة ووجدها سبقته بأيام ، فلم يزل يترقب قفولها حتى إذا ما جاءت الأنباء برجوعها دعا المسلمين للخروج وقال :

— هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها .

فأجاب ناس وثقل آخرون لظنهم أن رسول الله — ﷺ — لم يلق حربا ، ولم يحتفل لها رسول الله — ﷺ — بل قال :

— من كان ظهره (أى ما يركبه) حاضرا فليركب معنا .

ولم ينتظر من كان ظهره غائبا عنه .

ولما خرج — ﷺ — إلى بدر قالت له أم ورقة بنت نوفل :

— يا رسول الله ائذن لى فى الغزو معك أمرض مرضاكم لعل الله يرزقنى الشهادة .

— قرى فى بيتك فإن الله يرزقك الشهادة .

وراح أبو سفيان حين دنا بالعير من أرض الحجاز يتجسس الأخبار ويسأل من لقى من الركبان تخوفا من رسول الله — ﷺ ، فقد لقى رجلا فأخبره أنه — ﷺ — قد كان عرض لعيره فى بدايته وأنه تركه مقيما ينتظر رجوع العير فخاف خوفا شديدا فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى بعشرين مثقالا ليأتى مكة ، فخرج ضمضم سريعا إلى مكة ليستنفر قريشا ويخبرهم أن محمدا قد عرض لعيرهم هو وأصحابه .

وكانت مكة غارقة فى الصمت تطوف بها أحلام ، وكانت عاتكة بنت عبد المطلب غارقة فى النوم فرأت عمة النبى رؤيا أفزعتها فبعثت إلى أخيها

العباس بن عبد المطلب فقالت له :

ـــ يا أخى والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتنى وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة ، فاكتم عنى ما أحدثك .

فأقبل عليها العباس فقالت له :

ـــ لن أحدثك حتى تعاهدنى أن لا تذكرها فإنهم سمعوها آذونا وأسمعونا ما لا نحب .

فعاهدها العباس فقال لها :

ـــ ما رأيت ؟

ـــ رأيت راكبا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته: ألا فانفروا يا لغُدُر لمصارعكم فى ثلاث؛ ثم مثل به بعيره على رأس أبى قبيس فصرخ بمثلها . ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت (تفتتت) ، فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلت منها فلقة .

ـــ والله إن هذه لرؤيا ! وأنت فاكتميها ولا تذكريها لأحد .

ثم خرج العباس فلقى الوليد بن عتبة بن ربيعة وكان له صديقا فذكرها له واستكتمه إياها ، فذكرها الوليد لأبيه عتبة ففشا الحديث بمكة حتى تحدثت به قريش فى أنديتها .

فغدا العباس ليطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام فى رهط من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة ، فلما رآه أبو جهل قال :

ـــ يا أبا الفضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا .

فلما فرغ أقبل حتى جلس معهم فقال أبو جهل :

ـــ يا بنى عبد المطلب متى حدثت فيكم هذه النبية ؟

ـــ وما ذاك ؟

ـــ تلك الرؤيا التى رأت عاتكة .

ـــ ما رأت ؟

ـــ يا بنى عبد المطلب أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ! لقد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال : انفروا فى ثلاث ، فستتربص بكم هذه الثلاث فإن يك حقا ما تقول فسيكون ، وإن تمض الثلاث و لم يكن من ذلك شىء نكتب عليكم كتابا أنكم أكذب أهل بيت فى العرب .

و لم يستطع العباس أن يفعل شيئا إلا أن ينكر رؤيا عاتكة ، ثم تفرقا . فلما جاء المساء وذاع فى دور بنى عبد المطلب ما كان بين العباس وأبى جهل لم تبق امرأة من بنى عبد المطلب إلا أتت العباس فقالت :

ـــ أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع فى رجالكم ثم قد تناول النساء وأنت تسمع ، ثم لم يكن عند غِيَر لشىء مما سمعت .

فقال العباس وقد أطرق برأسه :

ـــ قد والله فعلت ما كان منى إليه من كبير ، وايم الله لأتعرضن له فإن عاد لألفينَّكُنَّه .

فغدا العباس فى اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وهو حديد مُغْضب يرى أنه قد فاته من أبى جهل أمر يحب أن يدركه منه ، فدخل المسجد فرآه فمشى نحوه ليتعرضه ليعود لبعض ما قال فيقع به ، وكان رجلا حفيفا حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر ، فإذا به يخرج إلى باب المسجد يشتد فقال العباس فى نفسه :

ـــ ما له لعنه الله ! أكل هذا فرق منى أن أشاتمه !

وإذا هو قد سمع ما لم يسمع العباس : صوت ضمضم بن عمرو الغفارى وهو يصرخ ببطن الوادى واقفا على بعيره ، قد جدَّع بعيره (قطع أنفه) وحول رحله وشق قميصه وهو يقول :

ــ يا معشر قريش ، اللطيمة اللطيمة (الإبل التى تحمل البر والطيب) . أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى أن تدركوها. الغوث الغوث .

فشغل العباس عن أبى جهل وشغل أبا جهل عن العباس ما جاء من الأمر .

فتجهز الناس سراعا وقالوا :

ــ أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمى . كلا والله ليعلمن غير ذلك . فكانوا بين رجلين إما خارج وإما باعث مكانه رجلا . وخرجت قريش كلها للغزو فلم يتخلف من أشرافها أحد إلا أن أبا لهب ابن عبد المطلب، تخلف وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة ، كان قد لعب معه الميسر فخسر كل أمواله ثم لعب على حريته ففقدها وسار عبدا لأبى لهب بعد أن أبت بنو مخزوم أن تدفع أربعة آلاف درهم ثمنا لحرية ابنها الذى ساءت أخلاقه .

وراح أمية بن خلف يرتجف من الرأس إلى القدم . فقد تذكر فى تلك اللحظة ما كان بينه وبين سعد بن معاذ يوم أن قدم سعد إلى مكة معتمرا فنزل عليه ، وما كان بين سعد وأبى جهل من مشادة . وراحت كلمات سعد بن معاذ ترن فى أذنيه رهيبة لكأنما كانت تنعى إليه نفسه : « إليك عنى فإنى سمعت محمدا ﷺ يزعم أنه قاتلك » .

وأراد أمية أن يطرد ذلك الوهم عن نفسه فانطلق إلى داره ليتجهز ، فإذا بامرأته تقول له :

ــ أما علمت ما قال أخوك اليثربى ؟!

إنه يعلم ما قال سعد بن معاذ حق العلم وإنه ليكاد أن يموت من الخوف كلما دوى فى أغواره صوت امرأته : « فوالله ما يكذب محمد » . فصمم

على عدم الخروج فقال :

ـــ فإنى إذن لا أخرج .

وكان أمية شيخا جسما ثقيلا فذهب إلى الكعبة وقد أراد القعود ، فجاءه أبو جهل يسأله أن يخرج مع الخارجين فأقسم بالله لا يخرج من مكة . فانطلق أبو جهل إلى عقبة بن أبى معيط ليسلطه عليه وكان عقبة سفيها . فجاء إليه وهو جالس مع قومه بمجمرة فيها بخور يحملها حتى وضعها بين يديه ثم قال :

ـــ يا أبا على استجمر فإنما أنت من النساء .

فقال له أمية فى غضب :

ـــ قبحك الله وقبح ما جئت به .

ودنا أبو جهل منه وقال :

ـــ يا أبا صفوان إنك متى يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادى تخلفوا معك . فسر يوما أو يومين .

وانطلق عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام إلى هبل بجوف الكعبة يستقسمون بالأزلام . فخرج لهم القدح الناهى المكتوب عليه « لا تفعل » فأجمعوا على المقام . فجاءهم أبو جهل وأزعجهم وأعانه على ذلك عقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث ، فما زالوا بهم حتى دفعوهم إلى الخروج وهم كارهون .

وفى يومين فرغوا من جهازهم وعزموا على السير . وكانوا ألفا وقادوا مائة فرس عليها مائة درع سوى دروع المشاة وخرجوا على الصعب والذلول وأمية بن خلف قد عزم على الرجوع بعد مسيرة يومين أو ثلاثة فهو على يقين من أنه ما يساق إلا لمصارعه ، وعقبة بن أبى معيط يحث السير يدفعه حقده الدفين على الإسراع للقضاء على محمد وقد نسى أن محمدا عليه السلام قد أقسم أن يقتله إذا ما التقى به خارج مكة يوم أن داس على رقبته

حتى كادت عيناه أن تخرجا من محجريهما .

وخرجت معهم الفتيات يضربن الدفوف يغنين بهجاء المسلمين.وعند خروجهم ذكروا ما كان بينهم وبين كنانة بن حرب.. فإن ابنا لحفص بن الأخيف القرشي خرج يبغي ضالة له بضجنان وهو غلام حدث فى رأسه ذؤابة وعليه حلة وكان غلاما وضيئا نظيفا ، فمر بعامر بن يزيد بن عامر بن الملوح الكنانى وهو سيد بنى بكر يومئذ فرآه فأعجبه فقال :

ــ من أنت يا غلام ؟

ــ أنا ابن لحفص بن الأخيف القرشي .

فلما ولى الغلام قال عامر بن يزيد :

ــ يا بنى بكر ما لكم فى قريش من دم ؟

ــ بلى والله إن لنا فيهم لدماء .

ــ ما كان رجل ليقتل هذا الغلام برَجُله إلا قد استوفى دمه .

فتبعه رجل من بنى بكر فقتله بدم كان له فى قريش . فتكلمت فيه قريش فقال عامر بن يزيد :

ــ يا معشر قريش قد كان لنا فيكم دماء فما شئتم . إن شئتم فأدوا علينا ما لنا قبلكم ونؤدى ما لكم قبلنا وإن شئتم فإنما هى الدماء رجل برجل .

فتجافوا عما لكم قبلنا ونتجافى عما لنا قبلكم .

فهان ذلك الغلام على هذا الحى من قريش وقالوا :

ــ صدق ! رجل برجل .

فلهَوْا عنه فلم يطلبوا به ، ولم يعجب ذلك الرضا أخاه مكرز بن حفص . فبينا هو يسير بمر الظهران إذ نظر إلى عامر بن يزيد على جمل له . فلما رآه أقبل إليه حتى أناخ به وعامر متوشح سيفه . فعلاه مكرز بسيفه حتى قتله ثم خاض بطنه بسيفه ، ثم أتى بالسيف مكة فعلقه من الليل بأستار

الكعبة .

فلما أصبحت قريش رأوا سيف عامر بن يزيد معلقا بأستار الكعبة فعرفوه ؛ فقالوا :

ـــ إن هذا لسيف عامر بن يزيد ، عدا عليه مكرز بن حفص فقتله .

تذكرت قريش كل ذلك بعد أن تجهزت للخروج لقتال محمد وصحبه . فخافوا غدر كنانة فقالوا :

ـــ إنا نخشى أن يأتونا من خلفنا .

وراح الذين يريدون عدم الخروج يحاولون أن يثنوا القوم عن عزمهم ، وغدا بعضهم ينشد الأشعار التى قالها مكرز فى قتله عامرا :

لما رأيت أنه هو عامر ... تذكرت أشلاء الحبيب الملحب[1]

وقلت لنفسى : إنه هو عامر ... فلا ترهبيه وانظرى أى مركب

وأيقنت أنى إن أجلله ضربة ... متى ما أصبه بالفرافر يعطب

خفضت له جأشى وألقيت كلكلى ... على بطل شاكى السلاح مجرب

ولم أك لما التف رُوعى وروعه ... عصارة هجن[2] من نساء ولا أب

حللت به وِتْرى ولم أنس ذحله[3] ... إذا تناسى ذحله كل غَيْهب[4]

وكاد الذين لا يريدون الخروج أن يثنوا المتحمسن عن المسير لولا أن شياطين قريش نجحوا فى أن يأتوا بسيد من سادات كنانة ليقول لقريش :

ـــ أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشىء تكرهونه .

وراح يعدهم أن بنى كنانة وراءهم قد أقبلوا لنصرهم وقال :

ـــ لا غالب لكم اليوم من الناس .

---

(١) الملحب : الذى ذهب لحمه . (٢) هجن : كرام .
(٣) الذحل : الثأر . (٤) الذى لا عقل له .

وخرجت قريش فى عدتها وغرورها وهى واثقة من القضاء على محمد عليه السلام ، وأصحابه من المهاجرين والأنصار ؛ ولو رفعت أسجاف الغيب وألقوا أسماعهم إلى صوت قدر الله لسمعوا النذير يقول فى وضوح :

— يا قوم والله ما تساقون إلا لمصارعكم .

تذييـــل

لم يكثر المحدثون فى حديث كما فعلوا فى حديث الإسراء ، ولم يتركوا الأعنة لأخيلتهم فى حديث آخر مثلما أطلقوها فى هذا الحديث . فرحلة السماء قد استهوت أهل الأرض وحركت الخيال ليتصور ما يشاء من الأعاجيب ، ولما كان علم ذلك الزمان محدودا عن الكون والـفضاء والسماوات العلى ، فلم تستطع علومهم أن تمد أخيلتهم إلا ببعض ما لمسوه فى حياتهم وما تمنته عقولهم التى كانت ترى أن النعيم أنهار وظل ظليل ، وأن وسيلة الانتقال بين الأرض والسماء لا يمكن أن تكون غير دابة فوق الحمار ودون البغل تسير بسرعة البرق ، وقد عبروا عنها بالبراق يضع حوافره عند منتهى طرفه . ولم يستطيعوا أن يتصوروا السماوات غير تصورهم للأرض فجعلوا لها أبوابا تدق . ولما كانوا فى الغالب تجارا فقد جعلوا لله سبحانه وتعالى بعض صفة التجار يقبل الفصال فى فريضة قد فرضها قالوا : إن الله جل شأنه قد فرض على المسلمين خمسين صلاة كل يوم ، وإن موسى عليه السلام قال للنبى — صلى الله عليه وسلم — إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة وإنى خبرت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك : فرجع الرسول عليه السلام فوضع الله عنه عشرا . فرجع إلى موسى فنصحه أن يرجع إلى ربه يسأله التخفيف فوضع

عنه عشرا . وظل يغدو ويروح بين ربه وبين موسى حتى أمر بخمس صلوات كل يوم ثوابها خمسين . فقال له موسى : إن أمتك لا تستطيع الخمس صلوات كل يوم ، وإنى قد خبرت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . فقال محمد — ﷺ : سألت ربى حتى استحييت ، ولكن أرضى وأسلم . فنفذت فنادى مناد قد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى .

وقد تواترت الروايات فى حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وابن مسعود وأبى ذر ومالك بن صعصعة وأبى هريرة وأبى سعيد وابن عباس وشداد بن أوس وأبى بن كعب وعبد الرحمن بن قرط وأبى حبة وأبى ليلى الأنصاريين وعبد الله بن عمرو وجابر وحذيفة وبريدة وأبى أيوب وأبى أمامة وسمرة بن جندب وأبى الحمراء وصهيب الرومى وأم هانىء وعائشة وأسماء ابنتى أبى بكر الصديق رضى الله عنهم أجمعين . منهم من ساقه بطوله ومنهم من اختصره . وإن الفاحص لهذه الأحاديث يجد فى يسر أن هناك حقيقة أضيفت إليها إضافات كثيرة بعضها ذكى وبعضها منكر وغريب ، فالحقيقة قد جاءت فى القرآن واضحة لا لبس فيها : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾[1] ، ﴿ والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى * علمه شديد القوى * ذو مرة فاستوى * وهو بالأفق الأعلى * ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى * ما كذب الفؤاد ما رأى * أفتمارونه على ما يرى * ولقد

---

(١) الإسراء .

رآه نزلة أخرى* عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة ما يغشى * ما زاغ البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾[١] . وحول هذه الحقيقة نسجت روايات وأقاصيص تزعم أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد رواها . وقبل أن أناقش ما جاء فى أحاديث الإسراء سأحاول على قدر الإمكان أن أسرد الحديث فى تتابع ، وأن أدخل أحاديث الرواة بعضهم فى بعض وأن أسقط الخلافات الطفيفة .

قيل إن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال بعد أن قص قصة شق صدرة ثم غسله بماء زمزم . ثم صب الحكمة من طست من ذهب فى قلبه :

ـــ بينا أنا نائم فى الحجر جاءنى جبريل عليه الصلاة والسلام فهمزنى بقدمه ، فجلست فلم أر شيئا فعدت لمضجعى ، فجاءنى الثانية فهمزنى بقدمه فجلست فلم أر شيئا ، فعدت لمضجعى ، فجاءنى الثالثة فهمزنى بقدمه فجلست فلم أر شيئا فأخذ بعضدى فقمت معه ، فخرج بى إلى باب المسجد فأتيت بالبراق وهو دابة ، أبيض فوق الحمار ودون البغل ، مضطرب (طويل) الأذنين وكان مسرجا ملجما ، يضع حافره عند منتهى طرفه ، فلما دنوت منه استصعب ومنع ظهره أن يُركب فقال جبريل :

ـــ اسكن ، فما ركبك أحد أكرم على الله من محمد .

فركبته ثم سرت وجبريل لا يفارقنى ، فإذا بعجوز على جانب الطريق فقلت :

ـــ ما هذه يا جبريل ؟

قال :

---

(١) النجم ١ ـــ ١٧ .

ـــ سر يا محمد .

فسرت ما شاء الله أن أسير ، فإذا شيء يدعوني متنحيا عن الطريق فقال :

ـــ هلم يا محمد .

فقال لي جبريل :

ـــ سر يا محمد .

فسرت ما شاء الله أن أسير ، فلقيني خلق من خلق الله فقالوا :

ـــ السلام عليك يا أول، السلام عليك يا آخر، السلام عليك يا حاشر .

فقال لي جبريل :

ـــ اردد السلام يا محمد .

ثم انتهيت إلى بيت المقدس فأوثقته (البراق) بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء ، ثم دخلت فصليت به ركعتين ، ثم قال لي جبريل :

ـــ أما العجوز التي رأيت على جانب الطريق فلم يبق من الدنيا إلا كما بقي من عمر تلك العجوز . أما الذي أراد أن تميل إليه فذاك عدو الله إبليس أراد أن تميل إليه ، وأما الذين سلموا عليك فإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام .

واستوينا في صرحة المسجد فقال جبريل :

ـــ يا محمد هل سألت ربك أن يريك الحور العين ؟

فقلت :

ـــ نعم .

فقال :

ـــ فانطلق إلى أولئك النسوة فسلم عليهن .

وكن جلوسا عن يسار الصخرة فأتيتهن فسلمت عليهن ، فرددن على

السلام فقلت :

— من أنتن ؟

فقلن :

— نحن خيرات حسان ، نساء قوم أبرار نقوا فلم يدرنوا ، وأقاموا فلم يظعنوا ، وخلدوا فلم يموتوا ،

ثم أتاني جبريل عليه السلام بإناءين أحدهما خمر والآخر لبن ، فشربت اللبن وأبيت الخمر فقال جبريل :

— أصبت الفطرة ، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك .

ثم انصرفت فلم ألبث إلا يسيرا حتى اجتمع ناس كثير . ثم أذن مؤذن وأقيمت الصلاة فقمنا صفوفا ننتظر من يؤمنا ، فأخذ بيدى جبريل عليه السلام فقدمني فصليت بهم ، فلما انصرفت قال جبريل :

— يا محمد أتدرى من صلى خلفك ؟

قلت :

— لا .

قال :

— صلى خلفك كل نبى بعثه الله عز وجل .

ثم أتيت بالمعراج الذى كانت تعرج عليه أرواح الأنبياء ، فلم ير الخلائق أحسن من المعراج . أما رأيت الميت حين يشق بصره طامحا إلى السماء فإنما يشق بصره طامحا إلى السماء عجبه بالمعراج ؟ فصعدت أنا وجبريل فإذا أنا بملك يقال له إسماعيل وهو صاحب السماء الدنيا وبين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك جنوده مائة ألف ملك . فاستفتح جبريل باب السماء ، قيل :

— من هذا ؟

قال :

— جبريل .

قيل :

— ومن معك ؟

قال :

— محمد .

قيل :

— أو قد بعث إليه ؟

قال :

— نعم .

فإذا أنا بآدم كهيئته يوم خلقه الله عز وجل على صورته ، فإذا هو تعرض عليه أرواح ذريته من المؤمنين فيقول :

— روح طيبة ونفس طيبة ، اجعلوها فى عليين .

ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار فيقول :

— روح خبيثة ونفس خبيثة اجعلوها فى سجين .

فمضيت هنيهة فإذا أنا بأخونة عليها لحم مشرح ليس يقربها أحد ، وإذا أنا بأخونة أخرى عليها لحم قد أروح وأنتن عندها أناس يأكلون منها . قلت :

— يا جبريل ، من هؤلاء ؟

قال :

— هؤلاء من أمتك يأكلون الحرام ويتركون الحلال .

ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بأقوام مشافرهم كمشافر الإبل فتفتح أفواههم فيلقمون من ذلك الجمر ثم يخرج من أسافلهم . فسمعتهم يضجون إلى الله

عز وجل فقلت :

— من هؤلاء يا جبريل .

قال :

— هؤلاء من أمتك ﴿ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ﴾[1] .

ثم مضيت هنيهة فاذا أنا بنساء تعلقن بثديهن فسمعتهن يضججن إلى الله عز وجل قلت :

— يا جبريل من هؤلاء النساء ؟

قال :

— هؤلاء اللاتى يزنين ويقتلن أولادهن .

ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت كلما نهض أحدهم خر ، فيقول اللهم لا تقم الساعة . وهم على سابلة آل فرعون فتجىء السابلة فتطؤهم . فسمعتهم يضجون إلى الله فقلت :

— يا جبريل من هؤلاء ؟

قال :

— هؤلاء من أمتك ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ﴾[2] .

ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم فيلقمونه . فقال له : كل كما كنت تأكل من لحم أخيك ، قلت :

— يا جبريل من هؤلاء ؟

قال :

---

(١) النساء ١٠ . (٢) البقرة ٢٧٥ .

— هؤلاء الهمازون من أمتك اللمازون .

ثم صعدنا إلى السماء الثانية فإذا أنا برجل أحسن ما خلق الله عز وجل قد فضل الناس فى الحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب . قلت :

— يا جبريل من هذا ؟

قال :

— هذا أخوك يوسف ومعه نفر من قومه .

فسلمت عليه فرد على . ثم صعدنا إلى السماء الثالثة واستفتح فإذا أنا بيحيى وعيسى عليهما السلام ومعهما نفر من قومهما فسلمت عليهما وسلما على ، ثم صعدنا إلى السماء الرابعة فإذا أنا بادريس قد رفعه الله مكانا عليا فسلمت عليه وسلم على . ثم صعدنا إلى السماء الخامسة فإذا أنا بهارون ونصف لحيته بيضاء ونصفها سوداء تكاد لحيته تصيب سرته من طولها قلت :

— يا جبريل من هذا ؟

قال :

— هذا المحبب فى قومه . هذا هارون بن عمران ومعه . نفر من قومه ، فسلمت عليه وسلم على . ثم صعدت إلى السماء السادسة فإذا أنا بموسى ابن عمران رجل آدم[1] كثير الشعر لو كان عليه قميص لنفذ شعره دون القميص ، فإذا هو يقول : يزعم الناس أنى أكرم على الله من هذا ، بل هذا أكرم على الله منى . قلت :

— يا جبريل من هذا ؟

قال :

---

(١) الرجل الآدم : الأسمر .

— هذا أخوك موسى بن عمران عليه السلام ومعه نفر من قومه .

فسلمت عليه وسلم على . ثم صعدت إلى السماء السابعة فإذا أنا بأبينا إبراهيم خليل الرحمن ساند ظهره إلى البيت المعمور كأحسن الرجال ، قلت :

— يا جبريل من هذا ؟

قال :

— هذا أبوك إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ومعه نفر من قومه :

فسلمت عليه فسلم على . وإذا أنا بأمتى شطرين : شطر عليهم ثياب بيض كأنها القراطيس وشطر عليهم ثياب رمد .

فدخلت البيت المعمور ودخل معى الذين عليهم الثياب البيض وحجب الآخرون الذين عليهم الثياب الرمد وهم على خير ، فصليت أنا ومن معى فى البيت المعمور ، ثم خرجت أنا ومن معى .

والبيت المعمور يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه إلى يوم القيامة . ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فاذا كل ورقة منها تكاد تغطى هذه الأمة . وإذا فيها عين تجرى يقال لها سلسبيل . فينشق منها نهران أحدهما الكوثر والآخر يقال له نهر الرحمة . فاغتلست فيه فغفر لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر . ثم إنى رفعت إلى الجنة فاستقبلتنى جارية قلت :

— لمن أنت يا جارية ؟

قالت :

— لزيد بن حارثة .

وإذا بأنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى . وإذا رمانها كالدلاء عظما . وإذا

بطيرها كأنها بختكم[1] هذه .

إن الله تعالى أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ثم عرجت على النار فإذا فيها غضب الله وزجره ونقمته ، ولو طرحت فيها الحجارة والحديد لأكلتها . ثم أغلقت دونى . ثم إنى رفعت إلى سدرة المنتهى فتغشانى فكان بينى وبينه قاب قوسين أو أدنى . وفرضت على خمسون صلاة وقال :

ـــ لك بكل حسنة عشر ، فإذا هممت بالحسنة فلم تعملها كتبت لك حسنة ، فإذا عملتها كتبت لك عشرا . وإذا هممث بالسيئة فلم تعملها لم يكتب عليك شيء ، فإن عملتها كتبت عليك سيئة واحدة . ثم رجعت إلى موسى فقال :

ـــ بم أمرك ربك ؟

فقلت :

ـــ بخمسين صلاة .

قال :

ـــ ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، ومتى لا تطيقه تكفر .

فرجعت إلى ربى فقلت :

ـــ يا رب خفف عن أمتى فإنها أضعف الأمم .

فوضع عنى عشرا وجعلها أربعين ، فما زلت أختلف بين موسى وربى كلما أتيت عليه قال لى مثل مقالته حتى رجعت إليه ، فقال لى :

ـــ بم أمرت ؟

---

(١) البخت : الإبل .

فقلت :

ـــ أمرت بعشر صلوات .

قال :

ـــ ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك .

فرجعت إلى ربى فقلت :

ـــ أى ربى خفف عن أمتى فإنها أضعف الأمم .

فوضع عنى خمسا وجعلها خمسا ، فنادى ملك عندها : تممت فريضتى وخففت عن عبادى وأعطيتهم بكل حسنة عشرا من أمثالها .

ثم رجعت إلى موسى فقال :

ـــ بم أمرت ؟

فقلت :

ـــ بخمس صلوات .

قال :

ـــ ارجع إلى ربك فأنه لا يؤوده شىء فاسأله التخفيف لأمتك .

فقلت :

ـــ رجعت إلى ربى حتى استحييت .

واجتمع بالأنبياء مرة أخرى فى بيت المقدس وصلى بهم فيه . ثم إنه ركب البراق وكر راجعا إلى مكة .

وقيل إن الرسول عليه السلام قال : « لما كان ليلة أسرى بى فأصبحت بمكة ، فظعت وعرفت أن الناس مكذبى » . فقعد معتزلا حزينا فمر به أبو جهل فجاء حتى جلس إليه فقال كالمستهزىء :

ـــ هل كان من شىء ؟

ـــ نعم .

ـــ وما هو ؟

— إنى أسرى بى الليلة .

— إلى أين ؟

— إلى بيت المقدس .

— ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟

— نعم .

فقال أبو جهل :

— يا معشر بنى كعب بن لؤى .

فانفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما قال :

— حدث قومك بما حدثتنى .

وحدثهم عليه السلام بحديث الإسراء ، وقيل إن الرسول عليه السلام قال لما قالوا له :

— وتستطيع أن تنعت لنا المسجد :

— فما زلت أنعته حتى التبس بعض النعت . فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل فنعته وأنا أنظر إليه .

فقال القوم :

— أما النعت فوالله لقد أصاب فيه .

وقيل إن رسول الله — ﷺ — قال : « فأخبرتهم بعير لقريش لما كنت فى مصعدى رأيتها فى مكان كذا وكذا وأنها نفرت . فلما رجعت وجدتها عند العقبة وأخبرتهم بكل رجل وبعير ، كذا وكذا ومتاعه كذا وكذا » .

وقال أبو ذر : سألت رسول الله — ﷺ : هل رأيت ربك ؟ قال : « نور إنى أراه » .

هذه خلاصة أحاديث الإسراء صحيحها وحسنها وضعيفها ، وقد

جمع الذهبى أحاديث الإسراء فى جزأين . وقبل أن أناقش هذه الأحاديث سأثبت ما قاله ابن كثير فى تفسير القرآن العظيم قال :

« وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله — ﷺ — من مكة إلى بيت المقدس وأنه مرة واحدة ، وإن اختلفت عبارات الرواة فى أدائه أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه ، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء عليهم السلام . ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة فأثبت إسراآت متعددة ، فقد أبعد وأغرب[1] ، وهرب إلى غير مهرب ، ولم يتحصل على مطلب .

وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه عليه السلام أسرى به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط ، ومرة من مكة إلى السماء فقط ، ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء ، وفرح بهذا المسلك وأنه قد ظفر بشىء يخلص به من الإشكالات ، وهذا بعيد جدا ولم ينقل هذا عن أحد من السلف . ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبى — ﷺ — به أمته ولنقله الناس على التعدد والتكرر .

قال موسى بن عقبة الزهرى : « كان الإسراء قبل الهجرة بسنة » ، وكذا قال عروة وقال السدى : « بستة عشر شهرا والحق أنه عليه السلام أسرى به يقظة لا مناما من مكة إلى بيت المقدس راكبا البراق ، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ودخله فصلى فى قبلته تحية المسجد ركعتين ، ثم أتى بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها فصعد إلى السماء

---

(١) قال عبد الوهاب الشعرانى إنه أسرى بالنبى ﷺ أكثر من ثلاثين مرة بعدد أحاديث الإسراء ، فقد جعل من كل رواية خالفت الأخرى مرة .

الدنيا ، ثم إلى بقية السماوات السبع فتلقاه فى كل سماء مقربوها ، وسلم على الأنبياء الذين فى السماوات بحسب منازلهم ودرجاتها حتى مر بموسى الكليم فى السادسة ، وإبراهيم الخليل فى السابعة ، ثم جاوز منزلتيهما ﷺ عليهما وعلى سائر الأنبياء حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام أى أقلام القدر بما هو كائن ، ورأى سدرة المنتهى وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب وألوان متعددة وغشيتها الملائكة ، ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح ، ورأى رفرفا أخضر قد سد الأفق ، ورأى البيت المعمور وإبراهيم الخليل بانى الكعبة الأرضية مسندا ظهره إليه لأنه الكعبة السماوية ، يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة ، ورأى الجنة والنار وفرض الله عليه هناك الصلوات الخمسين ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفا بعباده ، وفى هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها .

ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة . ويحتمل أنها الصبح من يومئذ ، ومن الناس من يزعم أنه أمهم فى السماء . والذى تظاهرت به الروايات أنه بيت المقدس ولكن فى بعضها أنه كان أول دخوله إليه . والظاهر أنه بعد رجوعه إليه لأنه لما مر بهم فى منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحدا واحدا وهو يخبره بهم وهذا هو اللائق لأنه كان أولا مطلوبا إلى الجناب العلوى ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى . ثم لما فرغ من الذى أريد به اجتمع به هو وإخوانه من النبيين ، ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه فى الإمامة وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام ، وله فى ذلك .

ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس والله سبحانه وتعالى أعلم . وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل أو اللبن

والخمر أو اللبن والماء أو الجميع فقد ورد أنه فى بيت المقدس وجاء أنه فى السماء ، ويحتمل أن يكون ههنا وههنا لأنه كالضيافة للقادم ، والله أعلم .

ثم اختلف الناس هل كان الإسراء ببدنه عليه السلام وروحه أو بروحه فقط على قولين : فالأكثرون من العلماء على أنه أسرى ببدنه وروحه يقظة لا مناما ، ولا ينكرون أن يكون رسول الله ﷺ ، رأى قبل ذلك مناما ثم رآه بعده يقظة لأنه عليه السلام لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، والدليل على هذا قوله تعالى : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ﴾(١) . فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام ، فلو كان مناما لم يكن فيه كبير شىء ولم يكن مستعظما ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم . وأيضا فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد : وقد قال « أسرى بعبده ليلا » : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس »(٢) . قال ابن عباس : هى رؤيا عين أريها رسول الله — ﷺ — ليلة أسرى به . وقال تعالى : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾(٣) . والبصر من آلات الذات لا الروح ، وأيضا فإن حمل على البراق وإنما يكون هذا للبدن لا الروح لأنها لا تحتاج فى حركتها إلى مركب عليه . (انتهى كلام ابن كثير) .

وجد القصاص فى الإسراء مادة خصبة لقصصهم فجروا وراء شطحات الخيال ورووا مناكير وغرائب لا تثبت للنقد ، وإن المدقق فى هذه الأحاديث التى نسبت ظلما إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه

---

(١) الإسراء ١ .
(٢) الإسراء ٦٠ .
(٣) النجم ١٧ .

ليرى بصمات أصابع اليهود الذين أسلموا أو الذين تظاهروا بالإسلام والكذابين من الرواة الذين يستهويهم كل غريب . أو الذين ينقلون عن التوراة والإنجيل بحسن نية حاسبين أن ذلك النقل يخدم الإسلام ، وما كانت أساطير الأولين تخدم الأديان .

زعموا أن الرسول عليه السلام قال : « فإذا أنا بآدم كهيئته يوم خلقه الله عز وجل على صورته .. » فمن ذا الذى يصدق من المسلمين أن الرسول العظيم الذى نزه الله سبحانه وتعالى عن التشبيه يقول مثل هذا الزعم ؟ إن القول بأن الله خلق آدم على صورته لم يقل به الإسلام بل جاء هذا الزعم فى التوراة التى كتبت فى بابل بعد أن حرق بختنصر كل نسخ التوراة !

وقالوا : إن الله سبحانه وتعالى فرض على المسلمين خمسين صلاة وأن موسى عليه السلام كان يقول له : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . فما زال محمد عليه السلام يختلف بين موسى وربه حتى جعلها الله خمسا وأعطى بكل حسنة عشرا من أمثالها . فلماذا موسى عليه السلام بالذات ، أما كان إبراهيم الخليل أبو الأنبياء جميعا ، إبراهيم الذى وفى أولى بذلك ؟ لو أن ذلك الزعم قد حصل ، أو يمكن أن يتصور ذو لب رشيد أن مثل ذلك الحوار الذى لا يمكن أن يقوم إلا بين تجار مشاكسين يدور بين رب العزة وبين رسوله ؟!

والآية الكبرى على أن اليهود الذين أسلموا والذين كانوا ينقلون من التوراة والإنجيل بحسن نية أو بسوء قصد قد وضعوا أحاديث الإسراء أو عبثوا بها ، إنهم اقتفوا فى كل ما قالوا آثار رؤيا يوحنا اللاهوتى التى جاءت فى آخر الأناجيل . وسأنقل لك بعض فقرات منها لترى أن النبع واحد وأن واضعى أحاديث الإسراء وإن رفعوها إلى صحابة رسول الله ﷺ ، قد

كذبوا على الرسول عليه السلام ، ورووا مناكير وغرائب وأكاذيب .

جاء فى الإصحاح الرابع من رؤيا يوحنا اللاهوتى : « بعد هذا نظرت إذا باب مفتوح فى السماء والصوت الأول الذى سمعته كبوق يتكلم معى قائلا :

— اصعد إلى هنا فأريك ما لا بد أن يصير بعد هذا . وللوقت سرت فىَّ الروح ، وإذا عرش موضوع فى السماء وعلى العرش جالس ، وكان الجالس فى المنظر شبه حجر اليشب والعقيق وقوس قزح حول العرش فى المنظر شبه الزمرد . وحول العرش أربعة وعشرون عرشا ، ورأيت على العرش أربعة وعشرين شيخا جالسين متسربلين بثياب بيض وعلى رءوسهم أكاليل الذهب . ومن العرش يخرج بروق ورعود وأصوات . وأمام العرش سبعة مصابيح نار متقدة هى سبعة أرواح الله . وقدام العرش بحر زجاج شبه البللور . وفى وسط العرش وحول العرش أربعة حيوانات مملوءة عيونا من قدام ومن وراء . والحيوان الأول شبه أسد والحيوان الثانى شبه عجل والحيوان الثالث له وجه إنسان والحيوان الرابع شبه نسر طائر . والأربعة الحيوانات لكل واحد منها ستة أجنحة حولها من داخلها مملوءة عيونا ولا تزال نهارا وليلا قائلة : قدوس قدوس قدوس الرب الإله القادر على كل شىء ، الذى كان والكائن والذى يأتى . وحينما تعطى الحيوانات مجدا وكرامة وشكرا للجالس على العرش الحى إلى أبد الآبدين ، يخر الأربعة والعشرون شيخا قدام الجالس على العرش ويسجدون للحى إلى أبد الآبدين ، ويطرحون أكاليلهم أمام العرش قائلين : أنت مستحق أيها الرب أن تأخذ المجد والكرامة والقدوة ، لأنك أنت خلقت كل الأشياء وهى بإرادتك كائنة وخلقت » .

كان قصاص أحاديث الإسراء يسيرون على نهج رؤيا يوحنا اللاهوتى ،

وكانوا يحاولون أن يجسدوا بعض آيات القرآن بأحداث تجرى فى السماء فصوروا الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما فى صورة بشعة واستشهدوا بآية ﴿ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ﴾(١) . ولم يزعجهم فى قليل ولا كثير أن هذه الآية لم تنزل إلا فى المدينة بعد الإسراء بسنين !

وصوروا الذين يأكلون الربا بأقوام بطونهم أمثال البيوت كلما نهض أحدهم خر ، وجعلوا جبريل عليه السلام يتلو : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ﴾(٢) . كأنما جبريل لا يعلم أن هذه الآية لم تكن قد نزلت بعد وأنها ستنزل فى المدينة بعد الإسراء بسنين !

قد يقول قائل ممن يستهويهم الجدل : إن جبريل كان على علم بأم الكتاب فقال ما قال قبل أن تنزل هذه الآيات على الرسول عليه السلام ، والرد بسيط : فلو أنه قالها حقا لكانت مكية لا مدنية ولوجب على الرسول صلوات الله وسلامه عليه تلاوتها على المؤمنين ، وما حدث شيء من هذا ولا قال به قائل حتى الذين يفترون على الله الكذب .

ولم يعرف هؤلاء الرواة من أنهار الدنيا غير النيل والفرات ، وكذلك كان حال يوحنا اللاهوتى . أما من أنهار الآخرة فلم يذكروا إلا الكوثر وقد أخذوا ذلك عن القرآن .

وتصوروا أن للسماء أبوابا كما تصور يوحنا اللاهوتى . وقالوا إن المعراج كالسلم له درج يصعد فيها . وقد أخذوا هذه الفكرة عن حلم يعقوب فى التوراة فقد رأى فى الحلم أنه يصعد إلى السماء فى سلم ، وأن

---

(١) النساء ١٠ . (٢) البقرة ٢٧٦ .

الملائكة تهبط من السماء فى ذلك السلم . وقد أتعبهم فأتعبوا الذين جاءوا من بعدهم أنهم كانوا يحاولون أن يصوروا أشياء غير حسية بحواسهم البشرية القاصرة عن إدراك حقائق الكون وبقليل مما اكتسبوا من العلم . فلو عرفوا أن المادة الصلبة مجرد كهارب فى رتبة اهتزاز معينة لما خدعتهم حقيقة المادة الصلبة التى تشبثوا بها فى الإسراء على البراق والمعراج على السلم ، لأمكنهم أن يتصوروا إمكان الإسراء بلا مطية والصعود إلى السماء بلا سلالم .

إن آية الإسراء لم تذكر أنه كان محمولا على شيء ، إنه كان يسبح فى الفضاء بقدرة الله التى لا تحد بعد أن أصبح حقيقة كونية فى غير حالتها الأرضية الناقصة ، فإن كان قد قيل إنه ركب البراق فقد يكون المقصود البرق أو أية قوة كهربية . ولا يمكن فى حالة إسراء الله بعبده أن تجرى أحكام الحواس ولا أحكام المادة .

وقيل فى حكمة ركوب البراق مع أن الله قادر على أن يطوى الأرض له طيا : إن ذلك كان تأنيسا له بالعادة فى مقام خرق العادة ، لأن العادة جرت أن الملك إذا استدعى من يختص به بعث إليه بمركب سنى يحمل إليه فى وفادته إليه ، فعامله الله تعالى بذلك تأنيسا له وتعظيما .

وأقول أين استقبال ملوك الأرض للوافدين عليهم من استقبال ملك الملوك لرسوله ؟ فإذا كان ملوك الأرض يبعثون بعثات الشرف لاستقبال زائريهم وطيارات لتحيتهم فى الجو ، أفيبعث الملك الجبار تأنيسا لرسوله وتعظيما دابة فوق الحمار ودون البغل ؟ وإذا أراد أن يعرج به إلى السماء ليريه من آياته الكبرى أيقيم له سلما يصعد فيه ، ومن حولنا ٣٠٠ بليون سلم تحيط بنا من كل جانب هى الذبذبات التى أصبحت معروفة فى

الطبيعة[١] ؟!.

وقد أظهر المنكرون للإسراء دهشتهم من ذهاب الرسول عليه السلام إلى بيت المقدس وعودته إلى مكة فى ليلة واحدة . وهنا نقف قليلا لنسأل : ما الزمن ؟ إننا إذا تخلصنا من هذه الأرض المادية واحتللنا مكانا مستقلا لا يربطنا بجاذبيتها ولا بقوانينها سوف لا نشعر بالزمن الذى تعودنا عليه ، ولا يصبح للعمر أو للفناء لدينا أى معنى . إننا عندئذ لا نعرف سوى — اللازمن — أى الخلود — لا ماض ولا مستقبل ولكن الحاضر وحده هو الذى نعيش فيه[٢] .

ويقول أينشتين واضع نظرية النسبية : إنه ليس للزمن من حقيقة قائمة بذاتها وأنه من خواص المادة ، وإن المستقبل قد يتصل بالحاضر وقد يلحق بالماضى ، ففى كل لحظة نحن نقتطع من المستقبل جزءا نضمه إلى الماضى فلا ينقص هذا ولا يزيد ذاك لأن كلا منهما لا نهائى وإن المستقبل يلتف على شكل دائرة وبذا يدخل فى الماضى إذ الدائرة علامة أبدية .

وبحسب نظرية النسبية تكون الظواهر التى تمر بنا بسرعة الضوء هى تلك التى اعتدنا أن نسميها إشعاعا أما الأحداث المجسمة التى تسير ببطء شديد فقد اعتدنا أن نسميها مادة ، أو بحسب تعبير أينشتين أن المادة هى عقل أو فراغ أو فضاء نقصت سرعته عن السرعة الطبيعية للضوء وهى ١٨٦ ألف ميل فى الثانية . ولو أن هذه المادة عادة تتذبذب بسرعة الضوء لاختفت ولم تعد تدركها حواسنا . فنحن إذا أمسكنا فى يدنا بقطعة من

---

(١) الإنسان روح لا جسد . للدكتور رءوف عبيد .

(٢) أسرار الكون . نقله إلى العربية الدكتور سيد رمضان هدارة .

الحديد شعرنا بصلابتها ولكنها فى الواقع ليست صلبة ، وكل ما حدث هو أن حاسة اللمس قد تأثرت باهتزاز الألكترونات فشعرنا بصلابتها كما نشعر بنفس الكيفية بحرارتها أو ببرودتها ، فتنقل حواسنا أو عقولنا صورة الحديد وحرارته أو برودته . ونفس القول يصدق على جميع عناصر العالم الذى نعيش فيه والذى يبدو لنا صلبا ولا هو بصلب ولا مادى .

ولذا يتساءل المرحوم الدكتور مشرفة وهو بصدد شرح نظرية النسبية : كيف تبدو الأشياء لراصد يسير بسرعة الضوء ؟ ويجيب بأن الإشعاع الذى يصاحب هذا الراصد جنبا إلى جنب يبدو له مادة صلبة . أما الأشياء المادية التى تمر به بسرعة الضوء فتكون إشعاعا .

فما رأى السادة الماديين الذين يحترمون حواسهم فى هذه الحقائق العلمية التى أثبتتها المعادلات الرياضية ؟ ويا ترى ما رأى القصاص الذين رووا أن الرسول عليه السلام فى صعوده إلى بيت المقدس وفى عودته إلى مكة رأى قوافل قريش ، ولم يكتفوا بذلك بل جعلوه يشرب من إناء كان على ظهر بعير فى قافلة ، فى هذه الحقائق المذهلة التى يحتويها الكون الذى خلقه بديع السماوات والأرض ؟

ولو كان القصاص الذين رووا أحاديث الإسراء روايات مادية كل أدواتها دابة فوق الحمار ودون البغل وشجرة نبق وذهب ولؤلؤ ومرجان وياقوت ورفرف أخضر وأجنحة ملائكية وعسل وخمر ولبن يعرفون أنه إذا انطلق شعاع ضوئى فى الفضاء بسرعته العادية وهى ١٨٦٠٠٠ ميل فى الثانية تقريبا فإنه يسير فى دائرة كونية ويعود إلى مكانه الأصلى بعد زمن يزيد قليلا على مائتى مليون سنة ضوئية[١] . أما كانوا يخجلون من تصوير

---

(١) العالم وإينشتين : تأليف لينكولن باونت ترجمة الأستاذ محمد عاطف البرقوقى .

آيات الله الكبرى بشجرة أوراقها كآذان الفيلة أو الورقة منها تظل الخلق أو تكاد الورقة منها تغطى هذه الأمة ، وإذا ثمارها كالقلال أو بقباب اللؤلؤ أو بتراب المسك ؟!

ولم يجهد القصاص أنفسهم قليلا لما رووا أحاديث الإسراء ولم يستحوا من الله ورسوله فقالوا على لسان النبى — ﷺ : ثم أتيت بالمعراج الذى كانت تعرج عليه أرواح الأنبياء فصعدت أنا وجبريل ، فاستفتح جبريل باب السماء ، قيل من هذا ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ، قيل أو قد بعث ؟ قال نعم . فلو صدقنا أن للسماء بابا وأن جبريل قد دقه وأن الملائكة قالت من هذا ؟ وأنها لم تعرف الطارق ولم تعرف الضيف الكريم الذى وفد عليهم من الأرض . أيمكن أن نصدق أن الملائكة أو خزنة الجنة أو خزنة النار لم تكن تعرف أن النبى عليه السلام قد بعث ؟ إن أهل الأرض قد سمعوا برسالته وإن نفرا من الجن قد آمنوا به . أو نصدق أن ملائكة الله لم يدروا بمبعثه ؟! لو صدقنا القُصّاص فى هذا لوجب علينا أن نلغى عقولنا أو نستخف بالملائكة ونرميهم بالجهل والغفلة !

ومن جرأة القصاص على الله تطوعهم لوصف سدرة المنتهى . فقالوا إنها شجرة يخرج منها النيل والفرات والكوثر وسيحان وجيحان ، أوراقها مثل آذان الفيول ، وأن الورقة الواحدة لو ظهرت لغطت هذه الدنيا ، وإذا ثمرها كالقلال (الواحدة تسع قربتين ونصفا) . وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب وأنوار متعددة وألوان متعددة وغشيتها الملائكة ، مع أن سدرة المنتهى هى « سدرانا مولتانا » النجم الأخير فى المجموعة الكونية . وقد غشيه نور ربه . فليس فى الكون حقيقة ثابتة إلا النور[1] : ﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ ، ﴿ وأشرقت الأرض

---

(١) إينشتين .

بنور ربها ووضع الكتاب ﴾ .

وقد قال صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى :

« إن الناس اليوم يقدسون عقولهم ويسيرون وراء ما يمليه عليهم علمهم القاصر ونظرهم الضعيف ، وكل من سار وراء عقله ووزن كل ما جاء عن الرسول عليه السلام بميزان فكره قلما يؤمن إيمانا صحيحا . فإذا راقك من العقل ما يشقشق به فى بعض الأحيان ، لم يلبث أن يسوءك منه ما يهذى به فى وقت آخر ، ولا غرو فالجهل حليف الإنسان ، والضعف لازم من لوازم البشرية ، وقصور العلوم من صفاتها الذاتية وأغراضها اللازمة . وكل من لم يصدق إلا بما وصل إليه عقله وبلغته حدود علمه ليس مؤمنا بالرسول على الحقيقة ، وإنما هو مؤمن بعقله .

وما جاءت الرسل إلا لتخبرنا بما وراء الطبيعة مما لم تصل إليه العقول التى لا تستمد معلوماتها إلا من المحسوسات وما تنتزعه منها من المعقولات الثابتة . مما هو راجع إليها ومتوقف عليها وتصورات الله لا نهاية لها وعوالمه لا حد لها ولكل عالم قانون يخصه .

فمن الخطأ البين الحكم على عالم من العوالم بأحكام عالم آخر ، وإذا كنا نرى من بعض أنواع الحيوان ما لا يعيش إلا فى الماء ، ومن بعضها ما لو مكث فى البحر لمات ، ومن بعضها ما يقتله « ثانى أوكسيد الكربون » كالإنسان ، ومنها ما يقتله « الأوكسوجين » ككثير من الحيوانات الدنيا ، لعلنا كنا لا نصدق ذلك قياسا على أنفسنا لولا مشاهدتنا إياه ، فكيف بما لم نقف له على عين ولا أثر من العوالم التى تحس والتى لا تحس ؟

وإنى لأعجب لهم كيف يتعجبون ويحكمون فى كل الأشياء بالأحكام الجازمة ، اعتمادا على بضع قوانين وصلوا إلى ظواهرها من قوانين هذا الكون التى لا يحصيها إلا الله ، ولا يدرى كنهها غير مبدعها الذى لا حد

لقدرته ولا نهاية لعلمه ؟

وليت شعرى بعد ذلك كله ، أى عقل نحكمه فيما ورد عن الشارع ؟ أهل عقل الأفراد أم عقل الجماعات ؟ وما هو الضابط إذا اختلفت العقول وليس هناك نوع من الأنواع وقع التفاوت بين أفراده مثل نوع الإنسان الذى هو مظهر المتناقضات ومجمع العجائب والغرائب ؟ وقد خاطب الله الخلق جميعا بقوله : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾[1] . ويقول فى حق الإنسان : ﴿ إنه كان ظلوما جهولا ﴾[2] .

وإننا لنرى فى تخبطه وتناقضه وارتباكه فى أحواله واضطرابه فى أعماله الدليل الساطع على أنه مخلوق من الطيش والجهالة والعجز والقصور . فعلام تلك الكبرياء وهو من الضعف بحيث يرثى له ويشفق عليه .

لا يستند هؤلاء المنكرون إلا إلى الاستبعاد العقلى وقياس الغائب على الشاهد وإرجاع ما لم يعلموا إلى ما علموا . والجاهل لا يعرف قدر نفسه ولا قدر العلم ، ويعتقد أن كل ما خرج عن دائرة علمه فى دائرة العدم : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾[3] .

ومن الغريب الذى يؤسف له أنهم إذا سمعوا أن بعض الأوروبيين يريد الوصول إلى القمر ويفكر فى إعداد العدة لذلك لم يتحرك منهم ساكن ، بل ربما انتصروا لما سمعوا وقالوا : إن العلم يلد العجائب والاكتشاف يأتى بالغرائب ، ولكنهم إذا سمعوا أن الرسول عرج به إلى السماء قامت قيامتهم وهدرت شقاشقهم وظهر كل ما فى نفوسهم الضعيفة من خبث وإلحاد .

وسنتكلم معهم بما يخضعون له إذا سمعوه من ساداتهم الأوروبيين الذين

---

(١) الإسراء ٨٥ .

(٢) الأحزاب ٧٢ .

(٣) يونس ٣٩ .

لم يعلموا علمهم ولا أحسنوا محاكاتهم .

أما الكلام فى الجهة النقلية فأظنه لا يعنيهم كثيرا ولا يقنعهم كثيرا أو قليلا، ومع هذا فسنقول فيه كلمة موجزة من أجل الفريق الثانى الذى ينتسب إلى العلم ولا يمكنه الخروج عن الكتاب والسنة ، ولكنه يؤول ويحرف اغترارا ببعض الروايات وإجابة لنزعة عنده وعقيدة لديه لا تبعد كثيرا عن عقيدة الماديين ، وإن كان مذبذبا بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، فنقول :

إن من قال : إن الإسراء بالروح تمسك ببعض روايات مطعون فيها كرواية عائشة رضى الله عنها التى رواها الحفاظ وقالوا : إنها غير صحيحة من وجوه عدة ، لا نطيل بها الكلام ، وكرواية شريك بن أبى نمر التى طعن فيها الحفاظ بما يطول شرحه . وليس غرضنا إلا أن نشير إلى ذلك إشارة خفيفة يعرفها ذلك الفريق من الشيوخ المتفيقهين . والعالم كل العالم من لا يتأثر بكل ما رآه أو يهوش بكل ما روى ، بل العالم كل العالم من يعرف المقبول والمردود والصحيح والضعيف ويجمع بين الروايات المختلفة إذا أمكن الجمع ويرجح الراجح ويسقط المرجوح إذا تعذر التوفيق . ولا أدرى كيف يقبل الذوق السليم أن الإسراء كان بالروح بعد قول الله تعالى : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾[١] .

فها أنت ذا ترى الآية الكريمة قد افتتحت بسبحان المقر باستعظام ما كان من الأمر والتعجيب منه لجلاله ، وذلك اللفظ لا يصح موقعه ولا يتناسب وبلاغة القرآن الحكيم إلا إذا كان الأمر غير معهود ولا مقدور لأحد من البشر .

---

(١) الإسراء ١ .

ولو كان الإسراء بالروح فقط لم يكن ثمة ما يقتضى هذا الاستعظام وذلك التعجب ، إذ لا خطورة فى إراءة النبى عليه الصلاة والسلام آيات ربه فى نومه ، فإن هذا أمر يقع لكل أحد ، بل يرى الإنسان فى نومه رب العزة الذى هو أكبر من كل شىء . وإنما يظهر وجه الاستعظام والتعجيب لو قلنا : إن ذلك الإسراء كان بالجسد والروح كما هو ظاهر لكل ذى فطرة طاهرة وعقل سليم .

ثم تراه يقول « أسرى » وهو لا يقال فى النوم كما قال القاضى « عياض » لأن ما يقع فى النوم إنما هو تخييل وضرب مثل لا غير ، ولا يحسن أن يعبر عن ذلك بأنه أسرى به ، وإنما يحسن ذلك إذا أسرى به ليلا إسراء حسيا على ما هو معهود ومعروف .

ثم يقول « بعبده » وهو نص قاطع فى الموضوع ، لأن العبد لا يطلق فيما تعرفه العرب إلا على الشخص المكون من الروح والجسد ، ولم يعهد فى لغة العرب إطلاقه على الروح فقط ، فهم لا يعرفون من العبد إلا الشخص المحسوس المنظور كما فى قوله تعالى : ﴿ أرأيت الذى ينهى * عبدا إذا صلى ﴾[1] . وقوله : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه ﴾[2] إلى غير ذلك .

ثم يقول « لنريه من آياتنا » . ويقول فى سورة النجم : ﴿ أفتمارونه على ما يرى * ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة ما يغشى * ما زاغ البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾[3] .

---

(١) اقرأ ٩ ، ١٠ . (٢) الجن ١٩ .

(٣) النجم ١٢ — ١٨ .

ولا شك عند من له ذوق سليم أن هذه الآيات الكريمة تدل على أن النبى عليه الصلاة والسلام أسرى به إلى بيت المقدس وأنه عرج به إلى السماوات العلا بجسمه وروحه ، وأنه رأى جبريل عند سدرة المنتهى . وأنه أرى من آيات ربه الكبرى .

وإنى أستحلفك بعلمك وذوقك وإنصافك أن تنظر معى إلى قوله : ﴿ أفتمارونه على ما يرى ﴾ ثم قل لى بعد ذلك ماذا ترى ؟ أفيسهل عليك أن تسلم أن المراء والجدل كانا فى رؤيا منامية ؟ وهل يكون فى رؤيا الروح وحدها فى النوم جحود ومجادلة ؟ وهل لذلك وقع عند القائل والسامع حتى تذكر فيه تلك الآيات وتحصل به تلك المجادلات وينوه بشأنه فى القرآن هذا التنويه العظيم ؟ وهل عهد مثل ذلك فى الرؤى المنامية ؟ وهل ينكرون على أنفسهم ذلك حتى ينكروه عليه ﷺ ؟

لا شك أن مناكرتهم ومجادلتهم ما كانت إلا لعلمهم أنه يدعى أن ذلك كان يقظة لا نوما ، فهذا محل الاستبعاد والاستنكار ، لأنه غير معهود لديهم ولا هو فى متناول قدرتهم .

أما أحلام الأرواح فيجوز أن تقع لكل امرئ حتى المشركين أنفسهم . وهل ينكر الله عليهم إنكارهم بقوله : « أفتمارونه على ما يرى ؟ » . ويقرعهم على مجادلتهم بالباطل ويقسم أن صاحبهم ما ضل وما غوى ويقول : إنه رأى ولا يليق أن تماروه فيما رآه . هل يكون كل ذلك لرؤيا منامية ؟ وهل يقول المنكر : إن رؤيا جبريل فى المرة الأولى التى جاءت فى الحديث الصحيح حين رآه — صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم — بحراء على صورته التى خلقه الله تعالى عليها قد سد الأفق ، كانت حلما أيضا ؟ أم يفرق بينهما والقرآن لم يفرق ، وجعل الرؤية فى المرة الأخرى

عند سدرة المنتهى كالرؤية الأولى فى الأرض .

وهل يقال ذلك إذا كانت إحدى الرؤيتين صادقة والأخرى حلما ؟

وهل يحسن أن تجعل الضمير فى قوله تعالى : « ولقد رآه نزلة أخرى » لروح النبى دون جسده ، وتغاير بينه وبين ما قبله وما بعده من الضمائر العائدة على شخصه — صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم — لا على روحه فقط ؟ وهل يسهل عليك أن تقول : إنها رؤيا منامية مع قوله تعالى : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ ؟

وهل يقال فى الرؤيا المنامية : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ﴾[1] ؟ .

ومتى كانت رؤيا المنام فتنة لأحد ؟ فإن كل إنسان يرى بروحه ما شاء الله أن يرى من الكون ، فما وجه الافتتان وما معناه ؟

هذا بعض كلام فضيلة الشيخ يوسف الدجوى ، وقد قال المرحوم مصطفى صادق الرافعى : إن المفسرين لم يلتفتوا إلى لفظ ﴿ طغى ﴾ فى قوله تعالى : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ . فلو لم يكن البصر مقيدا فى جسد لطغى ولكن عدم طغيانه دليل على أنه كان محكوما بإرادات الجسد .

وقال صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن تاج فيما قال عن الإسراء :

« إن بعض الناس قد حاول — بحسن نية — أن يقرب إلى الأذهان مسألة الإسراء من مكة إلى بيت المقدس بتلك السرعة الخاطفة التى لم يعهدها أحد ، فقال : إن الإسراء بتلك السرعة بين هاتين البلدتين المتباعدتين وقطع المسافات بينهما فى فترة قصيرة جدا إذا كان عجيبا غريبا

---

(١) الإسراء ٦٠ .

قبل أن تستخدم قوة البخار وقبل أن تستحدث الطائرات العادية والطائرات النفاثة والصواريخ الموجهة فإنه يجب أن يعتقد وأن يسلم به من غير تردد بعد ظهور تلك المخترعات وتلك المستحدثات ، فإن المسافات البعيدة التي يحتاج في قطعها راكب البعير أو الفرس إلى ثلاثين وأربعين يوما يمكن أن تقطعها الطائرات في بضع ساعات .

يريد أصحاب هذه المحاولات حسنو النية بهذا التقريب أن يضعوا واقعة الإسراء في المحل الذي لا غرابة فيه والذي يثبت التقدم العلمي وقوع نظائر له ومشابهات ، ليقنعوا — بصحة ذلك الإسراء وإمكان حصوله — أصحاب العلوم المادية الذين لا يسلمون إلا بما تلمسه أيديهم ويقع تحت أبصارهم ويخضع لتجاربهم وقوانين علومهم في الحوادث والكائنات .

نية حسنة ومقاصد طيبة ولكنها تنطوي على شيء غير قليل من الغرارة وعدم التبصر في مجاراة الماديين الذين لا يؤمنون بمعجزات ، فإنه لا سبيل إلى التقريب أو الربط بين أمور هي من فعل الإنسان ، يقدر عليها بتفكيره واستنباطه ويتوصل إليها بأسباب مادية تخضع لقوانين علمية ومعارف إنسانية ، وأمور أخرى لا دخل لقدرة الإنسان فيها وإنما هو مظهر كونها ومحل جريانها ، يخلقها الله فيه ويجريها على يديه ، كما قال تعالى : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾(١) . فإن رمية واحدة بقبضة من الرمل أو الحصباء يصيب بها الرسول — ﷺ عيون فريق كبير من الأعداء في غزوة بدر — حتى يكون ذلك من أسباب هزيمتهم واندحار جموعهم — ليس أمرا عاديا مما يكون في طاقة الإنسان . وإنما هو فعل الله الخالق لكل شيء القادر على كل شيء . القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير .

---

(١) الأنفال ١٧ .

إنه مهما تقدمت العلوم وارتقت الصناعات ووجد من المخترعات ما يبلغ فى غرابته وطرافته أضعاف أضعاف ما كشف عنه العلم الحديث الآن ، فإنه على كل حال يكون نوعا آخر غير نوع المعجزات التى يجريها الله على أيدى المختارين من رسله ، فإن هذه المعجزة ليست لها وسائل ومقدمات ولا أسباب وأدوات مما يدخل فى مقدور العباد .

أما المخترعات الإنسانية فإنها لا بد أن تنبنى على قواعد وقوانين علمية ولا بد فيها من استخدام أجهزة وأدوات يتوصل فيها بالتحليل والتركيب وإحكام الصنع إلى ما يراد تكوينه من مخترعات ، فالطيران فى السماء باستخدام الأجهزة والآلات البخارية وغيرها أمر بديع وعمل إنسانى عجيب ، ولكن له أسبابه ومقدماته العلمية التى يستطيع الطيران بها فى الجو كل من يعرفها ويعرف طريقة استخدامها فى ذلك .

أما الطيران من غير تلك الأسباب والمقدمات فليس فى مقدور أحد من الناس ، وعلى هذا الأساس يكون الفصل بين المعجزات وبين كل غريب عجيب من المبتكرات والمخترعات التى تنبنى على قوانين علمية وأفكار واستنباطات إنسانية » .

إن فضيلة الشيخ يوسف الدجوى وفضيلة الشيخ عبد الرحمن تاج يتحدثان عن الماديين الذين يحترمون حواسهم القاصرة عن اكتشاف ما فى الكون من عجائب ، وأحب أن أوضح هنا آخر ما وصل إليه العلم عن المادة التى يقدسها الماديون ، فلم تعد المادة حقيقة بل صارت غيبا لا يعلم حقيقتها إلا علام الغيوب . ومن سخرية القدر أن يصبح الماديون من المؤمنين بالغيب وإن كانوا يدرون أو لا يدرون !

إن الكشف الحديث عن طبيعة المادة الصلبة بوصفها مجرد أثير فى رتبة اهتزاز معينة نفى عنها نهائيا قدرتها على خلق الحياة والمحافظة عليها ، فبعد أن

كانت المادة تصلح لتعليل الحياة أصبحت هى نفسها بحاجة إلى التعليل ، وأصبح أقرب تعليل علمى للمادة هو تعليلها بالحياة . وهكذا انقلبت قضية التعليل رأسا على عقب وأصبح السبب نتيجة والنتيجة سببا .

أو بعبارة أخرى لقد تبين أن المادة لا تصلح لتعليل أى قانون من قوانين الحياة لأنها ليست أكثر من طاقة محبوسة ، ولأن كل المادة تمثل رغم ضآلتها المفرطة فى مجموع إلكتروناتها وبروتوناتها مجموعة شمسية كاملة متحركة لا يعوزها شيء ولا تختلف عن أية مجموعة شمسية يعرفها علم الفلك إلا من ناحيتي الأحجام والأبعاد . فمن هو يا ترى ذلك الذى حبس ذرات المادة طبقا لهذا النظام البديع الذى يحير العقول ؟ ومتى وكيف جرى ذلك ؟. هذا هو الوضع العلمى الآن لسؤال تعليل المادة ، وإذا كان ثمت جواب فلن يكون إلا أن الحياة تعلل المادة أما المادة فلا تعلل الحياة بعد أن ثبت عجزها وقصورها حتى عن أن تعلل نفسها(١) .

وأختتم مناقشة أحاديث الإسراء بأن أقول إن الإسراء كان بالجسد والروح ما فى ذلك شك . وأن الله سبحانه وتعالى قد أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام وأراه آياته الكبرى فى السماوات والعلا ، وأن الرسول — ﷺ — قد رأى سدرة المنتهى وقد غشيها نور الله ، وقد أوحى الله إليه الصلوات الخمس ، وقد انتهت الرحلة العجيبة عند بيت المقدس ولو كانت قد تجاوزت المسجد الأقصى لذكر ذلك القرآن الكريم .

وأعتقد أن الرسول — ﷺ — لم يكثر من الحديث عن الإسراء وإن كان القصاص قد رووا أحاديث عنه جمعها الذهبى فى مجلدين ، لأن العجائب التى رآها كانت فوق تصور رجال عصره بل لعلها تكون فوق

---

(١) الإنسان روح لا جسد . للدكتور رءوف عبيد .

تصور الناس فى أى عصر ، فاتساع الكون الذى زاره غير محدود أو محدود ولكن قطره يقاس ببلايين السنين الضوئية .

إن الإسراء معجزة تفوق تصور عقول البشر فى كل عصر ، فلا الطائرات ولا الصواريخ ولا أى من المخترعات الحديثة أو مخترعات المستقبل حتى يرث الله الأرض ومن عليها تستطيع أن تعطينا صورة صحيحة عن إسراء الله بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .

أما ما يروى من أحاديث عن الإسراء فهى من اختراع القصاص ، وفى رأيى أن أغلب هذه الأحاديث نتاج عقول تصورت ملكوت الله على قدر علمها ، وهى أول قصة أدبية إسلامية استوحيت من آيـات الإسراء والنجم ، وقد اشترك فى تأليفها أكثر من مؤلف ، وكانت مصدر إلهام أبى العلاء المعرى لما كتب رسالة الغفران ، وكانت رسالة الغفران وحى دانتى عندما كتب الكوميديا الإلهية « جحيم دانتى » .

القاهرة فى ٧ / ٧ / ١٩٦٨

المراجـــع

القرآن الكريم

الكتاب المقدس

صحيح البخارى

الاستيعاب — لابن عبد البر

جمهرة نسب قريش — للزبير بن بكار

السيرة النبوية — لابن هشام

الشفا فى تعريف حقوق المصطفى — للقاضى عياض

الإنسان روح لا جسد — للدكتور رءوف عبيد

نهاية الأرب — للنويرى

بلوغ الأرب — للألوسى

إحياء علوم الدين — للغزالى

حسان بن ثابت — للدكتور سيد حنفى حسنين

وفاء الوفا — للسمهودى

الخنساء — للدكتور محمد جابر عبد العال الحينى

إيران فى عهد الساسانيين — لكريستينس ـــ ترجمة د. يحيى الخشاب

أسباب النزول — للنيسابورى

أبناء أبى بكر — للمؤلف

السيرة الحلبية — لعلى برهان الدين الحلبى

الحضارة البيزنطية — لستيفن رنسيمان ـــ ترجمة جاويد

شرح نهج البلاغة — لابن أبى الحديد

تاريخ ابن خلدون

الأغانى — لأبى الفرج الأصفهانى

مختصر دراسة التاريخ — لأرنولد توينبى (ترجمة فؤاد محمد شبل)

للمؤلف

		الطبعة الأولى
أحمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغفارى		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
فى الوظيفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن أبى وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة أقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
أبناء أبى بكر الصديق		اكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد ترجمه مع محمد محمد فرج)		يناير سنة ١٩٤٧
فى قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
أهل بيت النبى		مايو سنة ١٩٤٨
أميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قلعة الأبطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المستنقع	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧
أم العروسة		يناير سنة ١٩٥٨
وكان مساء	قصة	مارس سنة ١٩٥٨
أذرع وسيقان	قصة	يوليو سنة ١٩٥٨

		الطبعة الأولى
أرملة من فلسطين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٩
الحصاد	رواية	سبتمبر سنة ١٩٥٩
القصة من خلال تجاربى الذاتية		سنة ١٩٦١
جسر الشيطان	قصة	أكتوبر سنة ١٩٦٢
ليلة عاصفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٦٣
النصف الآخر	قصة	يناير سنة ١٩٦٤
السهول البيض	رواية	يونيو سنة ١٩٦٥
وعد الله واسرائيل	·	يوليو سنة ١٩٦٧
عمر بن عبد العزيز	قصة	يناير سنة ١٩٧٢
الحفيد	قصة	اكتوبر سنة ١٩٧٢
هذه حياتى		فبراير سنة ١٩٧٥
مذكرات سينمائية		ابريل سنة ١٩٧٥

القصص الدينى

(للأطفال)

قصص الأنبياء	فى ١٨ جزءا
قصص السيرة	فى ٢٤ جزءا
قصص الخلفاء الراشدين	فى ٢٠ جزءا
العرب فى أوروبا	فى ٢٤ جزءا

السيرة النبوية

محمد رسول الله والذين معه
في ٢٠ جزءا

١	ــ إبراهيم أبو الأنبياء	اكتوبر ١٩٦٥
٢	ــ هاجر المصرية أم العرب	مارس ١٩٦٦
٣	ــ بنو إسماعيل	سبتمبر ١٩٦٦
٤	ــ العدنانيون	فبراير ١٩٦٧
٥	ــ قريش	مايو ١٩٦٧
٦	ــ مولد الرسول	يوليو ١٩٦٧
٧	ــ اليتيم	اكتوبر ١٩٦٧
٨	ــ خديجة بنت خويلد	يناير ١٩٦٨
٩	ــ دعوة إبراهيم	مارس ١٩٦٨
١٠	ــ عام الحزن	يونية ١٩٦٨
١١	ــ الهجرة	سبتمبر ١٩٦٨
١٢	ــ غزوة بدر	نوفمبر ١٩٦٨
١٣	ــ غزوة أحد	يناير ١٩٦٩
١٤	ــ غزوة الخندق	مايو ١٩٦٩
١٥	ــ صلح الحديبية	يونيه ١٩٦٩
١٦	ــ فتح مكة	نوفمبر ١٩٦٩
١٧	ــ غزوة تبوك	فبراير ١٩٧٠
١٨	ــ عام الوفود	مايو ١٩٧٠
١٩	ــ حجة الوداع	نوفمبر ١٩٧٠
٢٠	ــ وفاة الرسول	ديسمبر ١٩٧٠

رقم الإيداع ٣٩٦٩
الترقيم الدولى ٩ ــ ١٦٠ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧